

53
كتابى
فلورنس باركلى
المسبحة
الجزء الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه القصة .. وقصتها معى !

عزيزى القارىء ..

هل تحب أن تعرف كيف وصلت هذه القصة إلى يدك ، فى هذه الطبعة العربية ؟

إن لذلك قصة طريفة ، تعطيك فكرة عن الأثر البعيد الذى قد يترتب على كتاب يهديه قارىء معجب ، إلى صديق ..

ففى صيف عام ١٩٤٠ ، لمحت فى يد صديقى الكاتب القصصى « يوسف جوهر » كتابا إنجليزيا ، سألته عنه ، فقال إنه لم يقرأه بعد ، وإنما أهدته إياه سيدة سورية — على ما أذكر — بعد أن بالغت فى إطرائه والثناء عليه، فكرة وموضوعا وأسلوبا.

واستهوانى غلاف الكتاب ، وعنوانه الغامض ، The Rosary ، الذى يحتمل أكثر من معنى .. وإذ علمت أنه لا ينوى قراءته فى أمد قريب ، أخذته منه لأقرأه ثم أرده إليه ..

لكنى شغلت عنه زمنا ، بل ونسيته .. حتى وقع فى يدى مرة أخرى وأنا « انبش » مكتبتى قبيل سفرى إلى مدينة (الأقصر) فى شتاء عام ١٩٤٢ ، فأخذته معى ..

وفى شرفة (ونتر بالاس) المطلة على النيل — ذات أصيل — بدأت أطالع الصفحات الأولى منه ، فى غير حماس يذكر ، بل وفى شىء من الشعور بخيبة الأمل !.. فقد بدا لى الفصلان الأولان منه باعثين على الملل ، والانصراف عن القراءة !.. غير أنى تذكرت ما قالته السيدة مهدية الكتاب ، من ثناء بالغ عليه ، فواصلت القراءة ..

وبدأت تتكشف لى روعة القصة .. وشيئا فشيئا استأثر سياقها بلبى .. فمضيت أنهب صفحاتها نهبا .. وكلما توغلت فيها ، ازداد نهمى وشغفى المحموم بها .. حتى أتيت عليها فى أيام معدودة ، وقد بلغ إعجابى بها أقصاه !

ومنذ ذلك التاريخ ، دفعنى شعور غير مفهوم إلى الحرص على تلك النسخة الإنجليزية من القصة ، حرصى على كنز ثمين يعز على التفريط فيه !

ماذا كنت أبغى من الحرص على تلك النسخة ؟

وفيم كنت ـــ يومئذ ـــ أنوى استخدامها ؟

أغلب الظن ان هذا الحرص ، وذلك الشعور غير المفهوم ، كان هدفهما ـــ فى عقلى الباطن ـــ هو تحين الفرصة لتقديم هذه القصة الرائعة إلى قراء العربية .. (برغم بعد الشقة بينى وبين إمكانيات تحقيق هذا الأمل ، يومئذ ، قبل أن أخرج مشروع « مطبوعات كتابى » ـــ بل و « كتابى » ذاته ـــ إلى عالم النور) .

وفى تلك الأثناء صارحت صديقى « يوسف جوهر » بنبأ « استيلائى » على كتابه ، واعدا إياه بأن « أعيره » إياه ـــ مجرد إعارة ! ـــ يوم يفكر جديا فى قراءته ..

***

ومرت الأعوام ..

ولم أفرط فى نسخة القصة ، خلال هذه الأعوام « السبعة عشر » ـــ حتى على سبيل الإعارة ـــ إلا مرة واحدة ، يوم كنت أزور النائب السابق « نجيب ميخائيل بشارة » فى معتقل الزيتون ـــ على أثر اعتقاله مع الاستاذ الكبير « مكرم عبيد »

أثناء أزمة (الكتاب الأسود) المشهورة ـــ فطلب منى كتابا يستعين بقراءته على تبديد وحدته فى المعتقل .. فلم أجد أمتع من هذا الكتاب الشائق مؤنسا له ومعينا على تبديد أوقات فراغه الطويلة ، ونسيان وحدته ..

وحين رد الكتاب إلى بعد خروجه من المعتقل ، حدثنى عن الأثر الهائل الذى أحدثه فى نفسه ، وكيف أمدته فكرته وسياقه الرائعين بمزيد من الطاقة النفسية والقوة على احتمال محنته ، والصبر فى مواجهة الشدائد !.. بل روى لى كيف أنه أعاد قراءة الكتاب مرتين ، وكيف تناقلته بعد ذلك أيدى سواه من المعتقلين ـــ وكان منهم الزميل « جلال الدين الحمامصى » ـــ فأجمعوا كلهم على الاعجاب به والتحمس له ، وصارت أحداث المأساة العنيفة التى يرويها الكتاب ، موضع أحاديثهم ومناقشاتهم المتكررة فى لياليهم الموحشة ..

***

وازداد حرصى على نسخة الكتاب، حرص البخيل على ماله! .. ومضت الأعوام ، وأصدرت « كتابى » ثم « مطبوعات كتابى » ، دون أن يبرح خيالى الأمل فى أن أجد فراغا يتيح لى فرصة ترجمة هذا الكتاب بنفسى .. ذات يوم !

.. حتى جمعتنى بالنائب السابق جلسة على حافة حوض السباحة بنادى (سبورتنج) بمصر الجديدة ، فى أحد أيام الصيف الماضى .. وتطرق بنا الحديث إلى الأدب والقصص ، والمكتبة الضخمة التى اقتناها وقرأ أكثر كتبها فى شبابه .. وكيف أولع زمنا بالترجمة ، وترجم بالفعل بضع روايات

طويلة ومسرحيات ، شـاءت الظروف أن يفقد مخطوطاتهـا جميعا قبل أن تنشر ..

وجاء ذكر هذه القصة ، وتأثيرها العميق فى كلينا ، وحلمى القديم بترجمتها إلى العربية ، وعجزى حتى الآن عن اقتناص الفراغ الكافى للقيام بهذه المهمة ــ (بحكم استئثار « كتابى » و « المطبـوعات » بكل وقتى) ــ ثم احتياج القصـة ــ اية قصة ، فى نظرى ــ إلى مترجم « مـؤمن بها » ، اى معجب بفكرتها واسلوبها إلى درجة الشغف والتحمس ..

وكان أن رحبت بأن يتولى عنى ترجمة هذه القصة .

ظروف تفكير المؤلفة فى وضع هذه القصة

وقد يطيب لك ، بعد هذا ، ان تعرف شـيئا عن ظـروف وضع هذه القصة ، وعن مؤلفتها :

تقول ابنة المؤلفة فى الكتاب الذى نشرته عن حيـاة أمها ، واسمه « حياة فلورنس باركلى ، بقلم احدى بناتها » ان النواة الاولى لقصة « المسبحة » هذه كانت قصة « قصيرة طويلة » كتبتها المؤلفة فى عام ١٩٠٥ بعنوان ! عجلات الزمن » ، دون اى تفكير فى نشرها . لكنها عادت فأحست ــ بعد كتابتها ــ بميل إلى الا تقطع صلتها بشخصية جذابة مثل شـخصية « جين شامبيون » ، بطلتها .. عندئذ تطورت فكرة القصـة فى ذهن « فلورنس » إلى فكرة مطولة اختمرت فيه بالتدريج ، فراحت ــ دون أن تمسك قلما أو قرطاسا ــ ترسم خيوطهـا وخطوطها الرئيسية والتفصيلية ، حتى اتمت فى ذهنها قصة « المسبحة » بكل زخرفها ورونقها الحاضرين . وكانت هـذه هى طريقتها دائما، ان تضع قصصا كاملة ، بأحداثها وحوارها،

ثم تتركها دفينة فى أركان ذاكرتها ، ربما لسنوات طويلة ، حتى تطفو يوما فتكتب، كما تطبع أسطوانة سجل عليها نغم او حديث!

وهكذا ظلت « المسبحة » غارقة فى سبات عميق لأكثر من عام .. وفى احد الأيام ، كانت المؤلفة تستقل القطار عائدة من لندن إلى (هيرتفورد) ، فاذا بها تمسك بالقلم والورق فتكتب الفصل العاشر من القصة ، كاملا ، وهو الفصل الذى يعلن فيه «جارث » حبه لـ « جين » ، فى شرفة قصر (شنستون) . وقد يبدو غريبا أن يكتب الفصل العاشر من رواية ، قبل الفصول التسعة الأولى !.. ولكن ، تلك كانت طريقة «فلورنس باركلى» وموهبتها الفذة ، أن تكتب خاتمة القصة أحيانا قبل بدايتها ، من فرط ما كان الكتاب كله « يعيش » مطبوعا بحـذافيره فى ذاكرتها ، بحيث يصبح فى مقدورها أن تكتب أى موقف منـه فى أى وقت تشاء !

كتبت هذه القصة وهى طريحة الفراش !

بيد أن التفرغ المنشود لكتابة بقية فصول «المسبحة» لم يتهيأ للمؤلفة إلا فى أغرب الظروف وأقساها ، حين قدر لها أن تلازم الفراش شهورا طويلة ــ لإصابة قلبها بإجهاد نتج عن إفراط فى ركوب الدراجة ــ وإذ ذاك راح قلمها يجرى على القرطاس دون توقف ، وهى راقدة فى فراشها .. وبعد ثمانية أشهر من المتاعب والآلام التى احتملتها ــ برغم طبيعتها الحارة النشطة ــ بصبر واستسلام تام ، تسنى لها أن تستعيد صحتها ونشاطها .. وكانت قد أتمت أكبر عمل فنى فى حياتها ، وهو «المسبحة»!

ومع ذلك فربما لم يكن يقدر للقصتين ــ المتوسطة والطويلة ــ

ان تنشرا ، لولا أن أرسلت المؤلفة أولاهما ، (عجلات الزمن)، إلى شقيقتها المقيمة فى نيويورك ، فأصرت على نشرها وطلبت ملحة أن تطلع على القصة الأخرى الطويلة ، (المسبحة) : وعندئذ أرسلت إليها « فلورنس » مخطوط هذه القصة ، فوضعته الشقيقة بين يدى أصحاب دار النشر المعروفة « بوتنام » ، الذين وافقوا على نشرها — (وإن لم يجل بخاطرهم يومئذ انه لن يمضى سوى وقت قصير حتى يبلغ عدد النسخ المبيعة منها مليون نسخة ، وحتى تترجم القصة إلى تسع لغات عالمية !) .. ولو أدركوا ذلك فى حينه لما اشترطوا عند قبول القصة أن تختصر ، فتحذف منها عشرة آلاف كلمة !.. والواقع ان ذلك الاختصار كان امتحانا قاسيا للمؤلفة ، فقد كانت القصة وحدة كاملة ، ومن شأن أى اختصار فيها أن يخل بتماسكها . (وقد انتقد أديب من أصدقاء المؤلفة بالفعل — وهو يجهل قصة ذلك الاختصار — «خلخلة» لاحظها فى بعض مواضع القصة ، وكانت تلك المواضع هى التى اجترأ عليها القلم الأحمر بالحذف والتشويه !) — على أن جميع الأجزاء والكلمات المحذوفة لم تلبث أن أعيدت إلى مكانها فى الطبعات التالية ، ومنها الطبعة التى أخذت منها هذه الترجمة الكاملة للقصة ..

الدستور الخلقى الذى تلتزمه المؤلفة فى قصصها

وقد نشرت « المسبحة » فى وقت واحد فى إنجلترا وأمريكا فى عام ١٩٠٩ .. وأخذ الاقبال عليها يزداد ، والطبعات تتوالى تبعا لذلك ، حتى بلغ ما بيع منها فى نهاية السنة الأولى ١٥٠ر٠٠٠ نسخة !.. وكم برحت بفلورنس الفرحة العظمى

حين تلقت آلافا عديدة من رسائل القراء — من جميع أقطار العالم — وكلها تشيد بالعون الكبير والأثر البالغ الذى تركته القصة فى نفوسهم .. كما كان مصدر غبطة كبرى للمؤلفة ان تقرأ الثناء العاطر الذى أمطرها به نقاد الأدب فى كبريات الصحف العالمية . وكان من بين النواحي — غير المألوفة — التى امتدحوها من أجلها ، أنها تكتب « برغبة حارة فى إدخال البهجة والعزاء إلى حياة ذوى القلوب الحزينة ! » ، ومن هنا كان الحماس البالغ الذى قرىء به الكتاب فى جميع الأوساط والطبقات !

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الهدف الذى تتوخاه المؤلفة فى قصصها . وفى هذا تقول فلورنس : « إن هدفى هو : ألا أكتب قط سطرا يمكن أن يدخل شائبة من الخطيئة أو ظلا من ظلال الخجل إلى أى بيت ! .. وألا أرسم قط شخصية تنزع إلى الانحدار بالمثل العليا للقراء الذين — عن طريق قلمى — ربطتهم ألفة وثيقة برجل أو امرأة من مخلوقات قصصى !.. ان فى العالم قدرا وافرا من الخطايا ، بحيث لا يحوجه الأمر إلى أن يستخدم المؤلفون قوة خيالهم كى يضيفوا خطايا أخرى وهمية إلى ما فى جعبة البشرية منها ! .. فأينما أدرت بصرك على ظهر هذا الكون تجد زرافات من الأشخاص الاشرار ، الوضيعين ، والخبثاء ، يدبون على أرضنا .. فلماذا يضيف المؤلفون مزيدا إلى عدد هؤلاء الأشرار ، ويخاطرون بتقديمهم إلى بيوت هانئة وادعة ، لا تحتمل وجودهم — فى الحياة الواقعية — دقيقة واحدة !

وقديما قال عالم وكاتب فرنسى عظيم : « إن المبرر الوحيد

القصص الخيالية ، هو أن تكون أبهى جمالا من الواقع ! » .

عنوان القصة .. واللبس الذى يثيره !

بقى إيضاح أخير ، يتصل بعنوان هذه القصة .. فلقد أطلقت عليها مؤلفتها : «المسبحة» ، والعنوان (سواء بالانجليزية The Rosary أو بالفرنسية Le Rosaire) مشتق من الكلمة اللاتينية Rosarium ، التى منها : Rosa و Rose بمعنى الوردة !

وقد تقول : وما علاقة الوردة بالمسبحة ؟

لكن هذه العلاقة تبدو بوضوح إذا عرفنا أن الحبات الكبرى للمسبحة كانت تسمى فى الأزمنة القديمة Roses ، وكانت المسبحة تصنع يومئذ من طاقة أو أكليل من الأزهار ، يرمز إلى إكليل أو طاقة روحية من الصلوات ، (التى يتلوها المتدينون كما يتلون الأدعية وهم يتابعون دحرجة حبات المسبحة بين أناملهم ..) .

وترمز المؤلفة بإطلاق هذا العنوان على القصة إلى أن البطلة حين تغنى أغنية « المسبحة » ـ وهى تعزفها على البيانو ـ إنما كانت تتأمل الأحداث الرئيسية لغرامها ، وذكريات هذا الغرام ، كما يتأمل حامل المسبحة الأحداث الهامة المتصلة بمعتقداته الدينية ، وهو يتلو الأدعية والصلوات ؛ ويدير بين يديه حبات المسبحة !

وفى هذا القدر الكفاية .. فتعال نطالع الآن فصول القصة ذاتها ، بعد أن عرفنا قصة القصة !

حلمى مراد



المسبحة

(الجزء الأول)

الفصل الأول

خيم سكون وادع — فى ظهيرة يوم من أيام الصيف بانجلترا — على مروج وحدائق (أوفردين) ، فسادها صمت زحفت فيه خيوط الشمس الآفلة والظلال المتطاولة على المرج السندسى ، وبدت فى الجو بوادر رطوبة عليلة ، جعلت ظل شجرة الأرز الباسقة مكانا محببا .

وكان القصر الحجرى القديم متينا ، ضخما ، خاليا من الزخرف ، يوحى برحابة وراحة — لا حد لهما — فى داخله ، وقد خفت من خشونة مظهره الخارجى ، فروع اللبلاب الرفيعة ، وأشجار المانوليا وغيرها من النباتات التى كانت تنمو منذ سنين طويلة ، متسلقة واجهة القصر البسيطة ، حتى أصبحت تكسوها بدثار من الخضرة الناعمة ، والزهور البيضاء اليانعة ، وفيض من الزهور الأرجوانية الصغيرة .

وكانت ثمة شرفة تمتد بطول واجهة القصر ، ويحدها — من احد طرفيها — مستودع فسيح ، ومن الطرف الآخر مكان لتربية الطيور .. وكانت تتخلل الشرفة — على مسافات متفاوتة — درجات واسعة من الحجر ، تفضى منها إلى حشيش المرج الناعم الطرى ، الذى امتد بعده متنزه واسع الأرجاء ، تناثرت فيه قرم من الأشجار الشائخة ، تجوس خلالها — فى خفر — غزلان سمراء اللون .. وبين الأشجار كانت مياه النهر تلمع ، كشريط فضى ضيق ينساب ملتويا فى رشاقة — بين صعود وهبوط — وسط الحشائش الطويلة والبراعم الذهبية .

وكانت الساعة الشمسية ـ المزولة ـ تشير إلى الرابعة .. وقد ركنت الطيور إلى الصمت فترة . فبدأ السكون ثقيل الوطأة ، يكاد يزهق الأنفاس ، إذا لم تتخلله هزة من غصن ، أو شقشقة من عصفور .. وكانت البقعة الوحيدة من اللون الزاهي ـ في هذا المنظر ـ تتمثل في ببغاء كبيرة الحجم ، ذات لون أحمر قان ، وقد نامت على أرجوحتها تحت شجرة الأرز .

وأخيرا .. وبعد صمت طويل ، سمع صوت باب يفتح ، وظهر شخص مسن أنيق في الشرفة ، فسار يمينا إلى نهايتها ، ثم مرق واختفى في بستان الورود . وما كان ذلك الشخص سوى الدوقة « ميلدرام » ، وقد أقبلت لتقطف الورد . وكانت تضع على رأسها قبعة قديمة من القش من طراز عرف ـ في أوائل عهد الملكة فيكتوريا ـ باسم « عش الغراب » ، وقد ربطت بأشرطة سوداء تحت ذقنها المهيب . وكانت ترتدي معطفا فضفاضا ، داكن اللون ، وثوبا قصيرا من الصوف الخشن ، وقد غيبت يديها في قفاز عتيق ، وحملت سلة من الخشب ومقصا ضخما .

ولقد قال أحد الظرفاء مرة : « إذا قدر لك أن تقابل فخامة الدوقة ميلدرام ، وهي عائدة من حديقتها أو من إطعام طيورها ، وكنت منبسط المزاج ، فقد يبلغ بك السخاء أن تنفحها بنصف شلن ! » .. غير أنه إذا قدر لك أن تسترعي انتباهها ـ بهذه الطريقة ـ فلن يكون لك من مخرج سوى أن تستسلم للثورات الدوقية ، التي تصبها عليك الدوقة وكأنها منن تتعطف بها عليك ! .. ثم لا تلبث ـ بعد ذلك ـ أن تتقبل

اعتذارك بطيب خاطر ، ولكنها تحتفظ بقطعة النقود لتعرضها كلما روت القصة !

* * *

وكانت الدوقة تقيم بمفردها في هذه الدار العتيقة .. وبمعنى آخر ، أنها لم تكن تميل إلى استبقاء رفقة أحد من الأقارب بصفة مستديمة ، ولا إلى الابتسامات المصطنعة والرياء الذي يبديه أي أنيس مأجور . وكانت ابنتها الشاحبة اللون ـ والتي كانت لا تنفك تزجرها في كل مناسبة ـ قد تزوجت .. أما ابنها الجميل الذي أحبته حب العبادة ودللته حتى أفسدته ، فقد مات في سن مبكرة ، قبل سنوات قليلة من وفاة زوجها « توماس » الدوق الخامس من سلالة « ميلدرام » .. الوفاة التي حلت بغتة ، فكانت ـ كما اعتادت الدوقة أن تصفها ـ نهاية طيبة تليق به ..

ذلك لأنه امتطى فرسه ، في عيد ميلاده الثاني والستين ، وقد ارتدى أفخر سترات الصيد الأرجوانية ، مع القبعة الغالية ، والسروال المصنوع من جلد البقر المتين .. وفجأة ، أبت الفرس أن تتخطى سياجا عاليا ، كانت تساق إلى تجاوزه في غير رحمة ، فإذا توماس ـ دوق ميلدرام ـ يطير في الهواء ، ويهوى على أم رأسه في حقل لفت .. فصمت إلى الأبد !

وأدت هذه النهاية المباغتة لحياة الدوق المليئة بالصخب والغضب ، إلى تبدل تام في الوسط الذي كان يحيط بالدوقة . فقد كان عليها ـ حتى ذاك الحين ـ أن تحتمل رفاقه الذين

كان يختارهم والذين كان يرتاح إلى صخبهم وهـرجهم .. أو ليملأوا داره ، أن تدعو من صديقاتك من يقبلن أهواءه وميوله وأعماله بسرور إيقاء على صداقتها ، واستمراء للاقامة فى (أوفردين) البديعة .. ومع ذلك فان الدوقة لم تكن تجد مسرة فى تلك الحفلات ، إذ كان يجرى فى عروقها ـ برغم ما اتسمت به من خشونة المظهر ـ دم من أشد أنواع الدم الأزرق زرقة !.. ومع ما كان فى أخلاقها من غلظة وحدة وعدم اعتبار لمشاعر الناس ـ وهى صفات ليست نادرة لدى المسنات من سيدات طبقتها ـ إلا أنها كانت فى أعماقها سيدة كريمة مهذبة ، يطمئن إلى مقدرتها على أن تقول وتفعل ما ينبغى أن يقال ويفعل فى المناسبات الهامة . ولقد كان الدوق (المرحوم) ذا لهجة نارية ، وسلوك عنيف ، حتى إذا ما أودع ـ على غير ما كان يشتهى ـ داخل القبو الذى ضم أجداث أجداده فى وحشة وسكون ، قالت الدوقة : « ما أبعد هذا عن مزاج العزيز المسكين ، حتى أننى لأجد راحة فى أن أتمنى لو أنه لم يكن هنا ! » .. وتلفتت حولها ، ثم بدأت تتبين محاسن وإمكانيات (أوفردين) !

ولقد قنعت الدوقة ـ فى بداية حياتها الجديدة ـ بهواية تنسيق حديقتها والعناية بها ، وإنشاء أماكن لتربية الطيور والدواجن ، جلبت لها أنواعا مختلفة من الطيور الغريبة والبرية ، التى اغدقت عليها كثيرا من الحنان الذى لم يكن يجد إنسانا ينساب إليه ، فى السنوات الأخيرة . ولكن ميلها الفطرى إلى استضافة الناس ، وإلى الاستمتاع بتفقد عيوب

الغير ـ مع ميل عجيب إلى عرض ما لديها من عيوب ـ أدى إلى سلسلة متتابعة من الحفلات والولائم فى (أوفردين) ، حتى عرف القصر باسم : « بهو الحرية » ، لما كان يشهده من صنوف اللهو والمرح . فكنت تلتقى فيه دائما بكل ما يروق لهم رؤياهم من الناس ، وكنت تجد كل التسهيلات التى تتيح لك قضاء أطيب أوقات الفراغ ، وتحظى باكمل غذاء وإقامة ، وتقضى فترة من أجمل أيام الصيف ، أو من أبهج أيام الشتاء .. فلا ملل ولا ضجر ، بل إنك كنت تنعم بحرية الذهاب والمجىء ، كما يحلو لك ..

وكان كل شىء مباحا لكل فرد ، مع « المشهيات المثيرة » التى كانت تتمثل فى أنك ما كنت لتستطيع أن تجزم بما كان يدور برأس الدوقة من أقوال أو أفعال تفاجىء بها ضيوفها .

ولقد قسمت الدوقة حفلاتها ـ فى ذهنها ـ إلى ثلاثة أنواع: « حفلات متزمتة » ، و « حفلات عامة » ، و «أفضل الحفلات» .. وكانت ثمة حفلة من « أفضل الحفلات » ، فى ذلك اليوم البديع من أيام شهر يونيو ، الذى ارتدت فيه الدوقة ما كانت تسميه « عدة الحديقة » ـ بعد أن نعمت بقيلولة طويلة ، على غير عادتها ـ وذهبت لتقطف زهورها .

***

وإذ عبرت الشرفة ، واجتازت الباب الحديدى الذى يؤدى إلى حديقة الزهور .. استيقظ الببغاء « تومى » من غفوته ، وفتح إحدى عينيه وأخذ يرقبها ، حتى إذا ما اختفت

عن ناظـــره ووصلت إلى حديقة الزهـــور ، أرســـل لها قبلة ــ بصوت مرتفع ــ واردفها بقهقهة لنفســه ، ثم عاد إلى غفوته .. ومن بين كل الطيور والحيوانات المدللة، كانت لتومى الحظوة الكبرى فكان ــ هو المنفث الوحيد لما لدى الدوقة من عواطف هزيلة ــ إذ أنها وجدت ــ بعد أن انتقل الدوق إلى مثواه ــ أن من بواعث الضيق ان ينطلق كل صوت كان يطرق أذنيهــا ــ من أصوات الرجال ــ بالملق والزلفى ، حتى لقــد بات من المحتمل أن تشعر باغتباط لو اســتطاع خادمها أن يرســل شخيرا امامها ، أو اقدم قس القرية على مواجهتها بعبــارات خشنة !.. ذلك لأن حزنا راسخا ثابتا ران على روحها ، حتى رأت يوما ــ إعلانا عن ببغاء يمتاز بلبــاقة فى الــكلام ، وبأنه يجيد النطق بحوالى خمسمائة كلمة . فسارعت إلى المدينة ، وزارت البائع ، واستمعت إلى بضع كلمات من الببغاء ، وإلى اللهجة التى كان ينطق بها ، ثم اشترته لفورها ، وعادت به إلى دارها فى أوغردين .

وقضى الببغاء ليلته الأولى جاثما على حــافة أرجــوحته ، راغبا عن أن ينطق بكلمة من الخمسمائة كلمة التى كان يتقنها ، برغم أن الدوقة قضت ليلتها فى البهــو ، متنقلة بين جميع مقاعده .. فكانت فى البداية على مقربة من الببغاء ، ثم ابتعدت إلى ركن ناء ، ثم جلست فى مقعد وضع خلف ستار ، منصرفة إلى القراءة وظهرها متجه إليه ، وكأنهــا لا تعبــأ به ولا تهتم بأمره .. ثم تعمدت أن تجلس أمامه ، موجهــة كل اهتمامها إليه ، ولكن « تومى » لم يحفل بأكثر من أن يطقطق بلســانه فى

كل مرة كانت تبرز فيها من وراء مخبأ .. فاذا اجتاز البهــو أحد السقاة ــ أو أحد صغار الخدم ــ وهو واجف ، أرســل « تومى » وابلا من القبلات تتلوها نوبات من الضحك الذى كان يطلقه من بطنه لا من حلقه !.. وحاولت الدوقة ــ وقد كاد يغلبها اليأس ــ أن تذكره همســا بما ابداه من ملح فى متجر صاحبه فلم يأبه لها ، بل كان يغمز لها بعينه ، ويضع مخلبــه فوق منقــاره .. ومع ذلك فان « الدوقــة » ابتهجت بلونه القانى ، وذهبت إلى مخدعها وكلها أمل ، دون أن يســاورها ندم ما على صفقتها !

وفى صــباح اليوم التــالى ، ظهر جليا للخادمة التى نظفت البهو ، وللخــادم الذى فرز الرسائل ، ولرئيس الخدم الذى قرع ناقوس الطعام ، أن الراحة التى نعم بها « تومى » بالليل ، قد ردت إليه لباقته . حتى إذا هبطت الدوقة درجات السلم منتفخة ــ بعد أن سمعت دقات ناقوس الطعام ــ حرك «تومى» جناحيه وصاح بها غاضبا : « والآن ايتها الفتاة العجوز .. هلمى ! » . فاقبلت على الفطور بابتهاج لم تعهده منذ شهور !



الفصل الثانى

كانت « النبيلة جين شامبيون » ــ ابنة أخ الدوقة ــ هى الوحيدة بين أقاربها ، التى يحق لها أن تتخذ من قصر الدوقة مقاما لها .. وما كان ذلك إلا لأنها كانت الوحيدة التى يحق لها أن تدعو نفسها إلى (أوفردين) ــ أو إلى قصر (بورتلاند) ــ فتفد عندما يحلو لها ، وتقيم ما طاب لها ، وتبرح حين يروق لها الرحيل .. ذلك لأنها عند وفاة أبيها ــ وانتهاء إقامتها المنعزلة الموحشة فى (نورفولك) ، كانت على استعداد لأن تحل من الدوقة محل الابنة . ولكن الدوقة لم تكن راغبة فى ابنته .. لا سيما إذا كانت هذه الابنة ذات آراء خاصة تجهر بها ، ووجه ليس صارخ الجمال !.. فقد كانت هذه الصفات تبدو لفخامة دوقة ميلدرام نعما غير مرغوب فيهما !.. ومن ثم فقد أوحى إلى « جين » بأن لها أن تأتى حينما تشاء ، وأن تقيم بالدار ما رغبت أن تقيم ، ولكن .. على قدم المساواة مع الآخرين . وكان ذلك يعنى حريتها فى الحضور والرحيل فى أى وقت ، وعدم التزامها بأية مسئولية نحو ضيوف عمتها .. فقد كانت الدوقة تؤثر أن تتصرف فى حفلاتها ــ ومع ضيوفها ــ على الوجه الذى ترتضيه !

وكانت جين شامبيون ــ عند بدء هذه القصة ــ فى الثلاثين من عمرها ، وقد وصفها ــ مرة ــ شخص ممن ينفذون إلى ما وراء المظهر السطحى ، فقال إنها كانت امرأة كاملة الجمال، فى صدفة بسيطة المظهر ، وأنه لم يقدر بعد لرجل أن يطلع على



حتى إذا هبطت الدوقة درجات السلم منتفخة ــ بعد أن سمعت دقات ناقوس الطعام ..

ما بداخل الصدفة ، ليرى المرأة فى كمالها !.. كان بوسعها أن تحيل الأرض إلى نعيم مقيم ، لأى محب أعمى ، لا تنظر عيناه إلى خلو وجهها من الجمال ، وامتلاء جسمها ، وإنما يهتم بأن يقترب منها ليدرك أعجب ما فيها كامرأة أوتيت ثروة من الحنان كانت تعرف كيف تسيطر عليها ، وليلمس الراحة الناعمة فى ظل حبها ، وليتبين ما لديها من عطف مثالى دافق ، وليكشف مدى البهجة الرائعة التى تترتب على اكتساب قلبها والزواج منها .. ولكن الرجل المغمض العينين عن المظاهر الخارجية ، البعيد النظر إلى خفاياها ، لم يكن قد أعترض سبيلها بعد . وكان نصيبها دائما البقاء فى الصف الثانى فى المناسبات التى كانت خليقة بأن تشغل فيها المكان الأول على أكمل وجه .. فكانت وصيفة الشرف فى حفلات زفاف لم تؤت العرائس الفاتنات فيها ـــ برغم الحسن الفياض ـــ شيئا يذكر من مؤهلات الزوجة ، التى وهبت جين ثروة منها !.. وكانت عرابة لأطفال صديقاتها ، وهى التى كانت مواهب الأمومة لديها خليقة بأن تحير الألباب وتملك الاعجاب !..

كانت ذات صوت رائع ، حال دون الانتباه إلى وجوده أن وجهها لم يكن يضاهيه فى الجمال .. ولما كانت تجيد العزف أكمل أداء ، فانها كانت تستدعى لتعزف ، بينما يغنى سواها !

وخلاصة القول ان جين كانت دائما فى المكان الثانى ، فكانت مملؤه وهى راضية أتم الرضى . ولم يقدر لها قط أن تحظى بأن تكون ذات المكانة الأولى لدى أى شخص . ولقد ماتت أمها وهى طفلة ، فلم تحتفظ بأتفه ذكرى لحب الأمومة

وحنانها .. الغريزة التى اعتادت ـــ فى بعض الأوقات ـــ أن تصورها لنفسها فى الخيال دون أن تمارسها !

***

وكانت لأمها وصيفة مخلصة وفية ، فصلت عن الخدمة اثر وفاة سيدتها . وقد تصادف أنها كانت على مقربة من دار « جين » ـــ بعد مضى نحو اثنتى عشرة سنة من ذلك ـــ فعرجت على دار الضيعة مؤملة أن تجد من يذكرها من الخدم .. وإذ كانت مربية الآنسة « جين » ووصيفتها . قد بارحتا الدار ـــ بعد موعد تناول الشاى ـــ فقد تسللت الوصيفة إلى حجرة دراسة الآنسة ، وقد امتلأ قلبها بالذكريات عن « الطفلة الحلوة » ، التى كانت تشارك سيدتها المزيزة فى إغراقها بالحب والرعاية .. ووجدت فى انتظارها فتاة طويلة القامة ، بسيطة القسمات ، ذات مسلك صريح فيه طابع الفتيان ، وشىء من شرود الفكر ، وصفته المرأة فيما بعد بقولها : « انصراف إلى تأمل جسم محدثها ، دون إنصات إلى كلامه » !.. الأمر الذى كبح الذكريات التى كانت قد تدفقت فى ذهن « سارة » ـــ وهو اسم الوصيفة ـــ أثناء وجودها فى غرفة مديرة الدار ، فاكتفت بأن راحت تجول بعينيها الدامعتين فى حجرة الآنسة ، متذكرة أنها هى التى انتقت ورق الجدران الجميل مع سيدتها العزيزة الراحلة ، التى كانت فرحتها بالغة يوم تفتح وعى الطفلة العزيزة فمدت يدها إلى الورود .. وأردفت الوصيفة قائلة : « بوسعى يا آنسة أن أريك ـــ إذا شئت ـــ أى نوع من الورد كنت تقتطفين » !

وقبل أن تنتهى زيارة « سارة » ، كانت « جين » قد سمعت منها أمورا كثيرة لم تكن تحلم بها .. من ذلك أن أمها كانت تقبل يديها الصغيرتين .. « آه ، ما أكثر ما كانت تفعل ذلك يا آنستى العزيزة .. كانت تسمى يديك « ورقتى الورد » ، وتغمرهما بقبلاتها ! » .

ونظرت الصغيرة ـ التى لم تألف قط أى مظهر للحنان ـ إلى يديها السمراوين ، غير الجميلتين ، ثم ضحكت .. لمجرد التغلب على الخجل الذى اعتراها إذ شعرت بغصة فى حلقها ، وبلذعات غريبة لدموع تجمعت خلف أجفانها !.. وهكذا انصرفت « سارة » وفى روعها أن الآنسة جين قد أصبحت ـ إذ كبرت ـ شابة بلا قلب تقريبا !.. ولكن « فراولين » و « جيبى » ـ مربية الآنسة ووصيفتها ـ لم تدركا سر النظافة الدقيقة التى لازمت اليدين ـ اللتين طالما كانتا مصدر شكواهما ـ منذ ذلك اليوم !

وفى ليلة عيد ميلادها ، راحت الصغيرة ـ وقد تجردت فى الظلام من خجلها ـ تقبل يديها تحت أغطية الفراش ، محاولة بذلك أن تستشعر حنان شفتى أمها المتوفاة !

وعندما تولت أمر نفسها وشئونها ـ بعد سنوات ـ كان أول ما فعلته ، هو أن نشرت إعلانا دعت فيه «سارة ماثيوس» إلى الاتصال بها ، ثم عينتها وصيفة خاصة لها ، بمرتب مكن المرأة الطيبة من أن تبتاع لنفسها ما يكفل لها دخلا سنويا كريما .

ولم تكن جين ترى والدها إلا لماما ، إذ كان من العسير على نفسه أن يصفح عنها : أولا ، لأنها قد جاءت بنتا ، بينما كان هو راغبا فى ابن ذكر .. وثانيا ، لأنها وقد جاءت بنتا ، خلت سماتها من الجمال ، بدلا من أن ترث الجمال عن أمها !.. والآباء لا يرون ـ عادة ـ أى غبن فى أن يغضبوا على ذريتهم ، إذا هى أوتيت بعض الصفات التى خلعوها هم أنفسهم عليها ، سواء أكان ذلك فى الأخلاق أو فى المظهر !

* * *

وكان بطل طفولة « جين » ورفيق صباها ، والصديق المقرب إليها فى شبابها ، هو « دريك براند » .. الابن الوحيد لقس القرية . وقد كان يكبرها بنحو عشر سنوات .. بيد أنها لم تشعر قط بأنها كانت صاحبة المكانة الأولى فى نفسه ، حتى فى سنوات صداقتهما المتينة المتصلة وعندما كان يفد على دار أبويه لقضاء العطلات المدرسية ـ وهو يدرس الطب ـ كان لوالدته ولمهنته الأولوية ـ فى تفكيره ـ على الصغيرة الوحيدة ، التى كان يسر لوفائها ، والتى كانت قوة خلقها ، وروعة تقدمها الفكرى يثيران اهتمامه .. ولقد تزوج ـ فيما بعد ـ من فتاة بديعة الجمال ، على طرفى نقيض مع « جين » . ولكن صداقتهما استمرت ـ برغم ذلك ـ وازدادت عمقا .. ولقد أصبح تقديرها لأعمالها ، وإدراكها الملىء بالعطف لأهدافه وجهوده ـ بعد أن أصبح يرقى سريعا إلى مقدمة الصف الأول فى مهنته ـ قيمة فاقت لديه كل تقدير .. بل فاقت ما ظفر به أخيرا من إشارة كريمة نمت عن رضى ملكى !

ولم يكن لجين شامبيون صديقات مخلصات من لداتها وطبقتها ، إذ أن عزلتها ـ فى صباها ـ ولدت فى طباعها صراحة بالغة نحو نفسها ونحو الآخرين ، مما أبعد الشقة بينها وبين إدراك ـ أو احتمال ـ المجاملات البسيطة التى يتطلبها الرياء الاجتماعى ، وتلك الهنات الصغيرة التى كانت من شيم بنات جنسها . أما النساء اللاتى حبتهن برقتها وعطفها ـ وكن كثيرات ـ فقد كن يبدين فى محضرها إعجابا ينم عن عرفان وتقدير ، ولكنهن كن يصمتن فى جين إذا ما انتقدت فى غيبتها ! على أن أصدقاءها من الرجال كانوا كثرة ، لا سيما من الشبان الذين كانوا يدرسون فى الجامعة ، والذين اتخذتهم زملاء مقربين .. وكانوا فتية ظرفاء ، اعتادوا أن يكتبوا لها عن نوادر دراستهم ومرحهم فى أوقات فراغهم ما لم يكونوا يحلمون بأن يكتبوه إلى أمهاتهم أنفسهن !.. ولقد كانت تعلم ـ تمام العلم ـ أنهم كانوا يطلقون عليها ، فيما بينهم : « جين العجوز » ، و « جين الحسناء » ، و « جين الحبيبة » ، ولكنها كانت توقن من خلو مزاحهم من الخبث ، وكانت تؤمن بصدق عواطفهم وقد بادلتهم ذلك ، صاعا بصاع !

ولقد تصادف ـ عند بدء حوادث هذه القصة ـ أن كانت « جين شامبيون » فى إحدى زياراتها الطويلة لأوفردين ، وكانت تلعب الجولف مع شاب ـ ممن حبتهم بودها من زمن بعيد ـ عندما ذهبت الدوقة لتقتطف ورود حديقتها ، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف .. وكانت جين تعتقد أن الذى يقبل على لعب الجولف بشغف ، لا يمكن أن يعنى بانتقاد

أو لوم .. وأن اللعب مع شخص يعادلك فى الشغف ، لا يكون ممتعا إذا هو انصرف ـ طيلة الطريق إلى الملعب ـ إلى شرح كل دقيقة فى الطريقة التى أحرز بها كل هدف فى المباراة السابقة معك ، ثم انصرف ـ فى عودتكما ـ إلى الحديث فى تفاخر عن الطريقة التى أحرز بها كل منكما كل هدف فى هذه المرة !

لذلك أحست « جين » بأن أصيل ذلك اليوم انقضى فى غير توفيق . غير أن الفتى « كاتكارات » ـ وهو الذى شاركها اللعب ـ عاد إلى الحديث عن المباراة مرة أخرى ، إلى نفر من خيرة الحضور ـ عندما اجتمع القوم فى غرفة التدخين ، فى ذلك المساء ـ ثم قال : « لقد كانت جين العجوز رائعة !.. تصوروا طريقتها فى اللعب ، وتمكنها من أن تضع الكرة رقم ٧ فى الحفرة رقم ٣ ، دون أن تزهو بذلك !.. لقد قررت ـ فى تصميم ـ ألا أبعث بعد اليوم بباقات الزهور إلى « توتو » .. ولست أتصور كيف يمكن أن نقضى ليالينا فى سهرات مع الراقصات ، بعد أن قضيت تلك الفترة الجميلة فى اللعب مع الآنسة جين .. إنها ترسل الكرات مثل الطلقات ، فإذا سددت ضربات عالية ، خيل إليك أن الكرة عصفور ينطلق فى الفضاء .. ولقد غلبتنى فى ثلاث دورات ، دون أن تشير إلى ذلك بشىء .. يا إلهى ، إن المرء لا يجرؤ على أن يصافحها إن لم يكن طاهر الذيل .. أبيض الصفحات ! » .



الفصل الثالث

أشارت المزولة إلى الرابعة والنصف ، فبدا أن ساعة السكينة قد انتهت ، وبدأت العصافير تشقشق ، وسمع صوت وقوق يتردد — بين حين وآخر — فى الغابة المجاورة .

ودبت الحركة فى الدار ، فانبعثت أصوات فتح الأبواب وغلقها ، وأسرع خادمان فى الزى الخاص بخدم آل «ميلدرام» — وكان يجمع بين لونى التوت والفضة — فاجتازا الشرفة وهما يحملان موائد الشاى التى راحا يضعانها أمام المقاعد الخشبية المثبتة تحت شجرة الأرز . ثم بادر احدهما بالعودة للدار ،وبقى الآخر ليكسو الموائد بأغطيتها البيضاء الناصعة . ومع هذه الحركة استيقظ الببغاء ، فبسط جناحيه وصفق بهما مرتين ، ثم أخذ يتهادى على أرجوحته فى صعود وهبوط ، مسددا نظره نحو الخادم .. وفجأة صاح به مقلدا صوت رئيس الخدم : « انتبه ! » . فقد رأى غطاء إحدى الموائد يسقط فوق الحشائش . فصاح به الخادم : « اقفل فمك ! » .. ثم طرح بالغطاء نحوه — وهو ثائر — وارتد ينظر فى خوف إلى حديقة الزهور ، حيث كانت الدوقة .. وصرخ الببغاء متحاشيا الغطاء : « ان تومى يريد قليلا من عنب الديب ! » . ثم التوى على نفسه : وتدلى إلى أسفل أرجوحته . فأجابه الخادم فى خبث : « ألا تحب أن تحصل على بغيتك ؟ » . ورد الببغاء مقلدا صوت الدوقة : « ليعطه أحدكم ما يريد ! » . وبهت الخادم ، ثم التفت وراءه — إلى حيث كانت الدوقة —

واخذ يمطر الببغاء بسرعة وابلا من اللعنات ، ثم صفعه وأسرع إلى الدار ، تتبعه قهقهة « تومى » ممتزجة بوابل من الزجر والسباب ، الذى انطلق من الببغاء غضبا مما لحقه من إهانة ، وقد راح يرتفع ويهبط على أرجوحته ، حتى غاب الخادم عن نظره ..

وبعد مضى دقائق ، زخرت موائد الشاى بشتى أصناف الحلوى والفطائر وغيرها من المأكولات التى تعتبر ضرورية مع الشاى — فى الأصيل — فى إنجلترا .. ولمعت الأوانى الفضية فوق مائدة التحضير — حيث وقف رئيس الخدم يشرف على العمل — وقد امتلأت بالفطائر والخبز المقدد ، والكعك ، وكافة أنواع الشطائر التى تصحب قطع الخبز — الأبيض والأسود — المكسوة بالزبد .. بينما كانت الصحاف الملأى بالفراولة ، تضفى ظلا غنيا بديعا على اللونين الأبيض والفضى . وما أن تم إعداد الموائد ، حتى رفع رئيس الخدم يده وقرع ناقوسا سينيا أثريا معلقا فى شجرة الأرز . وقبل أن يتلاشى رنين دقاته ، سمعت أصوات فى كافة ارجاء المكان .. ومن ناحية النهر ، ومن ملاعب التنس ، ومن الدار والحديقة أقبل ضيوف الدوقة مغتبطين لمرأى موائد الشاى وما حوته ، وأسرعوا إلى ظل شجرة الأرز المنعشة : من نساء فاتنات فى ملابس بيضاء يحمين بشراتهن فى حرص وعناية ، تحت قبعات كبيرة أو مظلات أنيقة .. وفتيات مرحات ضحين بلون بشراتهن — من زمن طويل — لقاء الراحة والمتعة ، وأقبلن فوق الحشائش حاسرات الرؤوس ، يطوحن بمضارب الكرات ،

وهن يتناقشن فى المباراة الأخيرة الحامية .. ومن رجال فى ملابس صوفية بيضاء ، لوحت الشمس وجوههم فبدوا أكثر بهاء ، وقد أقبلوا يتكلمون ويضحكون ، مطرين ألعاب زميلاتهم وهم يحرصون على الصمت عن ألعابهم فى أدب وتواضع !

وكان منظرهم مبهجا ، وقد تجمعوا تحت ظل الشجرة الباسقة، وقد اضطجع بعضهم فى المقاعد الخيزرانية، واستلقى بعض آخر على الحشائش الملساء ، وأخذوا جميعا فى تناول ما يشتهون .. وعندما اكتفوا من الشاى والقهوة والمثلجات ، عادوا إلى الضوضاء والهرج .. فقال أحدهم : « إذن فستصل الليلة الفرقة الموسيقية التى استقدمتها الدوقة ! » . وقال آخر : « كم كنت أود لو انهم علقوا بهذه الأشجار بعض المصابيح الصينية ، وأقاموا الحفلة هنا ـ فى الهواء الطلق ـ فاننى لا أطيق الزحام داخل الدار ! » . فأجابه جارث دالمين : « حسنا .. اننى منظم الحفلة ـ كما تعلم ـ وأعدك بأن جميع الأبواب المتصلة بالشرفة ستفتح على مصاريعها ، ومن ثم فلن يضطر أحد إلى البقاء فى غرفة الموسيقى ، ليتسنى لمن يرغب البقاء خارجا ألا يحرم من الاستمتاع إذا أراد أن يبقى فى الخارج ، وسيكون ثمة صف من المقاعد المريحة على طول الشرفة ، بجوار النوافذ .. وقد لا ترى كثيرا مما يجرى ، ولكنك ستسمع كل شىء تماما ! » .

فصاحت إحدى لاعبات التنس : « ولكن المشاهدة نصف المتعة .. والذين يبقون فى الشرفة ، ستضيع عليهم مشاهدة أجمل ما فى الحفلة عندما تقلد الدوقة العزيزة كل شخص من

الحاضرين .. اننى لا ابالى بالحر فى الداخل ، وأرجو أن تحجز لى مكانا فى الصف الأول ! » .

وهنا تدخلت الليدى « انجلبى » ـ وكانت قد وصلت إلى القصر ظهرا ـ فقالت : « من الذى سيكون عنصر المفاجأة الليلة ! » . فأجابتها مارى ستراتن : « إنها فيلما ، فسوف تفد لتقضى عطلة الأسبوع ، وسيكون فى ذلك متعة كبرى لنا جميعا .. ما كان بوسع أحد أن يدبر مقدم « فيلما » سوى الدوقة » ، وما كان لمكان أن يغريها بالحضور سوى (أوفردين) .. ولسوف تغنى أغنية واحدة مع الفرقة الموسيقية ، بيد اننى على تمام الثقة من أنها ستنساق بعد ذلك وتشنف مسامعنا بالكثير من أغانيها .. وسنقنع « جين » بأن تعزف على « البيانو » ـ بين حين وآخر ـ بعض افتتاحيات القطع المفضلة لدى « فيلما » ، فسرعان ما نسمع صوتها السحرى ، إذ أنها لا تقوى على مقاومة الغناء مع العزف الرائع ! » .

وإذا بفتاة ـ كانت قد دعيت للمرة الأولى إلى « أفضل حفلات » الدوقة ـ تقول : « ولماذا تلقب السيدة فيلما بعنصر المفاجأة ؟ » . فأجابتها ليدى انجلبى : « إنها إحدى فكاهات الدوقة يا عزيزتى .. فان الفرقة الموسيقية قد استقدمت لتشنيف أسماع ضيوف الحفلة ، وتكريما وتحية لكبار المدعوين من أهل هذه المنطقة . فان علية القوم من البلاد المجاورة قد دعوا . وليس مفروضا على أحد منكم أن يقوم بأى دور ، ولكن مشاهير الجيرة مطالبون بذلك ، فهم ـ فى الواقع ـ يشتركون فى البرنامج باسمه ، إيمانا فى اللهو،

وإرضاء لأصدقائهم وأقاربهم .. أما تسليتنا نحن فستكون بعد ذلك ، حين تعقد الدوقة اجتماعا لنا لمراجعة كل ما جرى، طالبة إبداء الملاحظات والتعليقات ونقد الشخصيات . اتذكر يا « دال » عندما شبكت الدوقة ورقة بيضاء من أوراق الكتابة فى الثوب الذى ارتدته على مائدة الشاى ، وجعلتها على شكل طوق كلب ، حتى إذا رفعت أسقف الكنيسة العليا ، اضطرته إلى أن يغنى بانفعال إحدى الأغانى الهزلية ؟.. وفى نهاية السهرة تماما ، تنتقد من أدوا أدوارا ــ متجاوزة فى ذلك عن « فيلما » أو من يعادلها من الفنانين المبدعين ــ وتبين كيف كان ينبغى أن يكون الأداء . والحق أن فى بعض انتقاداتها نفعا للهواة . وفجأة يمتلىء جو المكان بالموسيقى ، ويسود الحضور سكون عميق .. ثم يتضح للهواة ــ الذين دفعتهم الدوقة إلى العزف أو الغناء ــ بأن الضوضاء التى كانوا يقومون بها ، ليست من الموسيقى الصحيحة فى شىء ، فينصرفون إلى دورهم واجمين . ولكنهم لا يلبثون أن ينسوا كل شىء فى العام التالى ، أو تخلفهم ثلة جديدة من الهواة الراغبين فى المساهمة .. وهكذا تنجح دعايات الدوقة دائما ! » .

وعند ذلك تدخل « ردنالد انجرام » قائلا : « ان النبيلة جين شامبيون لا تقر هذه المهازل ، ومن ثم فانها تتلقى ــ عادة ــ نصحا بأن تبكر فى زيارتها ، قبل المناسبة . ولكن أحدا لا يستطيع أن يجيد العزف ــ عندما تغنى « فيلما » ــ مثلها ، ومن ثم فقد صدر الأمر إلى جين بالبقاء فى هذه المرة . ولكنى أشك فى أن « عنصر المفاجأة » سيكون عظيم الوقع

كالعهد به ، ومن المؤكد أن اللهو سيكون فاترا فى هذه الليلة ، فان النبيلة « جين » معروفة بتمردها على الدوقة فى مثل هذه الأحوال . وهى فى مأمن من تحمل أسوأ العواقب فى حينها ، غير أن أثرها فى كبح هذه النزوات عظيم جدا فيما بعد ! » .

فقالت فتاة أمريكية وضاءة الجبين ، فى جراءة ، وهى تتناول الفراولة المثلجة بملعقة ذهبية قدمها لها جارث دالمين ، فقالت : « اننى أعتقد أن الآنسة شامبيون على حق .. فنحن نعتبر ــ فى بلادنا ــ ان من الخسة أن نضحك من قوم كانوا ضيوفا علينا ، وقاموا ببعض الهوايات الفنية فى بيوتنا ! » فأجابتها ميرا انجلبى قائلة : « ليس فى بلادكم دوقات يا عزيزتى ! » . وكان رد الفتاة الأمريكية أن قالت فى هدوء ، وهى تعود إلى تناول الفاكهة المثلجة : « ولكننا نمدكم بنفر منهن ! » .. واعقب ذلك ضحك شديد ، ثم أصبح الجدل بين الإنجليزية والأمريكية موضوع حديث الجميع .

وما لبث أحد الحاضرين أن تساءل قائلا : « أين النبيلة جين ؟ »

فأجاب رونالد انجرام : « انها تلعب الجولف مع بيللى .. آه ، ها هما عائدان ! » .

* * *

ولاحت « جين » بقامتها المشوقة ــ قادمة ــ على الشرفة، يصحبها « بيللى كاتكارت » ، الذى راح يتحدث إليها باهتمام. وبعد أن وضعا عصا الجولف فى البهو الصغير ، اقبلا معا على موائد الشاى .. وكانت جين مرتدية معطفا وثوبا من «التويد» الرمادى ، وقميصا خفيفا ـ مخططا باللونين الأبيض والأزرق ـ وياقة وكمين منشاة ، وملفحة حريرية ، وقبعة من اللباد الناعم علقها بعض ريشات سود .. وكان فى مشيتها ليونة واتزان ، وفى خطواتها ما يشعر بقوة بدنية وجسم محكم الحركات .. كان مظهرها إجمالا يختلف اختلافا عجيبا عن كل النساء الجميلات المجتمعات تحت شجرة الأرز . غير انها ــ مع كل ذلك ــ كانت لها أنوثتها ، وبعبارة ادق : لم تكن مسترجلة، إذا سلمنا بأن كل شىء قوى يعزى إلى الذكور ــ وان المرأة التى تقلد مظهر القوة ــ دون أن تملك من القوة شيئا ــ مسترجلة .. بل إن « جين » كانت ذات أنوثة صادقة ، تتبدى فى إقدامها على أن ترتدى ثيابا بسيطة كانت تتمشى ــ فى تناسق يستدعى الاعجاب ــ مع بساطة قسماتها وامتلاء جسمها . ودلفت إلى وسط الحلقة المجتمعة تحت شجرة الأرز ، واحتلت أحد المقاعد التى أخلاها لها الرجال دون تكلف أو اعتداد بالنفس .. الأمر الذى كان من أبرز صفاتها الشخصية دائما .

وبدا أحد الحاضرين الحديث قائلا لها: «فى أى شىء قد تفوقت يا آنسة شامبيون ؟ » .. وإذ كان للتعبير الذى استخدمه فى مقابل « تفوقت » استعمال مجازى بمعنى « ارتديت » ، فقد قالت متهربة : « فى ملابسى المعتادة .. ! » . فقاطعها بيللى صائحا : « لقد تفوقت .. » ولكن جين قاطعته قائلة : « بيللى ، أرجو أن تصمت .. أنت تعلم انك وأنا المتهوسان الوحيدان فى الشغف بالجولف .. وأكثر أصدقائنا الموجودين يجهلون فنون اللعبة ، ولا يدرون ما يدفعنا إلى المباهاة والتفاخر إذا تغلبنا على أى لاعب .. أين عمتى الدوقة ؟.. لقد كان سيمونز المسكين يهرول فى كل مكان ــ عندما دخلنا القصر لنودع عصى اللعب ــ وكان يبحث عنها ليسلمها برقية .. فقالت ميرا : « ولم لم تفض البرقية ؟ » . فأجابتها جين : « لأن عمتى لا تسمح لأحد بأن يفض برقياتها .. إنها تحب المفاجآت المثيرة ، ومن المحتمل دائما أن تحمل اية برقية أنباء مثيرة . وهى تقول دائما إن المفاجأة تفقد لذتها إذا سبقها أى أمرىء إلى الاطلاع على البرقية ، ليبلغها فحواها فى لهجة هادئة رقيقة ! » .

وهنا صاح « جارث دالمين » ، الذى كان يجلس مواجها لمدخل حديقة الزهور : « ها هى ذى الدوقة قد حضرت ! » . فقالت « جين » فى تحذير : « لا تذكروا البرقية ، فلن يسرها أن تعلم بأننى سبقتها إلى العلم بمجرد وصولها .. ومن

المخجل أن نحرمها لذة اقتطاف ثمرة اللذة غير المرتقبة ، التى تتمثل فى وصول البرقية فى مثل هذا اليوم القائظ ، الذى لا يبدو أن من المنتظر أن يحدث فيه أمر غير عادى ! » .

وعند ذلك التقوا جميعا ، وراحو يرقبون الدوقة وهى تخب فى مشيتها نحو المرج .. يا لهذه العجوز العجيبة الأطوار ، التى جمعت بينهم جميعا فى هذا الحفل ، والتى كانت تمتلك الدار الجميلة التى كانوا يقضون بها هذه الأيام الممتعة ، والتى كانت نزواتها العجيبة موضوع حديثهم وهم يشربون الشاى ويستمرئون فراولتها !.. ونهض الرجال — عند وصولها — ولكن .. فى غير انتفاض وتحمس كما فعلوا لدى وصول الآنسة جين ! وكانت الدوقة تحمل سلة خشبية كبيرة ، امتلأت إلى قمتها بالورد والزهور البديعة النادرة .. كانت كل زهرة مثالا لكمال الزهور ، وقد اقتطفت فى أوج ازدهارها تماما !

الفصل الرابع

أفرغت الدوقة سلتها فوق مائدة الفراولة ، وقالت لاهثة : « إليكم أيها الناس الطيبون .. خذوا ما يروق لكم ، فانى أود أن أراكم جميعا الليلة مزينين بالورد .. ستكون قاعة الموسيقى مجمعا للورد ، وسنطلق على حفلة الليلة : « عيد الورد » .. كلا يارونى ، هذا الشاى قد مضى عليه نحو نصف ساعة على الأقل ، وخليق بك أن تكون أكثر حبا لى من أن تدفعنى إلى شربه . ثم اننى لا أميل إلى شرب الشاى ، قبل أن أتناول كأسا من الويسكى والصودا — عند استيقاظى من إغفاء القيلولة — وهو كاف لأن ينعشنى حتى ميعاد العشاء .. آه يا عزيزتى ميرا ، انكر اننى حضرت اجتماعكم الطريف ، ووقعت ذلك الميثاق البديع : « لنشجع الآخرين ! » ، غير أننى ذهبت إلى الطبيب مباشرة ، عقب خروجى من داركم ، وقد منحنى ترخيصا يبيح لى أن أقول : « لا بد » ، بشأن أى شىء أحس بالحاجة إليه .. وإنى لأحتاج دائما إلى كأس من الويسكى بعد غفوة الظهيرة .. حقا يا « دال » ، انه من أخبث الرذائل ، لأى رجل — بعد استثناء رجال المسرح — أن يظهر فى مثل بهائك وأنت فى قميصك البنفسجى الباهت . وربطة عنقك البنفسجية القاتمة ، وهذه الحلة من الصوف الأبيض الخفيف .. ولو أننى كنت جدتك ، لأرسلتك إلى حجرتك لتستبدلها .. وإذا كنت بذلك تدير رؤوس العجائز من أمثالى ، فما بالك بهؤلاء الفتيات اليافعات ؟! أصمت يا تومى ،

إن ما تقوله غير لائق ، وليس لك أن تغار من « دال » ، وثق بأننى شغوفة بك أكثر منى به !.. دال ، هل لك أن ترسم ببغائى الأحمر ؟! » .

أما الرسام الشاب النابه ، الذى عرضت لوحاته فى معرض الفنون فى ذلك العام فأثارت كثيرا من الاهتمام فى الأوساط الفنية ، والذى استحق قميصه البنفسجى كل هذا الانتقاد ، فقد اضطجع فى مقعده المريح وعقد يديه خلف رأسه ، وأبرقت عيناه العسليتان سرورا ، وقال للدوقة : « لا ، أيتها الدوقة العزيزة .. أرجو ـ بكل احترام ـ إعفائى من هذه المهمة ، فان تومى بحاجة إلى أحد كبار هواة الطيور ، ليقدر ميوله وشخصيته تقديرا عادلا ، فضلا عن أنه من دواعى الإفساد لشاب برىء ، طيب التربية مثلى ـ كما تعلمين ـ أن يقضى ساعات طويلة فى رفقة « تومى » ، منصتا إلى ما يوجهه هذا الطائر اللطيف من ملاحظات وكلمات ، وأنا عاكف على رسمه .. ولكنى أصارحك بما سوف أفعله !.. سأصورك أنت يا سيدتى الدوقة ، ولكن فى غير هذه القبعة ، لأن أية قبعة من القش ذات أشرطة سوداء تلتف تحت الذقن ، تبعث السقام إلى نفسى .. ولو أننى استسلمت لشعورى الطبيعى الآن ، لخبأت وجهى فى حجر الآنسة شامبيون ، وركلت الهواء بقدمى ، ورحت أصرخ حتى تخلعى عنكِ هذه القبعة ! .. اننى على استعداد لأن أصورك وأنت فى ثوبك المخمل الأسود ، الذى كنت ترتدينه ليلة الأمس ، مع باقة من طراز « مديشى » ، ومع

« الدانتلا » الفاخرة والجواهر تتوج رأسك .. ولتمسكى فى يدك مرآة بلورية قديمة ، ذات إطار فضى !

وكان الرسام يسبل جفنيه ، بينما سيطر الصمت على الجمع المرح المحيط به ، وهو يصف الصورة بصوت ملىء بالموسيقى والغموض . فقد اعتاد الناس أن يتمثلوا الصور إذا ما وصفها « جارث دالمين » وكأنهم يرونها رأى العين ، حتى أنهم ليقولون ـ عند زيارتهم لمعهد الفنون ، أو للمعرض الجديد ـ فى العام التالى للوصف : « آه ، ها هى ذى لوحة دالمين .. تماما كما تمثلناها يوم وصفها ، قبل أن يخط بريشته خطا واحدا منها ! » .

واستأنف دال ـ كما كانوا يدللونه ـ وصفه قائلا : « ستمسكين المرآة بيدك اليسرى ، دون أن تلقى نظرك عليها ، لأنك لا تنظرين إطلاقا إلى أية مرآة يا عزيزتى الدوقة ، اللهم إلا حين تودين أن تتأكدى مما إذا كان تقريعك لخادمتك ـ وهى تقف خلفك ـ قد أبكاها ، ومما إذا كان هذا هو السبب فى ارتباكها وهى تناولك الدبابيس والأشياء الأخرى .. فان صح حدسك ، سارعت إلى تهدئة خاطرها بأن تعديها بأن تعفيها من العمل يوما تزور فيه أمها العجوز ، وتنقديها أجر الذهاب والعودة .. أما إذا لم يظهر عليها أثر البكاء ، فانك تضاعفين جرعة الزجر والتقريع . ولو كنت فى مكان الخادمة لاستمر بكائى بدموع ثقال لتنعكس على صفحة المرآة دون ما شهيق لأن ذلك يذكى أوار غضبك .. ولا بد أن أحذر كل الحذر أن تتساقط

دموعى فوق عنقك ! » .. وهنا قالت له الدوقة : « دال ، أيها الطفل المهزار .. دع خادماتى ورقبتى ودموع التماسيح ، وامض فى وصف الصورة التى ترغب أن ترسمها لى .. ما الذى أفعله بالمرآة ؟ » .

فاستأنف جارث دالمين حديثه وهو غارق فى التفكير : « لن تنظرى إلى المرآة ، لأننا نعلم جميعا أن هذا أمر لا تفعلينه قط.. ، حتى حين ترتدين هذه القبعة وتعقدين الأشرطة ــ وهنا أرجو الآنسة شامبيون أن تمسك بيدى ــ فى أنشوطة تحت ذقنك .. حتى فى هذه الحالة ، لا تنظرين إلى مرآتك .. ولكنك ستجلسين والمرآة فى يدك اليسرى ، ومرفقك مستند إلى مائدة شرقية من الأبنوس الأسود المطعم بالعاج .. ثم تديرين المرآة لتعكس شيئا أمامك مباشرة ، خارج نطاق الصورة .. ستظهرين وأنت تتأملين هذا الشىء فى حنان علوى .. وعلى صفحة المرآة ، سأرسم صورة كاملة مصغرة ــ بألوان حية ، زاهية ــ لببغائك الأحمر فوق أرجوحته . وسنطلق على الصورة اسم « انعكاسات » .. لأن المتبع أن يطلق الإنسان على الصور عناوين حديثة ، مبتكرة ، تافهة ، وقد أصبح الشائع الآن ، أن يكون العنوان من كلمة واحدة ، غير معبرة ، اللهم إلا إذا شعرت بالحاجة إلى اجتذاب أنظار الجماهير ــ فى قائمة المعروضات ــ بأن تطلقى على صورتك عنوانا يتألف من عشرين بيتا من شعر تينسون .. ولكن عندما تنتقل الصورة إلى الأجيال التالية . كتحفة من تراث الأجداد ، سيطلق عليها فى قائمة المعرض القومى اسم : « الدوقة والمرآة والببغاء ! .. » .

وهنا هللت الدوقة فى سرور بالغ : « مرحى ! .. لسوف ترسمها فى ميعاد يتيسر فيه عرضها فى المعرض الفنى للسنة المقبلة ، وسنذهب جميعا لرؤيتها ! » .

وقد فعل ، وذهبوا جميعا لرؤيتها ، وصاحوا جميعا ــ بصوت واحد ــ حين أبصروها : « هى تماما !.. كما رأيناها بمخيلتنا تحت شجرة الأرز فى أوفردين ! » .

***

وما لبثت الدوقة أن صاحت : « ها هو ذا سيمونز يحضر شيئا على طبق .. ما أشد ما يتلكأ هذا الرجل ، أما من ناصح له بأن يسرع الخطى !.. جين ، أنك تقفزين فوق هذه الحشائش كما يفعل قاذف القنابل اليدوية ، فهلا شرحت لسيمونز كيف يسير مثلك ؟.. حسنا ، ماذا معك ؟ آه ، برقية؟! ترى أى حادث فظيع قد وقع ؟.. من منكم يخمن .. أرجو ألا يقتصر الأمر على أن أحد الأغنياء قد فاته القطار ! » وبين صمت وسكون وانقطاع أنفاس الحاضرين فضت الدوقة الغلاف البرتقالى ، فبدا للجميع أن المفاجأة كانت قوية وليست موضوعا للفكاهة ، لأن وجه الدوقة ــ الذى كان بطبيعته أحمر البشرة ــ أصبح أرجوانيا ، وقد بدل الاستنكار ملامحه تماما . وهنا قامت « جين » فى هدوء ، فنظرت من خلف عمتها ، وتلت البرقية الطويلة ، ثم عادت إلى مقعدها .

وصاحت الدوقة ، أخيرا : « مخلوقة ! يالها من مخلوقة !.. هذا جزاء أن ندعوهم أصدقاء ! لقد كنت معتزمة أن أقدم لها

عقدا من اللآلىء ، يفوق فى قيمته ما قد يقدم لها من أجر عن اغنية واحدة .. وها هى ذى تتخلى فى اللحظة الأخيرة . آه ، يا لها من مخلوقة ! » .. وهنا تدخلت جين قائلة : « إذا كانت « فيلما » المسكينة قد أصيبت فجأة بالتهاب الحنجرة ، يا عمتى العزيزة ، فمن الطبيعى ألا تقوى على الغناء ، ولو أمرتها الملكة ! .. وان برقيتها لتفيض أسفا واعتذارا ! » .

فصاحت بها الدوقة غاضبة : « لا تجادلى يا جين ، ولا تقحمى اسم الملكة فى المناقشة ، فليس للملكة علاقة بحفلتى أو بحنجرة فيلما ! .. انكَ لتعلمين كيف أمقت الأمور غير اللائقة !.. لماذا تصاب بالمرض ــ الذى تذكرين اسمه ــ فى عين الوقت الذى كانت قادمة فيه لتغنى فى حفلتى ؟.. ما كان الناس ــ فى أيام صباى ــ يشكون هذه العلل احديثة .. اننى لا اطيق هذه الزائدة الدودية التى تؤدى إلى فتح بطون الناس لاتفه حجة .. لقد كنا ــ فى أيام شبابنا ــ ندعوها بالالم المعدى ، وكنا نعالجها بأعشاب تركية ! » .

واخفت « ميرا انجلبى » وجهها خلف قبعتها الواسعة ، بينما همس « جارث دالمين » فى أذن « جين » مقلدا الدوقة : « انك لتعلمين كيف أمقت الأمور غير اللائقة ! » . فهزت جين رأسها له ، وأبت أن تبتسم !

وصاح تومى ، اثناء هذا النقاش : « تومى يريد قليلا من عنب الديب ! » . إذ استرعى سمعه ذكر الأعشاب التركية . فنادت الدوقة فى ضيق : « ليعطه احدكم ما يريد ! » .

فأجابتها جين : «لا يوجد شىء من عنب الديب ياعمتى العزيزة!» فثارت الدوقة ، وصاحت فى وجهها : « لا تناقشينى أيتها الفتاة ! » . وعقب «جارث» متبسطا ، وهو يهز رأسه لجين : « إذا قال تومى « عنب الديب » ، فهو يقصد اى شىء أخضر ، وانت تعلمين ذلك كل العلم ! » .

وهنا سارع عدد من الحضور إلى الببغاء بخس وجرجير وخيار ، بينما التقط « جارث » عودا من الحشيش ، وأعطاه لجين مبديا لهفة واهتماما ، ولكن جين تجاهلت أمره !

وقالت الدوقة أخيرا : « ان البرقية لا تتطلب ردا يا سيمونز ، فلم لا تذهب ؟.. أواه من بطء هذا الرجل ، ليعلمه أحدكم كيف يمشى !.. ولنعد الآن للموضوع : ماذا نحن فاعلون ؟ . ان نصف أهل المقاطعة قادمون لسماع « فيلما » ــ بناء على دعوتى ــ و « فيلما » فى لندن ، تزعم أنها مصابة بالتهاب فى الزائدة الدودية .. كلا ، أقصد المرض الآخر .. أواه ، سحقا لتلك المرأة ، كما يقول تومى ! » .. فصاح بها تومى : « اقفلى فمك ! » . فابتسمت الدوقة ، وجلست صامتة !.. وهنا قال « جارث » ، فى تلطف بالغ : « ولكن أهل المقاطعة لا يعرفون ان مدام « فيلما » كانت قادمة ، أيتها الدوقة العزيزة .. لقد كان الأمر سرا مكتوما ، وكنت تعتزمين أن تفاجئى الحضور بها فى النهاية . وقد وصفتها لبدى انجلبى بأنها « عنصر المفاجأة » الذى أعددته ! » .

وأطلت «ميرا» برأسها من وراء القبعة ، فأشارت لها الدوقة برأسها ، وقالت : « هذا حقيقى .. لقد كان دورها أبدع ما فى

الحفلة .. يا للمخلوقة ! » . وقال « جارث » ، وهو يحاول إقناعها : « لكن يا دوقتى العـــزيزة .. ان اهل المقاطعة لن يشـــعروا باستياء ، ما داموا لا يعلمون بأمرها .. انهـــم ســـيحضرون ليسمع بعضـــهم البعض ، وليتذوقوا شرابك ومثلجاتك .. وهذا ما سوف يتاح لهم ، ثم ينصرفون مغتبطين، متغنين بمهارة الدوقة العزيزة فى اكتشاف ذوى المواهب من أبناء المقاطعة ! » .

وأومضت عينا الصقر — اللتان أوتيتهما الدوقة — وارتفع انفها المقصوف ، وقالت : « ها ، ها !.. غير انهم سينصرفون قانعين بغرورهم ، راضين اتم الرضى عما قاموا به من غناء تافه . فى حين ان فكرتى ترمى إلى ان نتركهم يقومون بأدوارهم، ثم نشرح لهم عيوبها وصحتها وكيفيـــة ادائها ! » . فقالت « جين » مترفقة : « يبدو أنك نسيت — يا عمتى جينا — ان اغلب اولئك القوم قد زاروا المدينة ، وســـمعوا كثـــيرا من الموسيقى السليمة ، بل وسمعوا — فى الغالب — مدام « فيلما » ذاتها، وكل المغنين المشهورين. وهم يوقنون من أنهم لايجيدون الغناء كما تجيده مطـــربة الأوبرا ، ولكنهم يبذلون قصـــارى ما تتيحه لهم الهواية ، لأنك تطلبين إليهم ذلك .. ولست أراهم فى حاجة لأن يتلقوا درسا ! » فصـــاحت بها الدوقة : « جين ، للمـــرة الثالثة — فى هذا الأصيل — اضطر إلى أن أطلب منك الا تجادلى ! » .

وقال جارث دالمين : « لو اننى كنت جـــدتك — يا آنســـة شامبيون — لأرسلتك فورا إلى فراشك ! » . فعادت الدوقة

تردد : « والآن ، ماذا نحن فاعلون ؟.. لقد كان مقـــررا أن تغنى مدام فيلما اغنية « المسبحة » ، وكنت أنتظر ذلك من كل قلبى .. وقد صممت زينات قاعة الموسيقى بأسرها ، لتتمشى مع الأغنية ، فتألفت من عقود من الورد الأبيض ، وصليب احمر كبير خلف المنصة ، صنع من الورد الارجوانى .. جين ! » . فبادرت الفتاة : « نعم يا عمتى ! » . ولكن الدوقة قالت بضيق: « أف ! لا تقولى « نعم يا عمتى » بهذه اللهجة الجوفاء ! .. أليس لديك اقتراح أو رأى ؟ » . فهتف الببغاء فجأة : « سحقا لهذه المرأة ! » .

وارتد الابتهاج إلى الدوقة ، فصاحت : « الا أصغوا لهـــذا الطائر المحبوب .. ليعطه احدكم ثمرة من الفراولة !.. والآن يا جين ، ماذا تقترحين ؟ » .

***

وكانت « جين » تجلس ، وظهـــرها العريض متجـــه — بانحراف — نحو عمتها ، وإحدى ركبتيها فوق الأخرى ، وقد اشتبكت يداها الكبيرتان حولهما . فرفعت يديها ، واستدارت قليلا ، ثم نظرت إلى عينى عمتها الحادتين ، اللتين كانتا ترمقانها من تحت قبعتها .. وإذ قرأت فيهما مزيج اللوم والرجـــاء ، أشرق وجهها بابتسامة ، وصمتت برهـــة لتتأكـــد من معنى كلمات الدوقة ، ثم قالت فى هدوء : « ســـأغنى لك أغنيـــة « المسبحة » — الليلة — بدلا من « فيلما » .. إذا كنت راغبة فى ذلك حقا يا عمتى ! » .

ولو أن الجالسين فى ظلال شجرة الأرز كانوا من عامة الناس لشهقوا ، ولو أنهم كانوا من رواد « الحفلات العامة » لارتفعت أصواتهم فى دهشة وعجب .. اما وهم من مدعوى « أفضل الحفلات » ، فان أحدا منهم لم يحر حراكا ، وإنما ساد الجو شعور من الدهشة المكبوتة فى أذهانهم . وكانت الدوقة هى الوحيدة بين الحضور ، التى سمعت جين تغنى — من قبل — فقالت لها وهى تهب من مكانها وتلتقط البرقية وسلة الزهور : « وهل الأغنية معك ؟ » .. فأجابتها جين : « نعم ، هى معى . فلقد قضيت بضع ساعات مع السيدة بلانش ، عندما كنت فى المدينة ، فى الشهر الماضى .. ولقد بهرتها الأغنية — وهى التى نادرا ما تعجب بهذه الأغانى الحديثة — إلى حد انها غنتها ، وسمحت لى بأن أعزف موسيقاها اثناء الغناء .. وقد قضينا فى الأغنية نحو ساعة ، ثم حصلت منها على نسخة ! » .. فقالت لها الدوقة : « حسنا .. سأعتمد عليك ، إذن . والآن ارى لزاما على أن أبعث ببرقية رقيقة إلى « فيلما » المسكينة ، التى ينهشها القلق ولا بد ، لتخلفها عن الحضور .. فالى اللقاء يا أصدقاء ، واذكروا أننا سنتناول طعام العشاء فى الثامنة تماما . كما أن الموسيقى ستبدأ فى تمام التاسعة .. هيا يارونى ، تلطف واحمل « تومى » عنى إلى البهو ، لأنه سيملأ الدنيا صياحا إذا رآنى انصرف بدونه . يا له من طائر وقح ، هذا العزيز ! » .

وساد الصمت تحت شجرة الأرز .. واتجهت الانظار نحو « رونالد » وهو يحمل الببغاء وارجوحته على امتداد ذراعه ، بينما راح « تومى » يترنح ويرقص فوق أرجوحته ، ليحتفظ بتوازنه بمهارة .. فكان يتسلق الأرجوحة حينا ، ويقترب من رونى حينا آخر ، وكأنه يريد أن يهمس فى اذنه ببعض الأسرار .. أما رونالد فقد تجلى عليه الوجل والاضطراب ، بينما سارت الدوقة فى المقدمة وهى راضية غاية الرضى من سير الأمور ومجرى الحوادث .

وأخذ واحد أو اثنان من الحضور يراقبان « جين » . ثم قالت لها ميرا أتجلبى أخيرا : « إنها لشجاعة منكِ ، وكم كنت أود أن أزاملك على « البيانو » يا عزيزتى ، غير أننى لا أجيد سوى قطعتين ، هما : « فى ضوء القمر » ، و « ثلاثة فئران عمياء » .. وانى لأعزفهما بأصبع واحد فقط ! » . وقال جارث دالمين : « وانا على استعداد لملازمتك على البيانو يا عزيزتى جين ، لو أنك أنشدت « البرسيلين » — مقطوعة لاسن — لأننى أجيد عزفها بأصابعى العشر .. وانها لدراسة أن تسمعوا الطريقة التى أبرز بها رنين أجراس كنيسة المقبرة ، خلال الأغنية .. ان المسكين الذى كان يحمل باقة الخلنج ، لم يجد مهربا من هذا الرنين طيلة الأغنية ! » . ثم أخذ جارث يشرح دقائق اللحن ونقطه الفنية ، وكيف يظل رنين الأجراس مدويا — فى إلحاح — طيلة الأغنية .. وأردف قائلا : « ولكننى سمعت أغنية « المسبحة » ، ولست أجرؤ على عزفها ، إذ أن على العازف أن يمس كل مفاتيح الخفض — فى البداية — وقبل أن تستغرق ، يجب ان تكون محتفظا بطائفة من النغمات الحادة وغير الحادة ، لا تفلتها خشية أن تحتاج إليها فى اللحظة

التالية .. لا ، مع الأسف ! إننى إزاء مزاملتك فى أغنية « المسبحة » ، أقول ما قاله الفلاح الكهل — فى الحفلة التى أقامتها الدوقة لمستأجرى أراضيها — عندما أرادت أن تقدم له من الحلوى للمرة الثالثة — « لا أقدر ، يا مولاتى » ! .. » .

فقالت جين : « لا تكن مهزارا يا دال ، فان فى وسعك ملاءمتى فى « المسبحة » على أبدع منوال ، لو أننى أردت منك ذلك . ولكنى أفضل أن أعزفها بنفسى ! » . وقالت ليدى انجلبى فى عطف ظاهر : « اننى أفهم ذلك تماما ، فان من المريح أثناء الغناء أن تعرفى أن بوسعك — إذا لاح ان ثمة خطأ — ان تتوقفى عن الغناء أو عن العزف ، ثم تلائمى بين الاثنين ! » . وهنا نظر كل من الاثنين اللذين كانا يجيدان الموسيقى إلى الآخر ، وأومضت أعينهما ، ثم قالت جين : « انها ميزة نافعة — بلا ريب — إذا دعت الضرورة ! » . فقال جارث : « اننى على استعداد لأن أتوقف عن العزف ، لالائم بين النغم وصوتك ! » . وأجابته جين : « اننى واثقة من ذلك ، فأنت دائما كريم ، ولكننى أفضل أن أتولى الغناء والعزف معا ! » . فرد فى قلق : « لسوف تتبينين أن من العسير أن تصلى بصوتك إلى جنبات مكان بهذا الاتساع ، ما لم تقفى وتواجهى الحضور ! » .

كانت « جين » أثيرة لديه ، وكان — كرجل — يكره أن تخفق صديقته فى شىء أمام الملأ .. واشرقت فى عينى « جين » ابتساماتها الهادئة ، ثم انحدرت إلى شفتيها .. تماما كما حدث حين أدركت رغبة عمتها فى أن تتطوع لتحل محل «فيلما» . ثم

نظرت حولها فاذا أغلبية الحاضرين قد تفرقوا إلى جماعات صغيرة ، واتجه كل اثنين أو ثلاثة منهم إلى ناحية .. فمنهم من ولجوا الدار ، ومنهم من ساروا إلى النهر .. وبقيت «جين» مع «دال» و «ميرا» . وكانت عيناها الهادئتان تشعان سرورا عندما تبينتا النظرة القلقة فى عينى جارث ، ثم قالت : « نعم انى أعلم ما تقصد ، ولكن أجهزة الصوت فى القاعة على أتم استعداد ، وقد تعلمت كيف ألقى بصوتى وأوزعه .. وقد لا تعلم — وأنى لك أن تعلم ، فى الواقع ! — اننى حظيت بامتياز عظيم إذ درست على السيدة ماركيزى فى باريس ، ثم حافظت على مستواى بعد ذلك ، بالمران ساعات ممتعة — بين آن وآخر — مع ابنتها التى تقيم فى لندن والتى لا تقل عنها مواهب . وبذلك تسنى لى أن أعرف كل ما يجب أن يعرف عن التحكم فى الصوت إذ قد أفدت كثيرا من هذه الفرص الذهبية » .

وبدت هذه الكلمة الهادئة لميرا كالألغاز ، فلم تفهم منها أكثر مما كان يحتمل أن تفهم لو أن « جين » قالت : « اننى كنت أتعلم سول فامى ! » .. ولم تكن فى ذلك مبالغة ما — فى الواقع — فقد حاولت ليدى انجلبى (ميرا) أن تحذق طريقة « سول فامى » فى الموسيقى والغناء ، لتعلم خدمها وخادماتها كيف يقيمون حفلات مشتركة .. وكان ذلك فى فترة أوتيت فيها خدما ذوى مواهب موسيقية ممتازة . إذ كان مساعد رئيس الخدم ذا صوت جميل ، وكان بوسع الساقى أن يعالج النغم المنخفض ، فعند ارتفاع أصوات الباقين كان يخفض

هو إلى طبقة دونهم ، طبقا لما يتلقى من تعليمات .. أما رئيسة الخادمات ، فكانت تجيد ترديد ما يسمونه «اللازمة» . وكانت مديرة القصر ــ وهى امرأة سمراء ، ذات شفة عليا مشقوقة ــ فكانت تضبط النغمات بصوت خفيض ، بينما كان الآخرون يرفعون أصواتهم . وكانت ليدى انجلبى ــ لسوء الحظ ــ تخلط بينها وبين الساقى . على أن « ميرا » كانت تعترف بأنها لم توهب أذنا موسيقية ، وإن دأبت على المحاولة . وتصادف أن أحضر زوجها خادما جديدا ، وجدت له صوتا عظيما ، مما بعث فيها أملا فى توفر ما كان ينقصها من أركان النجاح ، وقررت أن تتعلم ــ هى نفسها ــ طريقة « سول نامى » ، واستطاعت بسهولة أن تتقن المفاتيح « مى » و « رى » و « دو » ، وكذلك « سو » و « فا » و « مى » ، لأنها كانت تمثل النغمات الأولى فى معزوفة « ثلاثة فئران عمياء » . ولكنها حين انتقلت إلى تركيبات موسيقية معقدة ، يئست فأوقفت دراستها الموسيقية .

لذلك لم يكن للحديث الذى دار أمامها من أكبر معلمة غناء فى عصرها ، معنى !.. بينما اعتدل جارث فى جلسته ، وقال : « لا عجب يا جين فى أن تقدمى على المجازفة بأعصاب هادئة ، فان « فيلما » نفسها كانت تلميذة لتلك الفنانة العظيمة ! » .

فأجابته جين : « ومن هنا قدر لى أن أعرفها معرفة وثيقة .. وقد قدمت اليوم معتقدة بأننى سأرافقها بالعزف فى أغنياتها » . فقال جارث : « وإذا بك تضطلعين بالدورين معا

.. يا لله ! ولكن أتعنين بهذا أنك تفضلين أن تعزفى بينما يغنى غيرك على أن تغنى أنت ؟ » .

وأشرقت ابتسامة « جين » البطيئة مرة أخرى ، وقالت : « اننى أفضل أن أغنى ، ولكن العزف أثناء غناء الغير أكثر فائدة » » . فأجابها جارث : « هذا حق ، فكثير من الناس يمارسون الغناء قليلا ، ولكن قليلا هم الذين يتقنون العزف بينما يغنى غيرهم ! » .

وقالت « ميرا » وعيناها الرماديتان تلقيان نظرات مسترخية من تحت أهدابها السوداء الطويلة : « إذا كنت قد تلقيت دروسا فى الغناء ، وعرفت بعض الأغانى ، فلم لم تحملك الدوقة على الغناء لنا من قبل ؟ » . فردت جين قائلة : « إن لذلك سببا مؤلما . أتعرفين ابنها الوحيد الذى مات منذ ثمانى سنوات ؟.. كان شابا جميلا موهوبا ، وقد ورث وإياه حب الموسيقى عن جدنا ، فانضم هو فى كليته إلى فريق للموسيقى ، ودرس بشغف ، ورغب فى أن يحترف الغناء . وقد وعد بأن يغنى فى حفلة خيرية فى المدينة ، فى عطلة عيد الميلاد ، فى عام من الأعوام . ولم يكن قد استكمل ابلاله من « الانفلونزا » عندما خرج ليبر بوعده . فأصيب بنكسة أدت إلى التهاب رئوى مضاعف ، ثم مات بعد خمسة أيام بالسكتة القلبية . ولقد كانت الصدمة قاسية على عمتى المسكينة ، فجن جنونها حزنا عليه .. ومنذ ذلك اليوم ، يثير أساها أى ذكر لتعلقى بالموسيقى .. وكنت مثله أرغب فى

احتراف الغناء ، ولكنها حالت بشدة دون ذلك . بل اننى نادرا ما أجرؤ على الغناء أو العزف هنا ! » .

وقال لها جارث دالمين : « ولم لا تمارسين ذلك فى أماكن أخرى ؟.. لقد نزلنا معا فى عدة بيوت ، فلم تخامرنى أتفه فكرة عن انك تجيدين الغناء ! » . فاجابته جين بعد تريث : « لست أدرى ، ولكن للموسيقى سلطانا كبيرا على نفسى . انها نوع من قدس الأقداس فى أعمق أغوار كيان الإنسان ، وليس من السهل أزاحة القناع ! » .

فقالت لها ميرا انجلبى : « إذن ، فسيزاح القناع الليلة ؟ ! » .. فوافقتها جين وهى تبتسم ، وقد كست وجهها حمرة خفيفة ، وقالت : « أجل ، أعتقد ذلك ! » . وهنا قال جارث : « وستصل إلى ذلك القدس العميق ؟! » .

الفصل الخامس

امتدت الظلال فى سكون على المرج الأخضر ، وحومت الغربان حول شجر الدردار الباسق ، وهى تنعق ، أثناء أيابها إلى أوكارها . وأشارت المزولة إلى الساعة السادسة مساء ..

ونهضت « ميرا انجلبى » واقفة ، وقد تسلطت خيوط من أشعة الشمس الغاربة على عينيها ، وبسطت ذراعيها فوق رأسها ، فتأمل الفنان كل خط رشيق فى جسمها اللدن . وقالت وهى تتثاءب : « أواه ، ما أبدع المنظر هنا ، غير اننى مضطرة إلى ان اذهب إلى وصيفتى .. وأرجو أن تستعدى فى الموعد يا جين ، فلا تضيعى وقتك فى تدليك وجهك .. لقد استبدت بك هذه العادة ، وهى تستغرق ساعات من يومك .. انظرى إلى ! » .

وكانت جين والفنان ينظران إليها فعلا ، فقد كان مرآها يملأ العيون بهجة . واستطردت ميرا تقول : « ان الاستعداد للسهرات العادية ، لا يتطلب منى أن ابدا زينتى قبل السابعة مساء .. ولكننى الآن مضطرة إلى ان اضحى بالساعة الباقية قبل هذا الموعد .. ساعة رائعة ! » .. فسألتها جين : « وماذا يحدث لو بقيت ؟.. اننى لا أعرف ما يضطرك إلى ذلك ؟ » .. فأجابتها الليدى انجلبى : « ليس المجال مجال اسهاب ، غير أنك تعلمين كم كنت أبدو جميلة طيلة النهار ، فاذا لم أسلم نفسى إلى وصيفتى الآن ، فسوف أبدو ـ فى نهاية العشاء



كانت (جين) والفنان ينظران إليها فعلا .. فقد كان مرآها يملأ العيون بهجة ..

ـ أقل بهاء ، ولن ألبث ـ عند نهاية السهرة ـ أن أظهر كما لو كان عمرى قد زاد عشر سنوات ! » .

وقالت لها جين ـ فى صراحة واخلاص ـ انك خليقة بأن تحتفظى بجمالك دائما ، فلم تفكرين فى سنك ؟ » . فأجابت مرددة أحد بيوت الشعر : « تقاس سن الرجل بما يشعر به ، أما المرأة فسنها يقاس بمظهرها يا عزيزتى » . فعقب جارث قائلا : « أشعر بأننى لم أتجاوز السابعة من عمرى بعد ! » . فضحكت ميرا قائلة : « .. وانك لتبدو وكأنك فى السابعة عشر ! » .. فاحتج جارث قائلاً : « ولكنى فى السابعة والعشرين من عمرى ، ولذلك فلا يحق للدوقة أن تقول لى « أيها الطفل المضحك » !.. وفوق ذلك يا سيدتى العزيزة ، إذا كان اختصار وقت عملية زينتك الغامضة سينتقص من حسنك شعرة واحدة الليلة ، فاننى أتوسل إليك أن تسارعى إلى وصيفتك حتى لا تفسدى على سهرتى بأسرها ، فسوف أنطلق باكيا أثناء العشاء ، والدوقة تكره مثل هذه الحالات : كما تعلمين ! » .

فلطمته الليدى انجلبى بقبعتها وهى مارة ، قائلة : « أصمت أيها الطفل المضحك ، فليس لك أن تتدخل فى حديث خاص بينى وبين جين .. لسوف ترسم لى صورة فى هذا الخريف ، وسأمتنع بعدها من تدليك وجهى ، ثم أسافر إلى الخارج ، وأعود عجوزا شمطاء ! » .. ورمت بعبارتها الأخيرة من خلف ظهرها ، وهى سائرة تتهادى فوق المرج الأخضر إلى داخل الدار . فعقب جارث وعيناه ترمقانها وهى تسير [illegible] أبدعها!

.. ترى ما مدى الصدق فيما قالت ، يا آنسة شامبيون ؟ » . فأجابته جين : « ليس لدى أتفه فكرة .. وانى لاجهل تماما مسألة تدليك الوجه هذه » . فأكمل جارث حديثه قائلا : « ما أظن فى حديثها كثيرا من الصحة ، وإلا ما قالته ! » .

فسارعت جين بالرد عليه قائلة : « انت مخطىء فى ذلك ، فان « ميرا » أمينة إلى أقصى الحدود ، وتجنح دائما للصراحة فى حديثها عن نفسها وعن أخطائها .. لقد نشأت نشأة عجيبة ، فهى من أسرة كبيرة ، وكانت دائما مستضعفة مضطهده ، ليس من اخوتها واخواتها بقدر ما كان ذلك من أمها . فما كانوا يرون صوابا فى أى شىء تقول أو تفعل .. وأحسب أن اللورد انجلبى تبين مواهبها الدفينة حين قابلها لأول مرة ، إذ كانت فتاة طويلة ، خفيفة الروح ، لها عينان جميلتان وفم شهى ينم عن حس مرهف ، ووجه ينم عن تطلع إلى الغد مشوب بالتساؤل والحيرة !.. وكان اللورد انجلبى يكبرها بعشرين سنة ، ولكنه غرق فى حبها إلى اذنيه . وبرغم ما بذلته أمها من مجهود لتحول اتجاهه إلى إحدى بناتها الأخريات ، فانه لم يرض عن « ميرا » بديلا . وعندما طلب يدها ، كان من العسير عليه أن يقر فى فهمها ما كان يقصد ، ولكن غرضه لم يلبث أن وضح لها ، فلم يطل انتظاره لردها . وطالما سمعته يداعبها بذلك ، فقد رمقته بابتسامة جذابة ، وقالت والدموع تترقرق فى مآقيها : « أجل ، سأتزوجك وأنا شاكرة ، فى الواقع ، فانى أرى ميلك إلى تلطفا كريما .. ولكن ما أشد الصدمة على أمى ! » .. ولقد تزوجا

دون إرجاء ، ورحلا إلى باريس وإيطاليا ومصر ، وأمضيا معا ستة شهور فى الخارج ، ثم عاد اللورد بعروسه فى شكلها الراهن ».. ولقد كنت ـ فى ذات مرة ـ ضيفة عليهما ، وكانت أمها هناك .. وكنا ـ فى ذات يوم ـ فى حجرة الصباح ومعنا ست سيدات ، ولم يكن بيننا احد من الرجال ، فاذا أمها تنهمك فى تسقط اخطاء تلصقها بميرا ، ثم قالت لها : « ألم يقل لك اللورد انجلبى شيئا عن ذلك ؟ » .. فتطلعت ميرا إلى أمها بطريقتها الحلوة الناعمة ، وقالت : « قد يدهشك ـ يا أمى العزيزة ـ أن أقول لك ان زوجى يعتقد بأن كل ما أفعله رائع ! » .. فاندفعت أمها قائلة : « ان زوجك غبى ! » .. وأجابتها ميرا فى تلطف : « تلك وجهة نظرك يا أمى العزيزة .. ! » .

فقال جارث : « يا للعجوز الخسيسة !.. لماذا تدعى مثل هذه المرأة أما ؟.. اننا ـ معشر الذين نعموا بأمهات رفيقات كريمات الخلق ـ لنتمنى ان يسن قانون بأن تسمى مثل تلك المرأة بـ « الولود » ، أو « منجبة الذرية » ، أو أى اسم آخر ، لكى لا يدنس اسم « الأم » المقدس ! » .. ولزمت جين الصمت ، فقد كانت تعلم قصة طفولة جارث الجميلة مع أمه الأرملة ، وتعلم شغفه بذكراها التى كانت لها فى نفسه قداسة . وكان إعجاب « جين » به ، وميلها إليه ، يشتدان كلما تكشفت أمامها هذه الخصال الخبيئة النبيلة ، فلم ترغب مرة فى معارضة آرائه ، ولم تذكر له مرة انها لم تلثغ بذلك الاسم مطلقا !

***

ونهض جارث عن مقعده ، ونصب قامته المشوقة النحيلة فى شعاع الشمس الغاربة ، كما فعلت « ميرا » . وتطلعت إليه « جين » ، فقد كان الجمال البدنى العارم يهفو بمشاعرها ــ كما هو الشأن لدى من لم يؤتوا جمالا ــ وكانت تحسب لتأثيره حسابا فى القياس بين أصدقائها ، فكان « جارث دالمين » فى طليعة الصفوة من أصدقائها ، دون منازع .. كان يكبر معظمهم سنا ، ومع ذلك فانه كان ــ فى بعض النواحى ــ أصغرهم جميعا ، إذ كان شبابه وفتوة مسلكه وروحه الجياشة تظهره فى عينى « جين » بمظهر الطيش أحيانا ، لأن روح الفكاهة عندها كانت تتسم بالرصانة والهدوء .. على انه لم يكن ثمة نزاع فى أن مظهره الخارجى كان كاملا تمام الكمال ، ومن ثم فقد كانت نظرة « جين » إليه تفيض حنانا ، كنظرة الأم الحانية على ابنها .. كان الاعجاب الصادق يملأ عينيها الرقيقتين !

أما جارث ، فانه لم يكن يفطن إلى جمال مظهره ، برغم قميصه البنفسجى الزاهى ، وربطة عنقه البنفسجية القاتمة . كما أن أشعة الشمس الذهبية بهرت نظره ، فلم يفطن إلى نظرات جين . وما لبث ان صاح فى لهجة صبى يافع : «آه» ، ما رأيك يا آنسة شامبيون .. أليس جميلا،انهم دخلوا جميعا إلى القصر ؟.. لقد كنت اتوق إلى الحديث معك ، فان وجودنا مع الجماعة ، يضطرنا إلى الحديث فى حذر ، كما يفعل الأطفال حين يلعبون بالكرات الهوائية (البالونات) .. وكثيرا ما تنفجر (البالونات) ، فيتبين ان كل ما بقى ــ بعد

طول المناقشات ــ لا يزيد على قطعة مفضضة فارغة من الجلد !.. الم يحدث لك أن اشتريت كرة هوائية فى (برايتون) ؟.. هل تذكرين ما كان يسودنا من انفعال جامح لمراى بائع الكرات الهوائية ، وهو مقبل بطائفة كبيرة منها ، بين زرقاء وخضراء وحمراء وبيضاء وصفراء ، تتألق جميعا تحت أشعة الشمس ؟.. لكم كنا ندهش ــ فى ذلك الحين ــ لتمكن صاحبها من إمساكها كلها فى يده .. اننى شخصيا لم اكن أدرى ماذا كان يحدث لو أنه ترك الكرات على الأرض .. وكنت احدد دائما الكرة التى أريدها ، فكانت عادة من الكرات التى تتوسط الحزمة ، والتى يختلط خيطها بخيوط الكرات الاخرى، فيستغرق تخليصه وقتا طويلا . وكم كان الغيظ يذهب بالكبار ، إذ يملون الانتظار .. ولكننى كنت أؤثر الا احظى بأية كرة اطلاقا ، على أن آخذ واحدة غير التى صبا إليها قلبى . أما كنت كذلك ؟ » . فأجابته جين فى غير اهتمام : « لم يقدر لى أن اشترى اية كرة هوائية فى برايتون ! » .

وكان « جارث » قد شعر بأنه عاد إلى سن السابعة ، ولكن ! جين » أحست بسأم وملل . وسرعان ما أدرك جارث ذلك ، فتناول معطفه عن ظهر المقعد ، والقى به على كتفيه ، ثم قال : « هيا يا آنسة شامبيون ، لقد سئمت البطالة فدعينا نذهب إلى النهر ونأخذ قاربا لشخصين ، فان العشاء لن يكون قبل الساعة الثامنة ، وانى لواثق من أنه يكفيك نصف ساعة لارتداء ثيابك ، ولو لتظهرى فى دور « فيلما » .. لقد رأيتك تفعلين ذلك فى عشر دقائق ، ومن ثم فهناك وقت كاف لكى

اجدف بكَ حتى نصل على مقربة من الـدير ، ونستطيع أن نتكلم خلال ذلك .. تصورى الدير القديم الرمادى ، والشمس تغرب خلفه ، بينما امتد امامه حقل ملىء بالزهور ! » .

غير أن جين لم تتحركَ ، بل قالت : « انك لن تطرب كثيرا لرؤية الدير أو غروب الشمس ، بعد أن تكون قد دفعت القارب المثقل بجسمى عبر النهر ، يا عزيزى دال . بل انك سترتمى منهوك القوى بين زهور الغابة .. وأنت تعلم جيدا اننى لست ممن يقنعن بأن يطلب اليهن الجلوس فى مقعد فى مؤخرة قارب صغير ، ممسكة بالدفة ، لأننى لا استقل قاربا إلا لكى اتولى التجديف بنفسى .. فاذا ما توليت التجديف ، فاننى افعل ذلك بقوة . أما الآن ، وبعد أن قضيت طيلة بعد الظهر فى لعب الجولف ، فليست بى رغبة فى التجديف ، كما انك تدرك ــ ولا بد ــ أنه لن يلذ لك أن تظل محملقا فى وجهى طيلة صعودنا النهر وهبوطنا ، بينما يكون كل تفكيرى متجها إلى انتقاد ضربات مجدافكَ ، وملاحظة الطريقة التى ترفع بها المجداف من الماء ! » .

***

وعاد « جارث » إلى مقعده ، وعقد يديه وراء راسه الأسود الناعم ، واخذ ينظر إليها بعينيه البراقتين اللطيفتين ، كما كان ينظر إلى الدوقة ، ثم قال : « ما أشد ضيقك يا صديقتى ! .. ماذا بكَ ؟ » . فضحكت جين ومدت له يدها وهى تقول : « واها منكَ أيها الفتى العزيزَ ، ان طباعكَ لأحلى طباع فى الدنيا بأسرها . لن ابدى الضيق بعد الآن .. والحق

أن ضيقى منبعث عن أننى أمقت حفلات الدوقة ، ولا يستهوينى أن أكون « عنصر المفاجأة » فيها ! .. » . فأجابها جارث فى حنان : « فهمت .. إذا كان الأمر كما تشعرين ، فلماذا نطوعت ؟ » .

واجابت جين : « كان ذلك واجبا على ، فان العمة العجوز الحبيبة نادرا ما تطلب منى شيئا ، وقد قرأت فى نظراتها ضراعة صارخة .. الا تعرف كيف يتوق المرء أحيانا إلى إسداء صنيع إلى شخص يهمه أمره ؟.. اننى اقبل أن انظف حذاءها لو أنها طلبت منى ذلك ، غير انه من العسير ان أمكث هنا أسبوعا بعد أسبوع ، وأن أكون فى متناول يدها .. لقد كان هذا هو الطلب الوحيد الذى سألتنيه وعيناها المتكبرتان تحدقان فى توسل . فهل كان يجمل بى أن أرفض ؟ » . وإذ ذاك قال « جارث » فى عطف بالغ ، وهو مستغرق فى التفكير : « كلا يا عزيزتى ، ما كان يجمل بك أن ترفضى . فلا تبالى كثيرا بالفكاهة التى تتردد عن « عنصر المفاجأة » .. لا ، لست انت التى تبالين ، ولا اشك فى أنك ستغنين خيرا من أغلب الساخرين من « عنصر المفاجأة » ، ولكنهم لن يتبينوا ذلكَ ، لأن الأمر يحتاج لاسم « فيلما » ليخلب لبهم .. لسوف يرون أن أغنية « المسبحة » جميلة ، وسيربتون كتفك مجاملة . وينتهى الأمر عند ذلك .. فلا تحفلى ! » .

وجلست « جين » تفكر ، ثم قالت : « اننى اكره يا دال ان اغنى أمام مثل هذا الحشد ، إذ اشعر كما لو أننى أعطيهم روحى ليحملقوا فيها ، وهو أمر غير مستساغ .. ان الموسيقى



— فى اعتقادى — هى أشد قوة كاشفة فى العالم ، وانى لأرتجف حين أفكر فى تلك الأغنية ، ومع ذلك فلست اجرؤ على ان أؤديها بأقل من الكمال . وعندما تحين الساعة ، فسأعيش فى الأغنية ، وأنسى وجود المستمعين . سأذكر لك درسا تلقيته مرة من مدام بلانش .. كنت أغنى « الأنشودة الهندية » من تأليف « بمبرج » ، وهى صلاة حارة ترفعها امراة هندية إلى الإله « براهما » .. وكانت الأنشودة تبدأ بالكلمات الآتية : « براهما ، يا إله المؤمنين .. » ، فبدأت أنشادها وكأننى أردد درسا موسيقيا ، لأن « براهما » لم يكن شيئا فى عقيدتى ، وإذا مدام بلانش تصيح فى بلهجة قاسية عنيفة : « قفى ! .. آواه منكم معشر الإنجليز ! ماذا تفعلين ؟ إن « براهما » قد لا يكون إلهك ، وقد لا يكون إلهى ، ولكنه إله أشخاص آخرين .. إنه إله الأغنية التى تغنين ، فانصتى ! » .. ثم بدأت تغنى : « براهما ، يا إله المؤمنين ، يا سيد المدينة المقدسة ! » .. وإذا جبينها يتألق بالضياء ، وإذا باحساس دينى جياش يهز روحها .. لقد كان درسا لن أنساه طول حياتى ، وأؤكد لك أننى منذ ذاك اليوم لم أردد أغنية ما فى فتور ! » .

قال جارث دالمين : « بديع ، فاننى أحب الحماسة فى كل ناحية من نواحى الفن .. وما فكرت مرة فى رسم لوحة ، ما لم أشغف بالمرأة التى أصورها ! » .

فابتسمت جين ، إذ اتخذ الحديث الاتجاه الذى كانت تتمنى أن يتجه إليه .. وقالت : «ما أكثر من تهيم بهن تباعا ياعزيزى

دال ، حتى لنخشى — نحن الصديقات الحميمات اللائى يضعن مصلحتك الحقيقية نصب أعينهن — ألا تتجه بشغفك يوما إلى غاية محددة ! » . فضحك جارث وقال : « ويحك ، هل أصبحت كالأخريات جميعا ؟ .. اتعتقدين مثلهن بأن الشغف والاعجاب يجب أن يهدفا إلى الزواج حتما .. لقد كنت أتوقع أن يكون رأيك أسلم وأقرب إلى وجهة نظر الرجال » ..

قالت جين : « يا بنى العزيز ، ان أصدقاءك يجمعون على ضرورة زواجك ، فأنت وحيد فى الدنيا ، ولك مسكن بديع .. وأنت معرض تماما لأن تفسد على أيدى الغبيات اللائى يطاردنك . ولا مراء فى أننا ندرك تماما أن زوجتك يجب أن تحرز كل ما لا نظير له من آيات الجمال تحت الشمس .. مجتمعة فى شخصها الرائع . ولكن كل حسن قدسى تراه وترسمه ، يحقق لك هدفك المثالى الرائع ، تحقيقا مؤقتا ، على ما يبدو . فاذا تزوجت حسناء — بدلا من أن ترسمها — فلعلها تحقق لك المثل المنشود ، تحقيقا دائما ! » . ففكر « جارث » قليلا وهو صامت، ثم انعقد حاجباه ، وأخيرا قال : « ان الجمال فى الواقع أمر سطحى ، فأنا أراه وأعجب به ، وقد أشتهيه وأصوره . وما أن أفرغ من تصويره ، حتى أضمه إلى ممتلكاتى، وأجد — بطريقة ما — اننى اكتفى بذلك .. وكل مرة أرسم فيها امرأة ، أروح أبحث عن روحها ، رغبة منى فى أن انقل صورتها على اللوحة .. ولكن اتعلمين يا آنسة شامبيون بأننى أكتشف — فى كل مرة — ان المرأة الجميلة لا تحظى دائما بروح جميلة ؟! » .

وصمتت « جين » ، إذ كان الجانب الروحى فى المرأة ، هو آخر ما تود الخوض فيه .. واستأنف « جارث » حديثه قائلا : « هناك امرأة واحدة فقط تظهر لى كاملة ، وسأصورها فى هذا الخريف ، وأعتقد بأننى ساكتشف فيها روحا تضارع جسدها حسنا ! » . فتساءلت جين : « أهى .. ؟ » . فقاطعها قائلا : « ليدى براند » . وإذ ذاك ، صاحت جين : « فلاور ؟! .. أشغفت بفلاور إلى هذا الحد ؟ » . فأجابها « جارث » فى تحمس خاشع : « نعم ، انها لبديعة الحسن . ويقينا أن كل هذا الحسن المطلق ، المجرد من كل عيب ، لا يمكن أن يجتمع فى امرأة واحدة .. انه يهز نياط قلبى . هل تدركين يا آنسة شامبيون هذا الاحساس ؟.. الاحساس بالجمال الكامل الذى يهز فؤادك ! » .

وأجابت جين فى اقتضاب : « كلا ، لم احس بشىء من ذلك ، ولا اعتقد انه يليق بك ان تتأثر بجمال زوجات الغير » . فصاح بها جارث مأخوذا : « ليس الأمر متعلقا بزوجات أو غير زوجات ، يا صديقتى العزيزة ، فان غابة مليئة بزهرة الأجراس ، تحت اشعة شمس الصباح ، خليقة بأن تحدث فى نفسى ذات الاحساس .. اننى أحس أن قلبى يهتز شوقا إلى أن ارسمها . حتى إذا ما أتممت تصويرها ، وابرزت ـ فى اتقان ـ كل آيات الحسن التى ارى ان ليس لها نظير ، شعرت بارتياح ورضى .. وإلى الآن ، لم أرسم ليدى براند إلا من الذاكرة ، ولكن عليها أن تجلس أمامى لأرسمها فى شهر أكتوبر » . فسألته جين : « هل رسمتها من الذاكرة ؟ » .

ـ نعم اننى انقل كثيرا من صورى عن الذاكرة . دعينى القى نظرة على وجه شىء ما ، وأتملاه فى لحظة يتسنى فيها التغلغل إلى ما تحت السطح ، فلا ألبث أن أرسم لك ذلك الوجه من ذاكرتى بعد أسابيع .. وكثير من أفضل لوحاتى المعبرة رسمت بهذه الطريقة .. آه ، ما ألذ ذلك ! ان الجمال ـ أعنى عبادة الجمال ـ عقيدة ودين لدى !

فقالت جين : « تقصد نوعا من الدين بغير إله ! » . فأجابها جارث فى خشوع : « ان الجمال الحقيقى منحة من الخالق ، ولا بد أن يهدى بدوره إلى الخالق ، فان « كل عطية صالحة ، وكل عطية كاملة، هى من فوق نازلة، من عند أبى الأنوار » .. ولقد التقيت مرة باحدى العجائز المخرفات ، فقالت ان كل الأمراض تأتى من الشيطان .. وليس بوسعى أن أصدق ذلك، لأن أمى قضت الأعوام الأخيرة من حياتها ، طريحة الفراش ، وبوسعى أن أشهد صادقا بأن مرضها كان بركة لكثيرين ، وقد تحملته تمجيدا لاسم الله .. على اننى أعتقد بأن كل جمال حقيقى هو منحة من الله ، وهذا هو السر فى أن عبادة الجمال فى عقيدتى دين . فما من قبيح كان فى أصله جميلا .. حقا ، وما من خير يمكن أن يكون قبيحا حقا ! » .

* * *

وابتسمت جين وهى تنظر إليه ـ وقد استلقى فى مقعده تحت شعاع الشمس الذهبية ـ فرأت فيه جمال الرجل مجسما . كان تجرده المطلق من الحذر فى حديثه ـ سواء بالنسبة إلى نفسه أو إليها ـ قد دفعه إلى أن يتحدث بهذا

الشكل إلى أكثر النساء ـــ اللائى يعرفهن ـــ حرمانا من الجمال الصارخ .. وبدا لجين فى ذلك قبسا من المرح ، مال بتفكيرها إلى اتجاه آخر .. وراق لها هذا الحديث ، أكثر مما كان يروق لها شراء (بالون) ملون ، أو مشاهدة الدوقة مرتدية قبعة من القش ، ثم سألته : « اذن ، فهل يحرم المجردون من الجمال من نصيبهم من الخير والطيبة يا دال ؟ » .

فأجابها جارث دالمين : « ان الخلو من الجمال ليس قبحا ! .. لقد تعلمت هذا منذ كنت صبيا صغيرا ، إذ أخذتنى أمى مرة لأستمع إلى واعظ شهير ، فلما رأيته جالسا على المنبر ـــ قبل بدء القداس ـــ بدا لى انه أقبح إنسان رأيته فى حياتى ، فقد تمثل لى كغوريلا هائلة الحجم .. وتولانى رعب شديد من منظره حين نهض وواجهنا ليلقى موعظته ، وخيل إلى أنه كان ينبغى أن يوضع بيننا وبينه حاجز ، وأنه كان خليقا بنا أن نلقى إليه بالبندق والبرتقال .. ولكنه لم يكد ينهض ليلقى موعظته ، حتى تبدل منظر وجهه ، فشعت منه الطيبة والالهام وأحالتاه إلى وجه ملاك .. ولم أعد أرى فيه قبحا بعد ذلك ، لأن جمال روحه تألق على سطح جسمه فكساه سناء .. ومع أننى كنت صبيا ـــ إذ ذاك ـــ فقد أمكننى التفريق بين الدمامة والخلو من الجمال الظاهرى . حتى إذا جلس بعد أن ختم موعظته العظيمة ، لم أعد أرى فى وجهه شبها بالغوريلا أو الشمبانزى ، وما أزال أذكر الهالة السماوية التى شعت من ابتسامته .. ومن الطبيعى أن خلو سماته من الجمال ظل على حاله ، فلم يكن وجهه من الوجوه التى يود المرء أن يعيش

معها ، أو أن يطالعه يوميا على المائدة .. ولكن المرء لم يكن مطالبا بأن يثابر على حضور مثل هذا القداس ، وإلا كان ذلك خليقا بأن يكون ـــ بالنسبة لى ـــ استشهادا !.. ولقد بقيت ذكراه فى مخيلتى ـــ من ذلك الوقت ـــ كبرهان ناصع على الحقيقة .. على أن الطيبة لا تكون دمامة أبدا ، وأن انبثاق الحب العلوى والالهام السماوى من أبسط التقاطيع الجسمية شكلا ، يحولها مؤقتا إلى جمال .. ودائما إلى شىء يحب المرء أن يتذكره ! » .

قالت جين : « فهمت .. لا بد أن هذه الذكرى كثيرا ما ساعدتك على الوصول إلى وجهة نظر صحيحة ، إذ تبينت ذلك من زمن بعيد . ولكن ، لنعد الآن إلى الموضوع الهام .. موضوع الوجه الذى ترغب فى أن يطالعك يوميا على المائدة . انه لا يمكن أن يكون وجه « ليدى براند » ، ولا يمكن أن يكون وجه « ميرا » .. ولكنك تعلم يا « دال » أن ثمة أنثى بارعة الحسن مرشحة لهذا المركز ! » . فسارع جارث لمقاطعتها قائلا : « أرجوك ، لا أريد ذكر أسماء .. انى اعترض على ذكر أسماء فتيات فى معرض هذا الحديث » .

ـــ حسنا يا بنى العزيز ، اننى أفهم رغبتك واحترمها .. انك أكسبتها شهرة باللوحة التأثيرية التى رسمتها لها ، وها أنذى أسمع أنك راغب فى أن ترسم صورة أخرى لها أكثر روعة ، فى الخريف . والآن يا دال ، انك لتعلم أنك معجب بها أشد إعجاب .. وأنها لجميلة ، بل أنها فاتنة ، وأنها لتنتمى إلى بلاد إذا أوتيت النساء فيها سحرا ، فانهن يقرنه بنضارة ،

وبتأثير فتاكَ يجعلانهن أبعـد من كل شبيه . أما أنت فانك فذ فى بعض النواحى ، بحيث يحق لك أن تحظى بزوجة فذة ـ هى الأخرى ـ إلى حد ما . ولا أكاد أدرى إلى أى مدى قد يؤثر عليك رأى أصدقائك فى مثل هذا الأمر ، ولكن قد يسرك أن تسمع أنهم يقرون بالاجماع ولاءك لـ . . للخطوط والنجوم، كما ينبغى أن يقال ! » . . والخطوط والنجـوم تمثل العلم الأمريكى . . والأمريكيات !

وهنا أخرج جارث دالمين علبة سجائره وأخذ لفافة منهـا بكل عناية ، ثم تركها بين أصابعه ، وسبح فى تأمل عميق . . فقالت له جين : « دخن سيجارتك ! » . فشكرها جارث ، وأشعل عودا من الثقاب أوقد به سيجارته على مهل ، ثم ألقى بالثقاب ، فسقط على الحشيش ، وارتفع لهبه ، فهب جارث وأطفأه . ثم عاد إلى مقعده مواجها « جين » ، واستلقى قليلا، وأخذ يدخن وهو غارق فى التفكير وعيناه تتابعـان حلقـات الدخان التى كان ينفثها ـ وهى تتصاعد إلى فروع شـجرة الأرز ، وتتمدد ثم تتبدد وتتلاشى . . وظلت جين ترقبـه . . كان تباين أساليب أصدقائها فى اشعال سجائرهم وتدخينها ، ظاهرة تستثير اهتمام « جين » دائما . كان هناك عشرة شبان ـ على الأقل ـ تستطيع أن تعين اسم كل منهم بمجرد سماعها وصف أسلوبه . كما أنها تعلمت من « دريك براند » قيمـة لحظات الصمت فى أثناء أى حديث هام !

وأخيرا تكلم « جارث » ، فقال : « يزداد عجبى كلما فكرت فىَ السبب الذى يجعل الدخان يخرج من اللفافات بلون أزرق

باهت ، وفى حلقات متصاعدة . . فى حين أنه يخرج من أفواهنا ـ إذا نفثناه ـ بلون أبيض مغبر ! » .

وكانت جين تعلم أن السبب فى ذلك هو أن الدخان ـ حين ينفث من الفم ـ يخرج مشـبعا بالرطوبة . غـير أنهـا لم تفه بكلمة ، إذ لم تشأ أن تزجى برأيها عن حلقـات الدخان ، حتى لا تشجع ذهنه على الاتجاه المصطنع الذى نحـا إليه إذ ذاك . وانتظرت فى هدوء أن يستجيب لهـذا الاستدراج الذى وجهته إلى أعماقه ، وهى مطمئنة إلى أنه لن يلبث أن يفعل . وسرعان ما فعل ، إذ قال : « كم هو جميل منك يا آنسـة شامبيون أن تكلفى نفسك عناء التفكير الطويل فى أمرى ، وأن تكشفيه لى . وحتى أبين لك مبلغ عرفانى بالجميل ، سأوضح ـ للمرة الأولى ـ أين تكمن عقدة مشكلتى ؟ . . اننى لم أكد أحددها بعد لنفسى ، ومع ذلك فاعتقـد أن فى مقـدورى أن أطرحها أمامك ! » .

ثم سـاد الصمت بينهما مرة أخـرى ، ودخن « جارث » لفـافته وهـو غارق فى تفـكير عميـق ، بينما انتظـرت « جين » فى صـمت شـامل . . ووجد جارث نفسـه يردد ـ ساخرا ـ الأبيات الأخيرة فى إحدى أغنيات القرن السادس عشر : « أذن ، فلنصل عسى أن ترسل السماء مثـل هـذه الحشائش ، وهذه المقاعد ، وهذا الصديقَ » .

***

ولعل لفافة التبغ ، أو المقعد ، أو جين ، أو ثلاثتهم معا ، قد بعثوا فى « جارث » شـعورا سـاميا بالهدوء والراحـة

والاستكانة .. تحليقا روحيا جعل كل شيء حسن يبدو
أحسن ، وكل المصاعب تلوح سهلة ، والمثل العليا تتراءى فى
متناول اليد .. وبدا السكون مثل غروب الشمس ذهبيا .
قطعه جارث آخر الأمر بقوله : « ثمة امرأتان — هما الوحيدتان
اللتان كان لهما وجود حقيقى فى حياتى — هما اللتان وضعتا
لى مستوى لا املك النزول عنه .. واحداهما هى أمى — وهى
لى ذكرى مثالية مقدسة — والأخرى هى العجوز « مارجرى
جريم » صديقة طفولتى ومربيتى ، وهى الآن مديرة دارى
التى تتولى كل أمور بيتى ، فان قلبها الأمين وذكرها الدائم
يساعدانى على أن أظل صادقا نحو ذلك المثال العذب الذى
يلازمنى فى حياتى ، والذى اختفى من جانبى عندما وقفت على
عتبة الرجولة . و « مارجرى » تقيم بقصر (كاسل جلينيش) .
وعندما اذهب إلى هناك ، يكون اول من تقابله عيناى عند
انفراج باب البهو ، هى العجوز مارجرى فى مئزرها الحريرى
الأسود ، ومنديلها ، واشرطة الخزامى المتدلية منها . وفى تلك
اللحظة اشعر بأننى فى السابعة من عمرى ، فأسارع إلى ضمها
إلى صدرى . وأنت يا آنسة شامبيون لا تميلين إلى عندما
اتصرف كما لو كنت فى السابعة من عمرى ، أما مارجرى فتحب
ذلك .. والآن هاك ما أود أن تتحققى منه . عندما أقود
عروسى إلى (كاسل جلينيش) وأقدمها إلى مارجرى ، فان
عينى العجوز الرحيمتين ستحاولان ألا تريا فيها إلا كل ما هو
حسن .. وسيهفو القلب العجوز إلى أن يحبها ويتفانى فى
خدمتها . ومع كل هذا ، فسوف أكون على بينة من أنها

تعلم بالمستوى الذى أنشده ، كما أدركه أنا تماما .. وأنها
تذكر المثل العالى — الذى كان يجمع بين الرقة ، والحنان .
والأنوثة المسيحية — كما اذكره تماما . ولا يحق لى ، بل اننى
لا أجرؤ على أن أرتضى امرأة أقل من هذا المستوى .. صدقينى
يا آنسة شامبيون إذا قلت اننى صادفت — أكثر من مرة —
جمالا بدنيا فتاكا . ملك على كل مشاعرى وقادنى إلى عبادة
الحسن الخارجى ، حتى تناسيت أو تجاهلت الحسن الضرورى
وأركانه الأبدية غير المنظورة .. عند ذلك أتمثل عينى مارجرى
الصافيتين تحملقان فى عينى — دون أن تشعر بأى سلطان لها
او تأثير منها — وأخال يدها القوية تتحسس كمى معطفى .
وأسمع صوتها — الذى قادنى فى حياتى منذ طفولتى — يخاطبنى
فى دهشة ورقة قائلا : « أهذه هى التى وقع عليها اختيارك
يا سيد جارث لتشغل مكان سيدتى المحبوبة ؟ » .. ولا ريب
فى انك حين تفكرين — يا آنستى شامبيون — فى تركيبنا
ومشاعرنا وتصرفاتنا ، سترين أن من السخف أن أجلس هنا
على حشائش الدوقة ، وأعترف بأننى احجمت عن خطبة
النساء اللائى حظين بالقسط الأكبر من إعجابى ، لمجرد
تفكيرى فيما قد يكون رأى مربيتى العجوز فيهن . ولكننى
أريد أن تعرفى أن رأيها يقوم دائما على ذكرى ، وتلك الذكرى
هى ذكرى أمى الميتة . ثم أن مارجرى تعبر عن حقيقة نفسى ،
وتنطق بالحكم الشخصى الذى كنت خليقا بأن اتخذه إذا لم
تعم الشهوة بصيرتى ، أو تستبد بى عبادتى للجمال . وليس
معنى ذلك أن مارجرى لا تحبذ الجمال ، فهى على العكس .

لا تقبل لى سواه . اننى أوقن من ذلك ، ولكن بصيرتها سرعان ما تتغلغل وراء السطح . فهى تنظر إلى الاشياء غير المنظورة ، كما جاء فى إحدى الآيات السامية للقديس بولس .. ويبدو لى غريبا أننى قد استرسلت معك فى هذا الحديث يا آنسة شامبيون ، فالواقع ان هذه هى المرة الأولى التى صغت فيها هذه الأفكار ونسقتها . واعتقد انه من أسمى آيات الصداقة ان تجشمى نفسك عناء إزجاء النصح الصائب لى ، فى أمر كهذا ! » .

***

وامسك « جارث دالمين » عن الحديث ، فاذا الصمت الذى أعقب ذلك يبدو ثقيلا مروعا ، حتى لقد تراءى لجين كجدار عال تحاول عبثا تسلقه .. وخيل إليها انها كانت تندفع هنا وهناك بحثا عن منفذ أو اية وسيلة للنجاة . ومع ذلك فقد ظلت حائرة إزاء الرد السديد على ما لم تكن تتوقع سماعه .. ومما زادها عيا وعجزا ، انها تاثرت كل التاثر باعتراف جارث ، وقد اعتادت أن تجد الكلام عسيرا ، إذا ما استولى عليها تاثر عميق .. وأى تاثر اقوى من ان هذا الشاب المحبوب من جميع الفتيات لحسن محياه ولطف طباعه ، والذى تلاحقه الأمهات والقهرمانات لصلاحيته التامة لفتياتهن ، والذى اكتسب شهرة فى عالم الفن ، واصبح هدفا للمداهنة والغزل ، وقبلة للمجتمع .. هذا الشاب يقر ــ فى هدوء ــ بأن المرأة الوحيدة الباقية فى حياته ، هى مربيته العجوز .. وأن آراءها وآمالها ترده عن أى زواج غير حكيم .. هذا الوضع

العجيب نفذ إلى أعمق مشاعر جين ، فابتسمت فى نفسها حين تصورت ما يكون لهذه الأقوال من وقع إذا سمعها باقى الأصدقاء .. لقد اكتشفت جارث على ضوء جديد ، وفهمته فجأة كما لم تفهمه من قبل .. ومع ذلك ، فان الرد الوحيد الذى استطاعت أن تحمل نفسها على قوله ، كان : « لكم تتوق نفسى إلى معرفة مارجرى العجوز ! » .

فأومضت عينا جارث ببريق الغبطة ، واجابها : « آه ، ليتك تعرفينها ! .. اننى ارجو أن تزورى (كاسل جلينيش) ، فسوف يبهجك المنظر الذى تطل عليه شرفته ، والمنحدر المؤدى إلى المسالك بين الصخور ، ومنها إلى الربى الارجوانية ، كما أعتقد انك ستسرين لمرأى غابات الصنوبر والمستنقعات .. وبهذه المناسبة ، ما رأيك ــ يا آنسة شامبيون ــ فى أن أقيم « حفلة ممتازة » ــ على غرار حفلات الدوقة ــ فى قصر (جلينيش) فى شهر سبتمبر ، اتوسل إلى الدوقة أن تحضرها وتتولى رئاستها ؟ .. إذ ذاك تستطيعين أن تحضرى ، وسيدعى إليها كل من تختارين . وربما استطعنا ان ندعو الحسناء الأمريكية ــ غادة « النجوم والخطوط » ــ وعمتها التى من (شيكاغو) .. السيدة باركر بانجس . وعند ذلك يتضح لنا رأى مارجرى فيها ! » .

فأجابت جين : « بديع .. سأحضر بكل سرور . وانى لأرى منذ الآن ــ يا دال ــ أن تلك الفتاة ذات شمائل حلوة .. الديك افضل منها ؟ .. أن مظهرها كامل الحسن ، ومن المؤكد أن روحها كذلك . هيا خذ رأينا جميعا وسوف ترى ما

يحدث ! » . فصاح جارث مبتهجا : « سأفعل ! .. ترى ماذا يكون رأى مارجرى فى السيدة باركر بانجس ؟ » . فأجابته جين فى حزم : « ليس هذا بالمهم .. إذا تزوجت ابنة الأخ ، فان العمة سترحل ـــ ولا بد ـــ إلى شيكاغو » .

ـــ كم اود الا يكون أهلها من أصحاب الملايين !

ـــ لا حيلة فى ذلك ـــ ان الأمريكيات يخلبن الالباب ، فعلينا أن نغض الطرف عن ثرواتهن ! » .

وقال جارث : « وددت لو ان الآنسة ليستر وعمتها كانتا هنا . ولكنهما مدعوتان إلى الحفلة التى ستقيمها ليدى انجلبى يوم الثلاثاء القادم ، وسأكون هناك .. هل ستحضرين يا آنسة شامبيون ؟ » . فأجابت جين : « أجل .. فسأذهب إلى آل براند يوم الثلاثاء لقضاء بضعة أيام ، ولكننى وعدت « ميرا » بأن أعرج على (شنستون) فى نهاية الأسبوع .. اننى احب الاقامة هناك ، فهما زوجان منسجمان تحلو عشرتهما » .. فقال جارث : « نعم .. واى رجل يستطيع الا ينسجم ، إذا كان زوجا للادى انجلبى ؟ » . فضحكت جين قائلة : « يا للتعبير البديع !.. اننى افهم جيدا ما تعنى ، وكم يسرنى أن يكون تقديرك لميرا عاليا ، فهى شخصية محبوبة .. ولكن عليك أن تعجل برسمها ثم تنتزعها ـــ بعد ذلك ـــ من عقلك ، حتى تكون خالصا لبولين ليستر وحدها !» .

وهنا اشارت المزولة إلى الساعة السابعة ، وكانت الغربان قد حومت مرات حول الأشجار ، ثم آدت إلى أوكارها . فهبت

جين واقفة ، وقالت وهى تسير بجانبه فوق الحشائش : « لندخل !.. كم انا مسرورة بالحديث الذى دار بيننا الليلة ! » .. فأجابها جارث : « نعم ، فان حديثنا الليلة لم يكن عن كرة الهواء ، وإنما كان عن كرة القدم ! .. الكرة ذات الغلاف الجلدى المتين وقد سدد كل منا كرة فأصاب هدفا ، وذلك ـــ كما تعلمين ـــ رباط قوى .. ذلك لأن نصيحتك قد سكنت فى أعماق قلبى ، كما اعتقد أن اجابتى قد كشفت لك حقيقة الامر .. اليس كذلك يا آنسة شامبيون ؟ » .

وكان يشعر ـــ إذ ذاك ـــ كما لو كان فى السابعة من عمره .. اما جين فقد نظرت إليه بمنظار « مارجرى » ولم يؤلمها ذلك . ثم قالت ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة وديعة صادقة : « نعم سنعتبر ذلك رباطا ، وسيكون دعامة قوية لصداقتنا .. شكرا يا دال لكل ما قلته لى ! » .

ولما عادت جين إلى حجرتها وجدت انه ما يزال أمامها نصف ساعة قبل ان ترتدى ثيابها ، فانكبت على مذكرتها اليومية ، إذ وجدت فى حديثها مع جارث دالمين ما يستحق التسجيل ، لا سيما قصة القس الذى طغى جماله الروحى على قبحه البدنى ، فسجلتها حرفيا .. ثم دقت الجرس لخادمتها ، وشرعت ترتدى ملابس السهرة للعشاء والحفلة التى ستتلوه :

الفصل السادس

يا آنسة شامبيون ، ان دورك هو التالى ، إذ يعرض الآن آخر جزء من البرنامج المحلى .. وسوف تشرح الدوقة ـ عند انتهائه ـ ظروف مرض « فيلما » بالتهاب الحنجرة ، ونرجو الا تدعوه بـ « الزائدة الدودية » ! .. وبعد ذلك سأعلن دورك، فهل أنت على استعداد ؟

هذا ما قاله « جارث دالمين » لجين ـ بوصفه رئيس التشريفات ـ حين عثر عليها فى الشرفة ووقف أمامها تحت أضواء المصابيح الصينية الخافتة . وكانت الزهرة القرمزية فى عروة سترته ، تتسق مع الجوربين القرمزيين اللذين كانا فى قدميه ، وقد أضفى اللون مسحة فنية على لونى ملابس السهرة : الأسود والأبيض . وتطلعت إليه جين ـ وهى مستقلية فى مقعدها الخيزرانى ـ وابتسمت فى وجهه الملهوف ، وقالت بعد أن نهضت من مقعدها وسارت بجواره : « انى مستعدة ، فهل كل شيء على ما يرام ؟.. وهل هناك عدد كبير من النظارة ؟ » .

فأجابها جارث : « أفواج .. والدوقة فى غاية المرح .. فالحفلة أبهج من المعتاد . ولكن الوقت حان لأهم أحداث الليلة ، فأين كراستك الموسيقية ؟ » ، فقالت جين : « شكرا لك ، سأعزفها من الذاكرة ، لأن هذا يوفر على عناء تقليب الصفحات ! » ثم دلفا إلى قاعة الموسيقى ، ووقفا خلف الستائر التى حفت بالدرجات الست المؤدية إلى المسرح . وهمس جارث

فى أذنها قائلا : « أنصتى إلى الدوقة » .. أتسمعين قولها : « ان ابنة أخى جين شامبيون قد تلطفت وقبلت ان تسد النقص .. » . معنى ذلك يا آنسة جين أن تستعدى لاعتلاء المنصة بعد نصف دقيقة .. كان أدعى للتخفيف عنك ألا نسهب فى الحديث عن « فيلما » . ولكن لا بأس ، فلقد اعتادوا منها هذه الأمور . هل سمعت ؟ .. « التهاب الزائدة الدودية » ! .. ألم أقل لك؟ مسكينة مدام « فيلما » ، فلنأمل ألا يتسرب هذا إلى الصحف المحلية . بالله ! لقد بدأت تتوسع فى الحديث عن الأمراض التى شاعت فى المجتمع الحديث .. حسنا ، سيتيح لنا ذلك برهة نستجمع فيها جلدنا !.. وعلى ذكر ذلك يا آنسة شامبيون ، لقد كنت أداعبك بما قلت فى الأصيل عن العزف والغناء ، وبوسعى أن أزاملك بالعزف إذا أردت .. كلا ؟ حسنا ، لك ما تشائين ، ولكن اذكرى أن غناء القطعة يتطلب صوتا عاليا حتى يترك أثره فى السامعين فى هذه القاعة الفسيحة ، لا سيما وهى مزدحمة .. والآن ، ها قد انتهت الدوقة ، فهلمى !.. تنبهى إلى أولى درجات السلم ، يا للعنة ! ما أشد الظلام خلف الستار ؟! ! .. ثم مد لها يده ، فصعدت جين الدرجات ، وظهرت للجمهور المجتمع فى قاعة الموسيقى بقصر (أوفردين) .

وبدت قامتها أطول من المعتاد ، وهى تسير منفردة على المنصة المرتفعة . وكانت مرتدية ثوب سهرة أسود خفيفا ، تزين صدره « دانتلا » قديمة ثمينة ، وعقدا من اللؤلؤ أحاط بعنقها .. وتأملها الحضور ـ حين ظهرت ـ وصفقوا لها مسترييين ، إذ كان اسم « فيلما » فى البرنامج قد أثار فى نفوسهم

آمالا ، فاذا بهم يرون فى مكانها الآنسة شامبيون ، التى كان من المؤكد انها تتقن العزف جدا ، ولكن هذا لم يكن يعنى أنها تجيد الغناء ، وأنها جديرة بأن تتطوع لأداء أغنية « فيلما » .

ولو كان الحضور أكثر كياســـة ، لحيــوها تحية تذكى من تحمسها ، ولعبروا عن تقدير كريم لجهودها الكبير ، وعن أمل سخى فى نجاحها .. اما هــؤلاء الحضــور فقد اعربوا عن توجسهم فى تصفيقهم الفاتر .

وابتسمت لهم « جين » بنفس راضــية ، ثم جلست إلى « البيانو » ـــ وكان كبيرا من طراز يخشتلين ـــ والقت نظرة على عقود الورد البيضـــاء والصليب المصــنوع من الورود الحمراء ، ثم وقعت النغم الأول فى معزوفتها ، وشرعت تغنى، دون تلكؤ ولا مقدمات .

***

ورن صوتها العميق الــكامل النبرات فى أركان القــاعة الفسيحة ، فساد الحضور صمت شامل فجائى .. وأخــذ كل مقطع يشق حجاب الصمت ، وقد انطلق به صوت حنــون ذو عذوبة سلبت الألبــاب ، حتى كادت القــلوب تكف عن الوجيب ، وقد غلبتها الانفعالات العاطفية الجياشـــــة .. أما أولئك الذين تغلغل سحر الأغنية إلى أعماقهم سريعا ، فقد تجاوبت مشاعرهم بمزيد من العمق مع سحر الموســيقى . وأخذت جين تنشــد :

« ان الساعات التى قضيتها معكَ يا قلبى العزيز ،

« لتتمثــل لى كعقــد من اللآلىء ، أعــدها .. واحــدة فواحدة ...

« انها مسبحتى .. مسبحتى ! » .

وانسابت الكلمتان الأخيرتان همسا ـــ برقة ، واستغراق ، وعذوبة ـــ فى الصمت السائد ، تحملان عالما من الذكريات .. ذكريات امراة وفية كبيرة القلب ، تستعيد لحظات ناعمة كانت لها فى الماضى .. وأمسك المستمعون أنفاســهم ، فما كانت هذه بأغنية .. انها خفقات قلب ، انبعثت فى نغمات عــذبة ، انسابت لها الدموع من المآقى .. وإذا الصوت ـــ الذى ادى الأبيات الأولى فى هدوء ـــ يرتفع فى موجات سريعــة من الم راجف :

« كل ساعة لؤلؤة ، وكل لؤلؤة ادعية ،

« لتهدئة قلب يعتصره الغياب ..

« وانى لأحدث كل حبة .. حتى نهاية الحبات ،

« وهناك .. أجد صليبا مدلى ! » .

ولقد القت بالكلمات الأربع الأخيرة بقوة وحرارة فجائيتين ، أرسلتا تيارا كهربائيا فى الحضور ، فاذا التوتر الذى نجم عنه، يسرى إلى الآذان ، فى لحظة الصمت التى أعقبت ذلك .. وفى اللحظة التالية، انحدر الصوت الهادىء فى نعومة بالغة، معبرا عن جلد يصمد للأزمات ولا يرهب مواجهة أقسى الآلام ، ولكنه مع ذلك ضم عذوبة فياضة ، أكسبها احتمال الأوجاع حرارة :

« يا للذكريات التى تبارك وتحرق !

« يا للكسب العقيم ، ويا للخسارة المريرة !

« اننى أقبل كل حبة وأسعى جاهدة لاتعلم ..

« كيف أقبل الصليب .. اقبل الصليب ! »

ولا يمكن لمن لم يسمع جين تُغنى اغنية « المسبحة » أن يتصور ما بلغته وهى تغنى : « اننى اقبل كل حبة » .. كانت نبرة الحنين والوجد ، تشى بحب ينبض بالأنوثة ، والجمال ، والحب ، حتى لقد نسى الحضور شخص المغنية ، برغم ان بينهم من كانوا وثيقى المعرفة بها ، وغمرهم السحر الذى انساب من أدائها الأغنية !

والمقطوعة التى تبدأ بالعزف على وتر واحد ، تختتم بالعزف على وتر واحد . وقد وقعت جين النغم الأخير فى نعومة وخفة، ثم نهضت وغادرت البيانو لتبرح المنصة ، وإذا بعاصفة من التصفيق الحار تنطلق من المستمعين، فأجفلت جين ، وترددت، ووقفت .. ثم نظرت إلى ضيوف عمتها وكأنها ذهلت لوجودهم. ثم اشرقت ابتسامتها البطيئة المألوفة فى عينها ، وسرت منها إلى شفتيها .. ووقفت فى منتصف المنصة لحظة مرتبكة ، والخجل يكاد يغلبها، ثم والت سيرها، وإذا بها تسمع أصوات لرجال تهتف : « مرة اخرى !.. مرة اخرى ! » ، ولكنها غادرت المنصة .

***

ولكنها لقيت خلف المسرح ، وفى ظلال الستائر ، مفاجأة أخرى هزت كيانها أكثر مما فعل هتاف جماهير السامعين . فقد وقف « جارث دالمين » ـ عند أسفل الدرجات ـ ممتقع الوجه ، وعيناه تومضان كنجمين يحترقان .. وظل برهة جامدا حتى هبطت الدرجة الأخيرة ، ووقفت إلى جانبه . وعند ذلك ـ وبحركة فجائية ـ امسك بكتفيها ، وأدار وجهها نحوه قائلا : « عودى ! » .. واجتذبت لهجته المرتجفة عينى « جين » إلى عينيه ، فى ذهول أخرس .. بينما استطرد جارث مهيبا بها : « عودى حالا ، وانشدى الأغنية مرة ثانية ، كلمة فكلمة ، ونغمة فنغمة ، كما فعلت من قبل ، ولا تقفى هنا جامدة !.. عودى الآن ! عودى حالا !.. الا تشعرين بأنكِ يجب أن تعودى ؟ » .

فنظرت جين إلى عينيه اللامعتين ، وقرأت فيهما ما برر لهجة الأمر التى كان يصدرها لها . فما كان منها إلا ان صعدت الدرجات دون أن تنطق بكلمة واحدة ، وسارت ـ فى هدوء ـ على المنصة ، وجلست إلى «البيانو» .. وكان القوم لا يزالون يهتفون ، فضاعفوا من مظاهر اغتباطهم عندما ظهرت على المنصة .. اما جين فقد جلست على المقعد دون أن تعيرهم التفاتا ، وقد اجتاح كيانها شعور غريب لم تحس بمثله من قبل .. فما حدث لها ـ فى كل حياتها ـ أن أطاعت أمرا صارما ، وكانت مربيتها ومعلمتها قد اكتشفتا ـ فى طفولتها ـ الا سبيل إلى تنفيذ رغباتها لديها بالأمر ، بل كانتا تصوغان

طلباتهما فى كلمات تعنيان بانتقائها ، أو رجاءات رقيقة تحرك مشاعرها وإدراكها . وكان أى أمر غير مستساغ ، أو أى أمر مستساغ ولكنه لم يرفق بايضاح ، يقابل بالرفض البات .. وقد ظلت هذه النزعة تلازمها ، وإن خفت شدتها مع الأيام .. بل ان الدوقة نفسها اعتادت أن تقول لها : «أرجوك ياجين ..!» .

ومع ذلك ، فها هو ذا شاب ذو وجه أبيض ممتقع ، وعينين ملتهبتين ، قد ردها على عقبيها دون مجاملة ، وأمرها بأن ترقى الدرجات ، وحتم عليها أن تعيد غناء الأنشودة نغمة فنغمة ، وكلمة فكلمة .. فاقبلت تلبى أمره فى استكانة !

وعندما جلست ، صممت فجأة على الا تغنى « المسبحة » مرة أخرى . وكانت لديها قطع أخرى ابدع منها ، كما أن القوم كانوا يتوقعون قطعة جديدة ، فلماذا تخيب أملهم لكى تطيع أوامر شاب اشتد به الانفعال ؟.. وبدأت تعزف المقدمة الرائعة للحن هندل : « إلى أين تسيرين » ، ولكن شعورها بالحقيقة والانصاف تغلب عليها ، وهى تعزف .. انها لم تعد إلى المنصة لتغنى ثانية، بناء على أمر شاب مشبوب الانفعال. وإنما من أجل رجل بلغ التأثر به مبلغه ، وجاشت عواطفه بشكل لم يكن لها به عهد . كان تأثر « جارث دالمين » إلى الدرجة التى نسى عندها ما اعتاد أن يحرص عليه من أصول اللياقة ــ ولو للحظة واحدة ــ اسمى تحية يمكن أن توجه إلى فنها وإلى اغنيتها ؟.. وبينما كانت تعزف لحن « هندل » ــ وقد أبدعت فى عزفها ، فكأنها فرقة موسيقية كاملة قد تجمعت على البيانو تحت أصابعها القوية الثابتة ــ فطنت فجأة إلى

كلمة « يجب » ــ التى وجهها إليها « جارث » ــ وان لم تكد تفقه معناها ، فعقدت العزم على أن تنصاع لما كانت توحى به من ضرورة . وحالما أتمت عزف المقدمة ، صمتت لحظة بدلا من أن تشرع فى غناء الأنشودة الكبرى ، ثم تحولت تعزف افتتاحية « المسبحة » ، ونفذت ما أمرها به جارث :

« ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز، لتتمثل لى كعقد من اللآلىء ، أعدها .. واحدة فواحدة .. انها مسبحتى .. مسبحتى !

« كل ساعة لؤلؤة ، وكل لؤلؤة ادعية ، لتهدئة قلب يعتصره الغياب .. وانى لأحدث كل حبة .. حتى نهاية الحبات ، وهناك .. أجد صليبا مدلى !

« يا للذكريات التى تبارك وتحرق !.. يا للكسب العقيم ، ويا للخسارة المريرة !.. اننى أقبل كل حبة واسعى جاهدة لأتعلم : كيف أقبل الصليب .. أقبل الصليب ! » .

ولما انتهت وتركت المنصة كان جارث ما يزال جامدا بلا حراك فى أسفل الدرجات .. وكان وجهه ممتقعا كما تركته ، أما عيناه فقد زالت عنهما تلك النظرة التى توحى بالدموع المكبوحة ، والتى دفعتها إلى العودة للمنصة تحت تأثير أمره ــ دون ان تنطق بكلمة استفسار أو احتجاج ــ وأصبحتا تشعان بنور عجيب .. نور إعجاب متبتل ، مس قلب جين ــ لأنها لم تر مثيلا له من قبل ــ فابتسمت وهى تهبط الدرجات ، ومدت له يديها بحركة لا شعورية كلها صداقة ورشاقة ..



وانحنى فقبل الإبهامين بخشوع واحترام وحنان ظاهر ..

فخطا « جارث » إلى أسفل الدرجات ، واخذ يديها بين يديه ، وهى بعد فوق الدرجة العليا .. واحتواهما صمت ظل لحظة، لم ينبس أحدهما خلالها بكلمة واحدة ، ثم همس « جارث » فى صوت خافت ، يهتز انفعالا : « اواه ، يا إلهى ! » .

فقالت : « صه !.. ما أحببت قط ان أسمع اسم الله يذكر بهذه السهولة المرحة يا دال ! » .. فهتف : « يذكر بسهولة، مرحة ؟!.. ما من كلام سهل مرح ينطاع لى الليلة .. » « كل منحة كاملة هى من فوق » ، فاذا كانت الكلمات تعوزنى للحديث عن المنحة ، اتراك تعجبين إذا نطقت باسم المانح؟!» فسددت « جين » نظراتها إلى عينيه اللامعتين ، واشرقت عيناها بابتسامة طروب، وقالت: «إذن فقد أعجبت بأغنيتى؟». فأجابها جارث وقد انتشر على وجهه ستار من الحيرة : « اعجبت .. أعجبت بأغنيتك ؟.. لست أدرى أن كنت قد أعجبت بأغنيتك ! » .

وسألته جين ضاحكة : « اذن ، فلم هذا الاسراف فى الاطراء ؟ » فأجاب هامسا : لانك قد ازحت القناع ، فاذا بى انفذ إلى الأعماق ! » .. وكان ما يزال ممسكا بيديها فى يديه ، حتى إذا نطق بالكلمتين الأخيرتين ، ثنى يديها إلى اعلى برفق ، وانحنى فقبل الابهامين بخشوع واحترام وحنان ظاهر .. ثم ترك يديها ودلف جانبا ، بينما مضت جين منفردة إلى الشرفة !

الفصل السابع

لم تقض « جين » سوى بضع دقائق فى قاعة الاستقبال . فى تلك الليلة . فان الهرج والمجون اللذين اخذا يسودان المكان لم يكونا يروقان لها، كما أن الاطراء الذى انهال عليها ضايقها، فتاقت إلى هدوء حجرتها الخاصة لتفكر فيما انتهت به تلك الحفلة الموسيقية ، وما دار بينها وبين جارث خلف الستائر . ولم تكن موقنة من التأويل الذى يمكن أن يؤول إليه ذلك الموقف ، وانما شعرت بأن هناك عنصرا لا تستطيع أن تسبر غوره . كما أن موقف « جارث » الأخير معها ، ايقظ فيها مشاعر لم تفهمها . ولقد مجت ـ إلى اقصى حد ـ تلك الطريقة التى لثم بها أصابعها ، ومع ذلك فانه أودع ذلك التصرف فيضا من توقير متبتل دافق ، أوحى إليها بشعور من القداسة . . بانها قد اختيرت لتبث فى قلوب الرجال ـ دائما ـ تلك النغمة الكاملة . . نغمة النغم الذى يسمو بالروح ويكسبها نبلا . ولكنها لم تقو على التخلص من الهزة التى أرسلها فى كيانها وقع شفتيه على أطراف أصابعها . . لكانما خلف ذلك شيئا معقدا ومحيرا . . وفطنت ـ مرة أو اثنتين ـ إلى انها كانت تحملق فى أصابعها . . وفى المرة الثالثة صممت على أن تأوى إلى حجرتها ! وفى هذه الأثناء ، كانت الدوقة قد اعتلت مقعد البيانو ، والتف حولها الجميع حتى حجبوها عن الأبصار ، وهم يضحكون ويمرحون . . على أن « رونى » لم يلبث أن شق طريقه من جوف الحشد ليبحث عن شىء ما ، بينما ذهب « بيللى » مسرعا إلى المكتبة ليأتى بورقة ، فأدركت « جين »

بأن الورقة كانت لصنع ياقة كهنوتية ، واستخلصت من ذلك ان هناك زيا تنكريا يعد للدوقة .

واستدارت جين فى سأم متجهة نحو الباب . . ومع انها كانت تمشى فى هدوء غير ملحوظة ، فقد سبقها جارث إلى الباب . . ولم تدر كيف وصل إلى هناك ، لأنها ـ حين اعتزمت مغادرة القاعة ـ كانت قد لمحت رأسه اللامع بجوار رأس «ميرا انجليى » فى آخر الجمع الملتف حول الدوقة . . وفتح «جارث» الباب ، فمرقت منه جين وهى موزعة بين رغبتين . . فاما أن تقول له : « كيف تجرؤ على معاملتى بمثل هذه الطريقة غير اللائقة ؟ » . . او ان تقول له : « أخبرنى بما تطلب منى أن افعله ، لأفعله ! » . غير انها لم تقل له هذا ولا ذاك !

* * *

وتبعها جارث إلى البهو ، واشعل شمعة ، وطوح بالثقاب نحو تومى ، ثم اعطاها الشمعدان الفضى . . كان يذهب فى ابتهاجه إلى درجة السخف ، فأحست جين باستياء من ابدائه هذا الابتهاج الذى كانت هى ـ دون قصد ـ سببه ، والذى لم تكن تشاركه إياه . وشعرت بأن لا بد لها من أن تحطم هذا السكوت الودى ، فقد كان يشى بكثير من الأقوال التى لا سبيل إلى قولها ، إذ لا سبيل إلى النطق بها . فأخذت الشمعة منه فى شىء من الحدة ، وخطت إلى الدرجة الثانية من السلم ، وهى تقول له : « أسعدت مساء يا دال . . أتعلم انه قد فاتك الاشتراك فى الحفل الكهنوتى ؟ » . فتطلع [illegible] البهو ، وقد تألقت عيناه تحت ضوء الشمعة ، وقال لها : [illegible] شىء ،

ولم يفتقدنى أحد ، وما كنت هناك إلا فى انتظار صعودك ، ولن أعود .. اننى خارج إلى الحديقة لأستنشق نسيم الليل البارد المنعش، وسأقف تحت شجرة البلوط واتلو أدعياتى على حبات مسبحتى ، فما كنت أعلم قبل الليلة أن لى « مسبحة » ، ولكنى موقن الآن بأن لى .. مسبحة ! » .

وردت جين فى خشونة : « بل الأصح أن لك دستة منها » . فأجابها جارث : « لقد جانبك الصواب فى هذا الرأى ، إذ ليس لى سوى واحدة .. غير أن لها ساعات عديدة ، وسأخلو إلى نفسى فى الخارج الآن ، فأستعرض هذه الساعات ، وأحسب ما تحتويه منها كل لؤلؤة ! » . فسألته جين : « وماذا تفعل بالصليب ؟ » . فكان جوابه : « لم أصل بعد إلى هذا .. ليس لمسبحتى صليب حتى الآن ! » . وإذ ذاك ، ردت جين قائلة فى رقة : « أخشى أن اصارحك يا دال بأنه لا بد لكل مسبحة حقيقية من صليب .. كما أننى أخشى أن يشق عليك الأمر ، حين تعثر على صليبك ! » .

وبدأ « جارث » مليئا بالثقة ، لا يساوره الخوف من شىء ، إذ قال : « عندما أعثر على صليبى، فاننى آمل أن أستطيع .. » . وعند ذلك التقت جين نظرها — دون أن تعى — إلى يديها ، فلمح جارث نظرتها وابتسم ، غير أن ما طبع عليه من سمو الخلق أرسل حمرة خفيفة إلى وجنتيه . وقال متمما كلامه « .. أن أواجه الصليب ! » . واستدارت جين لتصعد فى درجات السلم ، غير أن « جارث » استوقفها بسؤال كله لهفة : « أرجو أن تنتظرى لحظة واحدة يا آنسة شامبيون ، فهناك

سؤال اريد أن أوجهه إليك .. هل القيه عليك ؟ .. هل ترينني وقحا ، متطاولا ، فضوليا ؟ » . فأجابته جين : « بلا شك .. ولكننى الليلة أرى فيك كل الآراء غير المألوفة ، ومن ثم فان زيادة أو نقصان ثلاث أو اربع صفات ، لن يؤثر فى الأمر ، فسل ما تشاء ! » .

— يا آنسة شامبيون .. هل لك مسبحة ؟

فنظرت إليه جين فى جمود ، ثم أدركت فجأة مرمى سؤاله ، فقالت : « لا ، أيها الفتى العزيز ! شكرا لله ، فلقد بقيت نقية ، بعيدة عن « الذكريات التى تبارك وتحرق » ، وليس لشىء من هذه الأشياء أن يمتزج بحياتى المنتظمة المتزنة . كما أننى لا اشتهى ذلك ! » . فقال « جارث » عن تعمد : « إذن .. كيف أمكنك أن تغنى المسبحة ، وكان كل سطر منها تجربة واقعية لك .. وكل سرور أو ألم سنى — قد يكون انقضى عليه زمن — ولكنه منك وفيك ! » .

ففسرت له جين الأمر بقولها : « لأننى كلما أنشدت أغنية عشت فيها ! .. ألم أخبرك بالدرس الذى تلقيته من « الأنشودة الهندية » ؟ .. ومن ثم فقد كانت لى مسبحة ولا شك ، عندما كنت أغنى تلك الأغنية الليلة .. أما فيما عدا ذلك ، وبالمعنى الذى تقصده ، فكلا .. ليست لى مسبحة ، والحمد لله ! » .

وصعد « جارث » درجتين ، حتى صارت عيناه أمام الشمعة ، وقال لها بصوت منخفض : « ولكن إذا شئت أن تكون لك مسبحة ، أفهكذا تهتمين بها ؟ .. أفهكذا يكون شعورك ؟ » . ففكرت جين ، ثم قالت : « أجل .. إذا شئت فسيكون

اهتمامى دائما على هذا النسق ، وسأشعر بذات الشعور الذى كان يساورنى فى تلك الدقائق القلائل ! » .

ـ إذن فقد كنت أنت بطلة الأغنية .. ولو ان الظروف التى احاطت بالبطلة لم تكن ظروفك ؟

ـ نعم ، أظن ذلك .. إذا استطعنا ان نعتبر انفسنا بمعزل عن الظروف المحيطة بنا . ولكن هذا اشبه بكرة هوائية (بالون) عديمة النفع ، ولا ريب .. سعدت مساء يا « سيد جارثى » !

ـ مهلا يا آنسة شامبيون ، اسمحى لى بكلمة اخيرة .. هل لك ان تغنى لى باكر ؟ هل تأتين إلى قاعة الموسيقى وتغنى لى كل الأغنيات الجميلة التى ارغب سماعها ؟ وهل تدعيننى أعزف لك أثناء الغناء ؟.. الا عدينى بأن تحضرى .. وعدينى بأن تغنى لى كل ما اطلبه منك ، ولن أمعن الليلة فى مضايقتك !

وظل واقفا فى مكانه ينظر إليها مترقبا وعدا منها ، وفى عينيه إعجاب طاغ ، أجفلت له « جين » ، بل وانزعجت وخيل لها فجأة بانها قد وفقت إلى الحل ، وبادرت بشرحه لنفسها وله، إذ قالت : « أواه أيها الفتى العزيز ، يا لك من فنان ! ولكم يشق علينا نحن العامة ، العاديين ، أن نفهم طباع الفنانين !.. وها انت ذا توشك على ان تدير رأسى بهيامك بما خيل إليك انه كمال صوتى ، تغلغل فى نفسك خلال أذنيك .. تماما كما تتعبد مرارا وتكرارا فى معبد الكمال الشكلى الذى ينفذ إلى نفسك خلال عينيك .. لقد بدأت أفهم كيف يتسنى لك

أن تدير رؤوس النساء عندما ترسمهن !.. على انك فى ابتهاجك تبعث الابتهاج إلى النفس ، فضلا عن أننى اريد أن آوى إلى فراشى ، لذلك أعدك بأننى سأغنى لك باكر كل ما تريد أن أغنى ، فبر بوعدك ولا تضايقنى بعد الآن ، فى هذه الليلة ، ولا تقض الليل طوله فى الحديقة ، واحترس لئلا تفزع الغزلان !.. كلا ، لست فى حاجة إلى اية مساعدة فى حمل الشمعة ، إذ اعتدت الصعود إلى حجرتى منفردة ، فشكرا لك !.. أو لا تسمع الملاحظات الشخصية التى يقولها تومى ؟ .. هيا اجر يا « سيد جارثى » ، وأحص لآلئك ، وإذا عثرت على صليب ـ مصادفة ـ فاذكر جيدا أن من الممكن حمل الصليب ـ فى كافة الاحتمالات ـ على العودة إلى شيكاغو ! » .

* * *

وكانت « جين » ما تزال تبتسم عندما آوت إلى حجرتها ووضعت الشمعدان على منضدة الزينة . وكان قصر (أوفردين) ينار بالمصابيح والشموع ، لأن الدوقة رفضت التجديد بادخال التيار الكهربائى . لذلك كان الشمع متوفرا جدا . ولما كانت جين تميل إلى الضوء القوى ، فانها اضاءت الشمعتين اللتين كانتا مثبتتين إلى جانبى مرآة منضدة الزينة ، والشمعتين اللتين كانتا فى حاملين مثبتين إلى الحائط جوار المدفأة ، والشمعتين اللتين كانتا فى شمعدانين فضيين طويلين ، على منضدة الكتابة .. ثم جلست فى مقعد مريح ، وتناولت حقيبة الكتابة فأخرجت منها مذكرتها اليومية وقلم

الحبر ، وبدأت تدون حوادث اليوم ، فكتبت : « لقد غنيت « المسبحة » فى حفلة عمتى « جينا » ، بدلا من « غيلما » التى اصيبت بالتهاب فى الحنجرة » .. ثم توقفت عن الكتابة .. كان من اصعب الأمور عليها أن تدون المشاعر التى ظلت تخالجها ، إذ أنها لم تكن تدرى كيف تصوغها . ومن ثم جلست تستعيد الموقف فى ذهنها ، قانعة بأن تترك الصفحة خالية من الكتابة !

وقبل أن تنهض ، فتغلق مفكرتها وتتأهب للنوم ، كان عليها ــ إرضاء لنفسها ــ أن تجلو الأمر كله ، لقد كانت طبيعة « جارث » الفنية هى أساس النقاش الذى دار بينهما ، غير أن مزاج أهل الفن ليس ــ للأسف ــ أساسا متينا لتقام عليه النظريات ، ولا لترفع عليه صروح مصائر الاشخاص . ومع ذلك ، فقد كان على « جين » أن تقبله كعامل رئيسى فى تكييف مجرى تفكيرها على الوجه التالى : ان هذا الانفعال الذى هز « جارث » هزا عنيفا ، وقلقل هدوءها الراسخ بدرجة عجيبة ، لم يكن يتعلق بشخصها دائما فى شىء ، اللهم إلا من ناحية صوتها ومواهبها الموسيقية .. تماما كما يجن جنون « جارث » ، إذ يرى جمالا يشتهى أن يرسمه ، فيغدو نهبا لنوبات جامحة اليأس والأمل حتى ينال مأربه ، ويعد ريشته ولوحته ليرسم الصورة .. وهكذا استيقظت فيه ملكة الشغف بالجمال . ولكن يقظتها لم تأت عن طريق البصر ــ فى هذه المرة ــ وإنما جاءت عن طريق السمع . فاذا ما روت ظمأه إلى الاغانى ، وسمحت له بالعزف ملازما لها ، فسوف

يقنع ، وإذ ذاك تزايل عينيه نظرة الاعجاب التى اقلقت هدوء نفسها . وفى الوقت ذاته ، لذ لها أن ترتقب ما يأتى به الغد ، وان راضت نفسها على ان كل هذا الاعجاب لم يكن ذا طابع شخصى بالنسبة لها .. كان من الجائز أن يندفع « جارث » فى مثل هذه الفورة ــ أو اكثر منها ــ مع « مدام بلانش » مثلا ، فقد كان لها ذات الطابع والصوت وطريقة الأداء ، فوق ما امتازت به من جمال يبهر الأبصار كما كان صوتها يفتن الآذان !.. وجدير بجارث ان يراها ويسمعها ، بعد أن بدا ، أنه يحفل كثيرا بالموسيقى »

وأخذت « جين » تدبر الفرصة التى تمكنه من ذلك ، ثم تحول تفكيرها إلى « بولين ليستر » الفتاة الأمريكية الحسناء التى اقترن اسمها باسم « جارث دالمين » طيلة هذا الموسم . وداخل « جين » اعتقاد بأن « بولين ليستر » هى أصلح زوجة لجارث دالمين ، فان حسنها كان خليقا بأن يرضيه ، كما أن إدراكها الصريح ، البعيد عن الرياء ، كان كفيلا بأن يتوازن مع مزاجه الفائر ، المنفعل .. وكانت كياستها وقابليتها للتكيف تمكنانها من الاندماج فى كل الاوساط التى كان يخالطها ، سواء فى موطنه ــ فى الشمال ــ أو بين أصدقائه العديدين ، فى الجنوب .. وإذا ما تزوج ، فانه جدير بأن يتخلى عن هذيانه عن « فلاور » و « ميرا » ، وتقبيل ايدى الناس بتلك الطريقة ... « غير اللائقة » ؟! لقد ترددت « جين » فى وصفها بهذا الوصف ، وإن كان وصفا صادقا لا شك فيه . ومع ذلك ــ ومع ان الأمر كان بينهما

وبين نفسها ــ فقد آثرت أن تستبدله بلفظ « غير العادية »
.. الطريقة غير العادية !

ثم اعتدلت فى جلستها ، وأسندت مرفقيها إلى ركبتيها ، وبسطت يديها أمامها ، وإبهاماها إلى أعلى ، وقد عاودها ذلك الشعور الذى هزها حين لثمهما « جارث » .. وفجأة انتفضت ، وصاحت قائلة : « جين شامبيون ، لا تكونى بلهاء .. انك لتظلمين ذلك الغلام عابد الجمال ــ اكثر مما تظلمين نفسك ــ إذا انت حملت اى شىء يصدر منه على محمل الجد .. ما كان إعجابه الليلة ذا طابع شخصى ، إلا بقدر ما يكون إعجابه بالعشاء الفاخر موجها إلى كبير طهاة الدوقة .. انه ــ فى اعجابه بالإنتاج ــ يعجب ضمنا بالمنتج لا هذا كل ما فى الأمر !.. فاقتنعى بنجاح فنك ، ولا تفسدى هذا النجاح بأية نزوات عاطفية سخيفة !.. هيا اغسلى يديك الخشنتين ، واندسى فى فراشك ! » .

* * *

وتحت شجرة البلوط ــ والحشائش الطرية تحت قدميه ــ وقف « جارث دالمين » والغزلان مستغرقة فى نومها حوله ، لا تحس بوجوده .. والنجوم تتلألا كأنها مصابيح معلقة فى زرقة السماء القاتمة . وراح يناجى نفسه بصوت خافت يفيض حرارة ووجدا : «لقد وجدتها .. المرأة المثالية،

تاج النساء ، وأعظم شريكة لزوج الرجل الذى يسعده الحظ بالفوز بها ، ولنفسه وجسده .. جين ! جين !.. أواه ! ما كان أشد عماى ! .. كيف عرفتها منذ سنين طويلة ، دون أن افطن إلى حقيقتها ؟!.. ها هى ذى قد ازاحت القناع ، فاستطعت أن أنفذ إلى نفسها يا للقلب الكبير النبيل ! انها لن تقوى ــ بعد الآن ــ على اسدال القناع مرة ثانية بين روحها وروحى ! .. ثم انها لم تؤت مسبحة ما ! أحمد الله لذلك .. لم يقدر لرجل آخر ان يستحوذ ــ فى الماضى او فى الحاضر ــ على الشىء الذى أشتهيه أكثر من اى شىء آخر فوق ظهر البسيطة : حب جين ، وحنان جين !.. وما معنى ذلك ؟ « اننى أعدها .. لؤلؤة ، لؤلؤة » ! .. لسوف تعدها يوما من الأيام .. ستعد لآلئها ولآلئى !.. وليجنبنا الله الصليب ، فهل من المحتم أن يكون لكل مسبحة حقيقية صليب ؟!.. إذن فليجعل الله من اشتراكنا فى حمل الصليب رباطا يشد كلا منا إلى الآخر !.. اواه ، يا ليديها الحبيبتين . اواه ، يا لعينيها الصريحتين الصادقتين !.. جين ! جين !.. حقا ، لقد كانت جين هى بغيتى دائما . برغم أننى لم افطن إلى ذلك .. لقد كنت مجنونا اعمى !.. الذى أوقن منه هو أننى الآن مبصر ، بعد أن كنت أعمى فى الماضى .. ولسوف تظل جين معبودتى منذ الليلة ، وعلى مر الزمن ، وإلى الأبد .. إن شاء الله ! » .

وكان نسيم الليل يعبث بشعره الأسود الغزير ، وشع من عينيه بريق خاطف وهو يتطلع إلى السماء تحت أشعة النجوم الساطعة .. أما جين فكانت فى هذه اللحظة بين النوم واليقظة . وفجأة فطنت إلى نقرات على النافذة ، فغمغمت قائلة : « هل من شىء تطلبه يا جارث .. سلنى ما تريد أفعله ! » .. ثم فطنت فجأة إلى ما قالت ، فجلست فى ظلمة الليل ، وراحت توبخ نفسها فى ثورة وصياح : « أواه ، أيتها الحمارة العجوز ! أتدعين أنك عاقلة ورصينة ، فى حين أن قليلا من التملق ، من غلام شغل قلبك به ، قد عبث برأسك تماما .. ثوبى إلى رشدك فى الحال ، وإلا فابرحى (أوفردين) فى أول قطار فى الصباح ! » .

الفصل الثامن

كانت الأيام التى تلت ذلك أياما ذهبية لجين ، إذ لم يحدث خلالها ما يفسد استمتاعها بالتجربة الجديدة غاية الجدة ، والعذبة أعجب عذوبة !

كان مسلك جارث – فى الصباح التالى – خلوا من كل انفعال ، مجردا من تلك المظاهر التى أربكت « جين » وحيرتها فى الليلة السابقة .. فقد أصبح هادئا أتم هدوء ، ولاح لجين أكبر سنا مما اعتادت أن تراه منذ تعارفا . فلم تنتابه نزوات سن السابعة إلا لماما ، حتى مع الدوقة !.. فاذا سأله أحدهم مازحا عما إذا كان قد بدأ المران والتأهب لحياة زوجية مرتقبة بعد وقت قصير ، أجاب : « نعم .. هو كذلك ! » .

وسأله رونالد : «هل سنرى العروس فى حفلة شنستون ؟»

– إذ كان كثير من ضيوف الدوقة مدعوين إلى حفلة لادى أنجلبى فى عطلة الأسبوع التالى – فأجابه جارث : « نعم . ستكون هناك » . وهنا صاح بيللى بلهجة تمثيلية : « يا إلهى ! .. عونك أيها القديس بندكت ، أفنأخذ هذا القول على محمل الجد ؟ » وكانت « جين » منصرفة إلى تلاوة صحيفة الصباح ، على مقربة من « جارث » .. الذى بقى واقفا بجوارها – فرفعت وجهها عن الصحيفة ، ونظرت إليه قائلة فى لهجة لم يسمعها سواه : « أواه يا دال ! انتى

مسرورة جدا .. هل استقر فكرك فى الليلة الماضية ؟ » .
فأجابها جارث وهو متجه إليها ، حتى لا يسمع الحديث أحد سواهما : « نعم ، فى الليلة الماضية » .

ـ وهل للحديث الذى جرى بيننا ـ بعد ظهر أمس ـ علاقة بذلك ؟

ـ كلا ، ليس لأى شىء مطلقا علاقة به .

ـ أكانت هى .. المسبحة ؟

فصمت جارث قليلا ثم أجابها دون أن ينظر إليها : « انه الوحى الذى كشفته المسبحة .. أجل ! » .

وبدا لجين أن انفعاله المتأجج قد وضح لها الآن ، وأن لها أن تستسلم إلى نشوة هذه المرحلة الجديدة من الصداقة ، فقد كانت ساعات الموسيقى ـ التى قضياها معا ـ متعة حقيقية .. وتبين لها أن لجارث مواهب موسيقية تفوق كل ما كانت تتصور ، فلقد اعجبت بلمساته الصحيحة القوية للبيانو .. اللمسات التى كان فيها رجولة لم يكن يشوبها خطأ ، ولم يكن يعتمد فيها على القدم لتبديل الأنغام .. ورأت أن عزفه كان يفضل عزفها من حيث الدقة والرقة .. أما ما كان لصوتها عليه من أثر فى تلك السويعات الرائعة ، فقد طواه « جارث » فى نفسه ، ولم يفض لأحد بكلمة عن ذلك ، إذ كان قد ردع مشاعره ، واغلق فمه ، بعد تلك الليلة البديعة ، وقطع على نفسه عهدا ـ وهو تحت شجرة البلوط ، فى تلك الليلة ـ بأن يصبر أسبوعا ، قبل أن يتكلم . وقد عمل على تنفيذ العهد !

أما التجربة التى انطوت على طرافة ولذة عجيبة لجين ، فتمثلت فى شعورها بأنها صاحبة المكانة الأولى دون منازع ، لدى شخص ما .. وقد عمل جارث على ان يشعرها بذلك . ولم يبدر منه ما يسترعى انتباه اى احد ، ولكنها ادركت عن يقين أنها ما اقبلت مرة على حجرة ، إلا أحس « جارث » لتوه بوجودها .. وما بارحت حجرة إلا افتقدها !.. وكان هذا الاهتمام منه متكتما ، لبقا ، فلم يقدر لأحد أن يفطن إليه ، ومع ذلك فقد ظل تفانى « جارث » واخلاصه يحيطان بجين طيلة الوقت !.. وللمرة الأولى فى حياتها ، تملك قلبها شعور عارم بأنها قد أصبحت الأولى فى بال شخص آخر ، فأوحى إليها هذا ـ بطريقة غريبة ـ بأن هذا الشخص الآخر ملك لها .. وأصبحت تسر وتزهو بكل ما كان يقول ويفعل ، وبكل ما كان عليه !.. وفى السويعات التى قضياها معا فى غرفة الموسيقى ، تعلمت كيف تعرفه ، وكيف تفهم حبه الجياش للجمال وللطبيعة ، كما لم تفهمه من قبل !

* * *

تلك كانت أياما ذهبية ، وكان الفراق ساعة النوم حلوا . لأنه كان يضيف شغفا شديدا ونكهة لذيذة إلى بهجة اللقاء فى الصباح التالى .. كل ذلك دون أن تساور ذهن جين ـ طيلة تلك الأيام الذهبية ـ أية فكرة عن الحب فى معناه المألوف . وما كان جهلها بهذه الناحية منبعثا عن عدم خبرة بمثل هذه التجربة ، بقدر ما كان منبعثا عن أنها كانت تجتاز تجربة أوسع نطاقا .. تجربة الشعور بشىء كان ـ فى حقيقته ـ فريد

للواقع ، وهى تجربة عاقتها عن أن تتعرف على الحب ذاته ، فى الوقت الذى كان الحب يقترب فيه منها ، فى أسمى مظاهره !

« ولم تكن « جين » قد اجتازت الاثنى عشر موسما الأخيرة ، دون ان تتلقى حوالى اثنى عشر عرضا للزواج منها .. فقد كانت وريثة ثروة طائلة ، وكانت قد تحررت من الاهل والأوصياء .. وكانت من نبت طيب ، وسلالة عريقة .. وكانت ثمة بضع خطبات من النوع الذى لا محيص عنه : خطبات من رجال فى أوسط العمر ، عدا الصلع والشيب على رؤوسهم ، وسئموا حياة العربدة فى المدينة ، وقد أوتوا دورا قديمة جميلة ينقصها — لسوء حظهم — من يتولين شئونها والعناية بها .. هؤلاء تقدموا يطلبون يد النبيلة «جين شامبيون» بأساليب رجال الأعمال ، فكان رد النبيلة « جين » عليهم أن كانت ترمقهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم — من كل ناحية ومن كل جانب — إلى أن يشعروا بتفاهتهم .. ثم كانت ترفضهم فى هدوء ، بذات أسلوبهم ، أسلوب رجال الأعمال .. وكان بين من تقدموا طالبين يدها أثنان أو ثلاثة من الفتيان الظرفاء ، كان لها فضل فى انقاذهم من الفساد ، وانتشالهم بعد أن كادوا يتمرغون فى حماة اليأس والبوار التام .. هؤلاء الفتية فكروا — ونزعة عرفان الجميل تدفعهم — فى أن من الخير أن يعمل أحدهم على ضمها إليه ، لترعاه وتحافظ عليه فى استقامة واعتدال ، ولتهديه الطريق القويم ، وتبصره بما عليه أن يفعل ، وما ينبغى الا يفعل ، و .. أجل .. لتسدد عنه ديونه ، وتكون له نوعا من الأم الحنون التى

لا تسف فى التقريع والتوبيخ .. ولهذا ، كان الواحد منهم يمسك بيدها الرحيمة ، ويضرع إليها أن تقبله زوجا لها .. فكانت جين تجيبه بالصفع ، لمجرد أن جرؤ على لمسها ، وتنصحه بالاقلاع عن الهوس !

وكان آخر من عرض عليها الزواج — أخيرا — قس كنيسة القرية المجاورة لأوفردين .. كان أعزب ، وقد دأب على تعذيبها بأحاديث طويلة مملة . فلما حضر — معتزما أن يتقدم بالعرض المنشود — كانت جين تجلس إلى مائدة الكتابة فى حجرة الاستقبال فى (أوفردين) ، فلم تر أن المناسبة تدعو إلى مبارحة هذا المكان . حتى إذا بدا للقس أن يبدأ حديثه ، استطاعت أن تتشاغل بالكتابة أو مراجعة بعض الأوراق .. وتهالك القس فى مقعد مريح بجوار المكتب ، ووضع إحدى ساقيه المعوجتين فوق الأخرى ، وضم راحتيه ملصقا أطراف أصابعه بعضها ببعض ، وشرع يرتل الجمل الافتتاحية فى العرض .. وبدأ أن « جين » — فى انهماكها فى شحذ اقلام الرصاص ، وفحص سنون أقلام الحبر — لم تفقه ما كان يقول .. إذ أنه حين ترنم بهذه العبارات : « ليس من اجل اغراض شخصية فحسب — يا عزيزتى الآنسة شامبيون — وإنما من اجل خير أبروشيتى ، ولصالح رعاياها ، وللرقى بالجهد الذى تبذله الكنيسة .. » . عندما قال هذا ، اخرجت جين من أحد ادراج المكتب دفتر الأذون المصرفية ، قائلة : « من دواعى سرورى أن أكتب يا سيدى بيلبيرى .. هل تجمع المال من أجل جرن المعبودية ، أو المنبر ، أو كتب جديدة للترانيم ، أو ماذا؟» .

فأجابها القس بصوت مرتعش : « لقد أسأت فهم ما أقصد يا سيدتى العزيزة .. ان ما ارغب فيه هو أن أقودك إلى المذبح ! » .. فقالت له جين : « يا عزيزى السيد بيلبرى ، لا حاجة مطلقا لهذا ، فان مجرد حاجتك إلى كساء جديد للمذبح، كاف لأن يقبل كافة المترددين على كنيستك على الاكتتاب .. وانى لعلى استعداد لأن أعطيك ـــ بكل سرور ـــ اذنا بعشرة جنيهات لهذا الغرض ، فكثيرا ما ذهبت للصلاة فى كنيستك ، لأننى استمتع كثيرا بالسير وحيدة فى هدوء عبو الغابات .. اما الآن ، فأنا أعلم أنك تود مقابلة عمتى قبل مبارحتك الدار .. انها فى « بيت الدواجن » تطعم طيورها الغريبة ، فاذا خرجت عبر هذا الباب ، وسرت إلى نهاية الشرفة ـــ من الجهة اليسرى ـــ فستصل إلى بيت الدواجن حيث تجد الدوقة .. وأقترح بأن تتجنب ذكر هذا الحديث لها ، فانها لا توافق أبدا على البذخ فى كسوة المذبح ، وقد يلقى كلانا منها تقريعا ، وقد اصرت على ان يصرف مبلغ التبرعات فى مشترى أحذية لأطفال المدرسة . كلا ارجوك .. لا تشكرنى ، فأنا سعيدة لأن الفرصة قد أتاحت لى المساهمة فى أعمالك المجيدة التى تقوم بها فى هذه الانحاء ! » .

ولقد فكرت جين ـــ مرة أو اثنتين ـــ فى مصير الأذن المصرفى، وهل تقاضى القس قيمته .. وودت لو أنه أعاده لها بالبريد ممزقا إلى قطعتين ، ومعه خطاب تفيض سطوره غضبا واستنكارا فلما أعاده المصرف إليها بعد دفع قيمته ، وقد حمل توقيع « ب . بيلبرى » ـــ بخط أنيق كخط أبناء المدارس ،

لا تشوبه بادرة تنم عن اشمئزاز ـــ القت به فى سلة المهملات، مشفوعا بابتسامة مرة !

كانت تلك هى عروض الزواج التى قدمت إلى جين . فما تقدم إليها شخص للزواج عن حب حقيقى ، ولا شعرت مرة بأنها تحتل الصدارة فى قلب اى شخص وحياته . أما وقد بدا الحب الذى يرقى إلى درجة العبادة ، ينساب إليها فى حنان من جماع كيان « جارث » ، ليحوطها ويلفها من كل جانب ، إذا بها لا تعرف سبب سعادتها ولا كنه وفائه . وإنما اعتبرت الشاب مدلها فى هوى امرأة أخرى ، ما كانت تحلم بأن تناهزها شبابا أو جمالا . وحسبت ان الألفة الوثيقة ـــ بينهما وبين « جارث » ـــ صداقة قد تطورت حتى بلغت حدا أجمل وأبدع من كل ما كانت تتصور !

هكذا سارت الأمور حتى جاء يوم الثلاثاء ، وتفرقت جماعة (أوفردين) ، فذهبت جين إلى لندن لقضاء يومين مع آل براند ، ورحل جارث إلى (شنستون) ، حيث استدعى على عجل ليلقى الآنسة ليستر وعمتها السيدة باركر بانجس .. وكان مقررا أن تنضم إليهم جين فى يوم الجمعة ، لقضاء عطلة الأسبوع معهم .



الفصل التاسع

اتخذت جين مكانها فى القطار ، حتى إذا تحرك من محطة لندن اضطجعت فى ركن من مقعدها ، وتنهدت فى ارتياح فقد لاحت لها الأيام التى قضتها فى المدينة مملة وطويلة . واخذت جين تستعرض تلك الأيام مفكرة ، باحثة عن علة ذلك الملل .. كانت تلك الأيام ملأى بالأعمال والمواعيد ، كما أن وجودها فى المدينة كان — فى حد ذاته — متعة لها ، عادة .. فما الذى جعلها تحس بالتململ ، وعدم الرضى ، والوحشة ؟! وبحكم العادة ، كانتقد وقفت لدى بائع الكتب والمجلات — فى المحطة — تنتقى مختاراتها الأدبية المألوفة .. وقد اعتاد أصدقاؤها أن يتندروا فى أحاديثهم ، بأن جين لا تستطيع السفر — فى اقصر رحلة — دون ست من الصحف والمجلات ، على الأقل .. ولكن ، ها هى ذى الصحف والمجلات ملقاة أمامها — فى هذه المرة — على المقعد المقابل لها ، دون أن تحفل بها . فقد راحت تستعرض أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وتعجب من أنها لم تكن سوى حواجز دون يوم الجمعة !.. ولكن ، ما ان اقبل يوم الجمعة أخيرا ، وما أن استقلت القطار إلى (شنستون) ، حتى اجتاحتها موجة من البهجة والسعادة ، فما سر تلك الأيام الثلاثة ؟.. لقد كانت « فلاور » — ليدى براند — ساحرة ، وكان « ديريك » — زوجها — ودودا انيسا ، كالعهد به .. وكان الصغير « ديكى » باعثا للابتهاج ، والرضيع « بلوسوم » جميلا ، لا يشبهه فى جماله أحد .. فماذا كان ينقصها ؟ » .

وكانما اهتدت إلى الرد ، فابتسمت وقالت لنفسها : « اننى اعرف السبب ، فكيف لم أفطن إليه قبل الآن ؟.. لقد أسرفت فى الموسيقى فى الأيام الأخيرة بأوفردين ، ويا لهامن موسيقى !.. لقد شعرت بالموسيقى تملأ حياتها ، فكان حرمانى منها سببا فى ذلك الشعور المبهم بالوحدة !.. ولا ريب فى أننا سنحظى بالكثير منها لدى « ميرا » ، وسيكون « دال » هناك ليهلل طالبا الموسيقى إذا فات « ميرا » ان تقترحها ! » . وبابتسامة ملؤها السرور والأمل ، تناولت صحيفة « الاسبكتاتور » ، وانهمكت فى تلاوة مقال عن مشكلة جنوب إفريقيا .

وعند بلوغها المحطة ، كانت « ميرا » فى انتظارها ، تقود عربة ذات مقعدين يجرها مهران صغيران . وكانت ثمة عربة أخرى — صغيرة — لنقل الوصيفة والمتاع .. ولم تضيع جين وقتا ، فاستقلت مع « ميرا » العربة الأولى ، التى انطلقت بهما مخترقة القرية ودروبها بسرعة فائقة .. وكانت الحقول والغابات مجللة بخضرة يانعة ، وقد استلقت تحت شمس الظهيرة ، ووشيت الأسيجة بالورد البرى ، بينما كانت الشحنات الأخيرة من الدريس تنقل إلى المخازن . وكان تغريد العصافير يبعث فى النفس فيضا من المرح والابتهاج ، كما غمر نفس « جين » شعور طاغ بعذوبة منظر الحقول وعطرها الزكى ، مما لم تذكر له مثيلا فى النضارة والبهاء . فراحت تعب أنفاسا طويلة من الهواء ، وهى تصيح فى مرح : « ما أبدع أن أكون هنا ! » .

فأجابتها « ليدى انجلبى » وهى تهز السـوط فى يـدها ، وتومىء بالشكر ردا على تحيات الاحترام التى كانت ترفع إليها من الحقل : « أجل يا عـزيزتى .. ان من دواعى سرورنا أن تكونى بيننا . فأنا أشعر دائما بأنك كالنغم المنخفض فى الموسيقى .. شىء متماسك ، باعث على الرضى والانشراح فى أوقـات الضيق .. انى اكره الأزمات والضيق ، فهى مرهقة . وكثيرا ما أقول : لم لا تسير الأمور دائما على وتيرة واحدة .. انهـا خليقة بأن تسير على ما كانت ؛ وعلى ما سوف تكون عليه ، إذا لم يتدخل الناس فيها . على اننى أوقن من أنه لا سبيل إلى أن يتطور اى شىء نحو السوء ، عندما تكونين أنت على مقربة منه ! » .. وعند ذلك لسعت « ميرا » المهـر الأمامى بسوطها ـ وكان قد تلكأ طمعا فى قطعة من السكر ـ فطارت بهما المركبة بين الأسوار المرتفعة ، محتكة بالأغصـان وزهور العسل والنباتات المتسلقة ، وقـد مدت جين يدهـا وقطفت زهرة منها قائلة : « هذه هى بهجة المسافر ! » .. وافتـر ثغرها عن ابتسامة هادئة تطفح بهجة واستبشارا ، ثم غرست الزهرة فى عروة سترتها .

واستأنفت الليدى انجلبى الحديث بقولها : « وبعد .. فان ثلة الأصدقاء سادرة فى مرحها ، وجميعهم على أحسن حال .. وبهذه المناسبة ، يخيل إلى يا جين أن هناك شيئا غـير عادى قد أصاب « دال » ، وكم يسـعدنى لو أن الأمر انجلى تحت سقف دارى ، فان الفتاة الأمريكية ساحرة ، جذابة .. انها رائعة . ببساطة ! ولقد أقلع « دال » عن الهزل والمجون

ـ وليس معنى هذا أننى كنت أعتقـد فيه ذلك ، بل انه كان اعتقادك أنت ـ فهو الآن دائم السكون ، ويبدو كثير التفكير ، ولو لم نكن على علم تام بطبيعته لقلنـا انه أصيب بتبلد ! .. انهما يطوفان معا بكل مكان على أليق وجه ، وكم تحايلت على العمة لتبدى لى رأيها ، فشـد ما اخشى أن ترفض « دال » خطيبا لابنة أخيها ، وهو كما تعلمين سريع الغضب !.. وقد وعدت « بيللى » بأن أعطيه اى شىء ـ ولو نصف مملكتى ـ إذا ثابر على الجلوس عند قدمى السيدة باركر بانجس ، لينصت إلى حكمتها ، وليجيب عن أسئلتها ، حتى يبعدها عن دال . ويخيل لى بأن بيللى متحمس فى أداء مهمته ، فهو بادى التفانى فى اهتمامه بالسيدة باركر بانجس ، حتى بدأت أوجس خيفة من أن يسألنى قبلة ، جزاء خدماته . وفى هـذه الحال سأسلمه لك لمعاقبته ، لأن لك مقدرة على معاملة هؤلاء الأولاد بمهارة ممتازة .. أعتقد أن دال سيتقدم الليلة بطلب يد بولين ليستر ، ويدهشنى انه لم يفعل ذلك ليلة أمس ، فقـد كان القمر متلألئا ، وكانا معا عند البحيرة .. فماذا يريد « دال » اكثر من ذلك : البحيرة ، وضوء القمر ، والفتاة الحسناء ؟..
وقد اصطحب بيللى السيدة باركر بانجس فى قارب لا يتسـع لغير اثنين ، وكاد يغضبها ، إذ طفق يضحك لما راحت تقـوله له ، من جراء اضطرارها للجلوس فى قاع القارب .. ولقـد تحايل بمجدافيه حتى وصل بها إلى الناحيـة الأخـرى من البحيرة ، بعيدا عن المكان الذى كان به « دال » وابنة أخيها ، وهذا كل ما كان مطلوبا منه !.. لقد سألتنى السيدة باركر

بانجس ــ بعد ذلك ــ عما إذا كان بيللى أرملا .. فماذا ترينها تقصد من ذلك ؟ » .

فأجابتها جين : « ليست لدى اتفه فكرة ، غير أن سرورى لا يوصف لما تذكرين عن دال والآنسة ليستر ، إذ أنها الفتاة المثالية له . ولسوف يسهل عليها ــ بعد قليل من الوقت ــ أن تكيف نفسها وفقا لحاجاته وأهوائه . فضلا عن انه لا غنى لدال عن الجمال الخالص من كل عيب ، وهذا ما يجده فيها » . فقالت ميرا : « هو ذلك حقا .. كم كنت اتمنى لو انك كنت معنا ليلة الأمس ، ورأيت بولين فى ثوبها الحريرى الأبيض ، والورود البرية منثورة فى شعر راسها .. لا يمكننى أن اتصور كيف أن دال لم يهرف جنونا بهذا الحسن الباهر . لعلها بادرة حسنة ، توحى بأنه قد يحزم رايه سريعا . وأحسبه الآن مقدما على أن يعقد العزم ! » . فأجابتها جين : « كلا ، بل أعتقد انه قد عقد العزم منذ كنا فى (اوفردين) ، وأن الأمر قد استحوذ الآن على كل مشاعره ، فهو يسير نحو اتمام الزواج فى عزم وتصميم . والآن خبرينى عمن لديك فى شنستون ! » .

وأخذت ليدى أنجلبى تسرد لها بيانا طويلا بأسماء من قدموا ، ونزلوا ضيوفا على قصر (شنتستون) . وكانت جين تعرفهم جميعا ، فقالت : « بديع ، لكم أنا سعيدة بالحضور .. لقد كان الجو حارا فى لندن إلى درجة تزهق الروح ، وما خطر لى أننى قد القى يوما طقسا بهذه الحرارة .. لكم اشعر بأننى بعيدة عن الدين . آه ، ها هى ذى الكنيسة الصغيرة الجميلة !

ولكم أود سماع الأرغن الجديد !.. سرنى جدا أن القس اللطيف قد تذكرنى عند جمعه التبرعات ، فأتاح لى فرصة المساهمة .. خبرينى ، هل الأرغن مزدوج المفاتيح أو ثلاثيها ؟ » .. فأجابتها ليدى أنجلبى : « بل ان له ستة صفوف من المفاتيح ويمكنك تحريكها إلى أعلى أو إلى أسفل قدميك .. على اننى رأيت ــ حين عزفت فى قداس الأطفال يوم الأحد ــ ان اتجنب تحريك شىء منها ، فمن الصعب على العازف معرفة ما قد يحدث إذا هو لمس تلك القطع الآلية ! » .

وقالت « جين » مصححة التعبير : « تقصدين ركازات الأقدام » .. فأجابتها ميرا فى هدوء : « اظن هذا ما اقصد .. تلك الأشياء الموجودة فى أسفل وكأنها مساند للقدمين .. انها تحدث أصواتا مزعجة ، إذا ما صدمت القدم إحداها ! » . فابتسمت جين وهى تتصور حال « جارث » ، لو انه سمع هذا الحديث .. لا بد وانه سيلقى راسه إلى الخلف ، صارخا ، إذا هى أنبأته بهذا الحديث . فقد كانت احاديث ليدى انجلبى الموسيقية ، مبعث تفكهة لجميع أصدقائها !

***

ومرتا بعربتهما أمام كنيسة القرية ، التى كانت مقامة بين المروج الخضراء ، تكسو جدرانها أغصان اللبلاب فتضفى عليها نضارة وبهاء .. وبعد نصف دقيقة ، فتحت أمامهما أبواب حديقة قصر آل أنجلبى . ولمحت ميرا النظرة التى ألقتها « جين » على أعمدة الأبواب الحديثة الطلاء ، فضحكت وقالت : « خطوة مطمئنة خير من ميل ! » . ووجهت المركبة

ـ خلال الباب الكبير ـ إلى الطريق الطويل ، تحت اشجار الدردار الباسقة . ثم أردفت : « هــذا ما قالته أمى يوم أن ثارت على بسبب ما دعته « الجنون فى القيادة » .. بهــذه المناسبة يا جين ، أريد ان أبلغك ان أمى العزيزة قد تبدلت : فصارت مفرطة اللطف معى ، ويخيــل إلى انهــا قد تبــدأ تميل إلى وتتعلق بى ، عندما أبلغ السبعين من عمرى وتكون هى فى الثامنة والتسعين .. ها نحن قد وصلنا ! أرجو ان نهتمى بالخادم « لوسون » ! لقد التحق بخدمتنا أخيرا ، وهــو على جانب وافر من الظــرف .. يجيــد الغنــاء ، ويعــزف على « الكونسرتينا » ، ويلقى دروسا فى مدرسة الأحد ، ويتحدث ببلاغة وافرة فى حفلات مقاومة الخمور .. وهو مغرم بقص الحشائش ، وقد ابلغتنى خادمتى انه يتعلم الفرنسية معها .. ان الشىء الوحيد الذى يبدو عاجزا عنه ، هو أن يكون رئيسا للخدم ، وهو عجز يؤسف له ، لاننى أميل إليه جدا ، ولا أود ان يترك خدمتنا .. ان « مايكل » يقول ان لى عادة جد سيئة، هى الاعجاب بالناس ، وتشجيعهم على عمل الأشــياء التى يجيدونها ويميلون إليها ، بدلا من أدائهم ما هم مكلفون به . وأرى انه على حق فى ذلك ، غــير اننى احب دائما أن أرى جميــع أتباعى سعداء » .

وهبطنا من المركبة ، فسارت « ميرا » إلى البهو متهادية فى تراخ وتباطؤ لا يتمشيان مع الطــريقة التى كانت تقود بهــا جواديها الصغيرين .. ونظرت جين باهتمام إلى الخادم الذى سارع إلى استقبالهما فى صمت ، فلم تستشــف فيه مظهــر

رئيس للخدم ، كما أنها لم تستطع أن تتصور انه يعزف على « الكونسرتينا » ، أو يخطب فى اجتماع لمناهضة الخمور ، وان تصرف فى تعاظم واعتــداد بالنفس . وشرحت لها « ميرا » الأمر ، وهى تتقدمها إلى السلم : « هذا ليس لوسون .. انه لقد سهى على ان أذكر انه قد كلف بالذهاب إلى القس ــ بعد ظهر اليوم ــ بشأن قداس للترانيم يريدون اقامته .. أمــا هذا ، فاسمه « توم » ، ونحن ندعوه هنا « جيفسون » .. كان يعمل ــ من قبل ــ سائسا عند « مايكل » ، ولكنه عقد خطبته على إحدى خادماتنا ، وتبينت فيه ميلا شديدا للبقــاء فى خدمتنا ، فاتفقت على أن يدرس على « لوسون » أصــول العمل ، وبدأ يطلق شعر سالفيه على صدغيه . لسوف أروى ذلك لمايكل لدى عودته من الترويح .. هنا الطريق يا جين ! لقد أعددنا لك حجرة « المانوليا » ، لاننى أعرف أن شغفك بمنظر البحيرة !.. لقد نســيت أن أذكر لك انه ثمة مباراة دورية فى التنس تجرى الآن ، ولا بد لى من أن أســارع إلى الملعب .. انهم الآن يقدمون الشاى تحت أشجار الجوز ، ودال وورونى يلعبان الدور النهائى لفردى الرجال ، وسيكون لعبهما ممتعا .. ان الموعد المحدد لهما هو الساعة الرابعة والنصف ، فلا تنتظرينى لإبدال ملابســك ، لأن خادمتك وامتعتك لم تصل بعد ! » .

فأجابتها جين : « شكرا ، اننى أسافر عادة بملابس الريف . وقد فعلت ذلك اليوم ، كما ترين .. ولن أفعــل أكثر من أن أزيل عنى غبار السفر ، ثم الحق بك سريعا » .

وبعد عشر دقائق ، أخذت جين طريقها ـ بين الأشجار ـ إلى ملعب التنس ، مهتدية بأصوات الهتاف والضحك .. وكان كل ضيوف ليدى أنجلبى مجتمعين هناك فى جماعات منسجمة تحت أشجار الجوز البيضاء والقرمزية .. وفى آخر الملعب ، كان الحماس متقدا حول اللاعبين . فلما اقتربت جين منهم ، وقع نظرها على « جارث » بقامته المشوقة ، مرتديا بنطلونا من الصوف الأبيض وقميصا بنفسجيا ، وأمامه الشاب رونى بجسمه الضخم القوى ، وقد راح يلعب واثقا من قوة تسديده الكرات وصده إياها ، فى مقابل ما امتاز به جارث من نظر حاد ، وسرعة فائقة فى تداول المضرب بين يديه !.. وكانت مباراة بديعة ، وقد كسب جارث الجولة الأولى ، بست أصابات فى مقابل أربع . وقد تحول ميزان اللعب ـ فى الجولة الثانية ـ إلى خمس إصابات لصالح رونى وأربع فى صالح «جارث» ، وحان دور هذا ليكون البادىء باللعب ، فكان واثقا من أنه سيكسب الجولة ، فيصبحان متعادلين .

وهنا سارت جين بجوار صف المقاعد ، حتى وجدت مقعدا بجوار « ميرا » ، فحياها المتفرجون باغتباط ، ولكن فى عجلة ، لانصرافهم إلى تتبع اللعب . وفجأة دوت صيحات عالية ، إذ أن « جارث » خسر نقطتين .. وكانت جين قد جلست فى مقعدها وعيناها متجهتان إلى الملعب ، فى اللحظة التى ارتفعت فيها صرخات الدهشة من النظارة ، فقد أصابت إحدى كرات « جارث » الشبكة ، وانطلقت أخرى خارج الملعب .. وانتهت الجولة لصالح رونى !. فصاح بيللى : « لقد تعادلا ..

إننى لم أر « دال » يلعب بهذا الشكل من قبل ، وسيتيح لنا هذا أن نشاهد جولة أخرى .. انهما صنوان من قوة واحدة فدال كالبرق ورونى كالرعد ! » .

وفى الجولة التالية تبادل اللاعبان مكانيهما ، وظهر وجه « دال » ممتقعا ـ برغم بشرته الملوحة ـ وقد لاح غاضبا من نفسه لفشله فى تسديد الكرات ، فى تلك اللحظات الحرجة من الجولة السابقة .. وما كان غضبه من نفسه لخسارة الجولة ، قدر غضبه عليها لما اعتقده من أن المشاهدين قد لاحظوا النظرة التى القاها من طرف عينيه إلى شخص طويل يرتدى ثيابا رمادية ، سار فى هدوء بطول صف المقاعد ، مما جعل الدنيا تميد أمامه وتضطرب ، واختلطت فى نظره السماء والأرض ، وامتزجت الشبكة بالخطوط .. والواقع أن أحدا لم يفطن إلى هذه الظاهرة التى جمعت ـ فى لحظة واحدة ـ بين خسارة « جارث » ووصول « جين » ، سوى تلك الفتاة الحسناء التى كانت جالسة أمام الشبكة ، والتى بادلها « جارث » ابتسامة ، وهمس لها بكلمة ، عندما سار فى طريقه ليتبادل المركز مع رونى !

وكانت الجولة الأخيرة أكثر الجولات الثلاث إثارة للمتفرجين . فقد سجل اللاعبان تسع إصابات اكتسباها بجهد شاق ، خمسا لجارث ، وأربعا لرونى .. ثم آن لرونى أن يكون البادىء بالرماية ، فراح يناضل لاحراز التعادل . وتكررت ضيحات السخط من انصار كل منهما كلما افلتت منه فرصة ، حتى كسب « دال » ضربة جزاء ، إذ وجه « رونى » رمية رائعة ،

صدها « دال » ، فصاح أنصار الآخر : « يا للشيطان ! » . وهنا قالت السيدة باركر بانجس لبيللى ، الذى كان جالسا على الحشيش ، عند قدميها « الا تشعر بدوار من هذا اللعب ؟ أرى أن الصراع بينهما قد طال كثيرا ، وكلاهما فى حاجة إلى قدح من الشاى .. كان الأحرى بالسيد دالمين أن يترك تلك الكرة تمر دون أن يتعرض لها » . فقال بيللى : « أليس كذلك ؟ .. ولكن « دال » ليس رحيما ، بطبيعته فى اللعب ولو كنت العب مكانه ضد رونى ، لأفلتت كراته الصاروخية من مضربى عدة مرات ! » . فقالت السيدة باركر بانجس : اننى واثقة من ذلك » ..

وعند ذلك مالت جين نحو بيللى ــ بناء على إشارة من ميرا ــ وقرصته !

وتبودلت الكرة مرات بين اللاعبين واشتدت الهتافات : « يا للشيطان ! » ، فاعترضت السيدة باركر بانجس قائلة : « لا يليق بهم أن يرددوا هذه الكلمات ، مهما ينتابهم من حماسة جنونية ! » . فضم بيللى ركبتيه بيديه مبتهجا ، ونظر اليها وعلى وجهه سمات البراءة الملائكية ، ثم غمغم قائلا : « أليس هذا موجبا للأسى ؟ .. اننى لا أنطق بكلمات نابية عندما العب ، بل انادى دائما بالتعادل ، فذلك على ما أعتقد أرق وأظرف ! » . فقرصته جين مرة اخرى ، ولكن نظرات بيللى إلى السيدة باركر بانجس لم تتحول عنها ، فقالت له ميرا بشدة : « بيللى . اذهب إلى البهو ، وأحضر لى مظلة الشمس الحمراء .. ولو اننى أعلم أن النهاية ستفوتك ! » .. قالت ذلك فى همسة

صارمة ، عندما مال نحو مقعدها ، ثم اردفت قائلة : « ولكنك تستحق كل ما يلحق بك ! » .

ولما عاد بيللى لاهثا ــ بعد ثلاث دقائق ــ ووضع المظلة على ركبتى ليدى انجلبى ، همس فى أذنها قائلا : « لقد قررت ما سأطلبه منك ياصاحبة الجلالة .. لقد وعدتنى بأى شىء ــ حتى نصف مملكتك ــ غير اننى اطلب رأس السيدة باركر بانجس فى طبق ! » . فصاحت به جين : « آه ، اصمت يا بيللى وابتعد من امامنا ، فقد أضعت علينا مشاهدة هذه الضربة الأخيرة .. ما هى النتيجة الآن ؟ » .

وكانت هذه الجولة فى صالح « جارث » ، وإذا يد « رونى » تمتد مسددة ضربة عالية ، لم يتسن لجارث ردها وهنا دوى صوت بين ضوضاء النظارة ، قائلا : « هلم والعب يا دال ! » . وعرف دال ذلك الصوت الحبيب فلم ينظر إلى مصدره ، ولكنه ابتسم . وفى اللحظة التالية ، سدد ضربة كوميض البرق ، فلمست الكرة الأرض بجوار الشبكة ، ومرقت من جانب رونى إلى آخر أرض الملعب ، مندفعة فى انخفاض . وباءت محاولة رونى اللحاق بها بالفشل ، وأعلنت النتيجة النهائية بانتصار « جارث » .. وخرج اللاعبان معا من الملعب ، جنبا إلى جنب ، ومضرباهما تحت ذراعيهما ، وحمرة الإجهاد تطفو على وجهيهما الجميلين . كان الفارق بينهما جد ضئيل ، حتى أن نشوة النصر ملأت قلبيهما معا ، على السواء .

* * *

وكانت بولين ليستر جالسة وعلى حجرها سترة « جارث » ، كما كانت تحتفظ له بساعته وسلسلتها .. نتوقف جارث بجوارها لحظة ليأخذ متاعه وليتقبل منها التهنئة ، ثم القى بسترته فوق كتفيه ، ودس ساعته فى جيبه ، وأسرع متجها إلى جين ، هاتفا : « كيف حالك يا آنسة شامبيون ؟ » . والتقت عيناه الملهوفتان بعينيها ، فسره ما رآه فيهما من فرحة اللقاء والترحيب ، وملأه ذلك ثقة ورضى .. ذلك لأنه كان يحس فى غيابها بوحشة بالغة .. الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس .. ان هذه الأيام الثلاثة كانت تقف كحجر عثرة أمام يوم الجمعة ! .. ولقد ملأ فكره العجب : كيف يمكن أن يؤدى غياب شخص ما إلى مثل هذا التأثر ؟ .. ومع ذلك ، فما كان أجدر ذلك بأن يحدث ، حتى يفطنا معا إليه ! .. لقد حان اليوم الذى اعتزم فيه ان يذكر لها كيف أنه كان بحاجة ماسة ، مستيئسة ، إلى ان تظل معه على الدوام ! .. اجل ، لقد أدركا معا ذلك ، فقد أيقن « جارث » من أن جين أحست مثله بالفراغ .. ان شعورا عارما ، جبارا ، بالشوق والحنين ــ كذلك الذى أضناه ــ لايمكن أن يكون من جانب واحد ، فما أعظم وأثمن التجربة التى مرت بهما فى أيام الوحدة .. لقد تلقيا فيها درسا عما تعنيه كلمة « معا » ، ولم يبق الآن سوى أن تخرج الكلمات من الأفواه ، لتضمن لهما ألا فراق بعد ذلك ، إلى الأبد !

مرت كل هذه الخواطر بذهن جارث وهو يحيى « جين » بأنفه تحية إنجليزية .. بالسؤال عن الحال ، ذلك السؤال السرمدى الذى لا يلقى جوابا قط !

أما « جين » ، فان تحية « جارث » لم تبد لها تافهة ــ فى تلك اللحظة ــ فأجابت عليها فى وضوح وجلاء . وكانت تبغى ــ فوق كل شىء ــ أن تنبئه بكل ما لاقته ، وأن تسمع كل شىء عن نفسه ، وأن تقارن بين أقوال كل منهما عن احداث هذه الأيام الثلاثة ــ التى لم تكن تبدو لها نهاية ــ وأن يستأنفا صداقتهما الوثيقة ، من حيث تركاها .". وامتدت يدها إلى يده فى تماسك شديد ، اوحى إلى « جين » بالرضى ، وبالود الصحيح . واجابت عن سؤاله : « اننى فى أحسن حال ، فشكرا لك يا دال .. أو بالأحرى ، اننى أشعر باطراد التحسن فى صحتى وروحى المعذبة ــ فى كل لحظة ــ بعد أن وصلت إلى هنا أخيرا ! » .

واسند جارث مضربه إلى ذراع مقعدها ، واستلقى على الحشيش بجوارها متكئا على مرفقه ، ثم سألها بصوت خافت دون أن يتطلع إليها ، بل ظل محدقا فى حذائها الداكن الرشيق، الذى كان مستقرا فوق الأرض بجانب يده : « هل حدث ما عكر عليك أيام إقامتك بلندن ؟ » . فأجابته جين فى صراحة: « كلا ، لم يكن العيب عيب لندن .. ومع أن الطقس كان حارا أغبر ، الا أن المدينة كانت بديعة كالمعتاد .. على أن العيب كان فى نفسى ، وأحسبك ستخجل منى يا دال إذا أعترفت لك به ! » .

فلم يرفع عينيه إليها ، بل انهمكَ فى التقاط بعض عيدان الحشائش وترتيبها فى أشكال زخرفية على حذاء « جين » .. وما كان ليدور بينهما حديث غير هذا لو انهما كانا وحيدين ،

نهل كانت « جين » مزمعة – حقا – أن تعلن على مسمع من الجميع ، وبذلك الصوت الحبيب الرنان ، ذلك السر العذب .. سر افتقاد كل منهما صاحبه ؟

على أن صوت السيدة باركر بانجس ارتفع فجأة ، فى تساؤل : « كبد ؟ » . فأجابها بيللى صائحا : « كلا ، بل نطائر ! » .. ثم هرول فأحضر لها عددا منها ، ودفعها إليها ، وقد كاد – فى تلهفه إلى ارضائها – أن يلقى بها فى حجر السيدة، إذ تعثر وهو يهرول بقدمى جارث ! ..

وحملقت « جين » فى السيدة باركر بانجس وفطائرها ، ثم حولت رأسها ناظرة إلى رأس « جارث » وشعره الأسود اللامع . وتأملته وهو يعبث بالحشائش ، ثم قالت : « كنت متبلدة ، مكتئبة إلى درجة لا تطاق .. ولقد اعتاد دال أن يقول ان التبلد لا يعترى الا البليد بطبعه . ولكنى حللت تبلدى – وأنا فى القطار قادمة إلى هنا – فاكتشفت أن مبعثه هو « دال » نفسه .. اتسمعنى يا دال ؟ » .

ورفع « جارث » رأسه ، ونظر إليها وقد تبين – فى هذه اللحظة – أن من الممكن أن تكون التجربة الجائحة ، العنيفة ، من جانب واحد فقط .. إذ بدت عينا « جين » الرماديتان هادئتين ، مفعمتين بصداقة مرحة . فقالت له جين : « لقد كان الذنب ذنبك يا بنى العزيز » .. ومع أن وجه « جارث » تضرج بحمرة شديدة ، إلا أن صوته بدأ هادئا ثابتا ، وهو يتساءل : « كيف كان ذلك ؟ » .. فأجابته : « لأنك أغرقتنى – فى الأيام الأخيرة فى (أونردين) – فى دوامة من الموسيقى ،



واسند (جارث) مضربه إلى دراع مقعدها . واستلقى على الحشيش بجوارها متكئا على مرفقه ..

لم يكن لى عهد بها من قبل ، فافتقدتها ـ بعد الرحيل ـ إلى
درجة كانت تبعث على الانزعاج حقا .. حتى لقد بدأت اخشى
على اتزان عقلى وهدوئه ! » .

وهنا تدخلت « ميرا » ، وهى تطل براسها من خلف مظلتها
الحمراء ، وقالت لجين : « اذن ، ففى وسعك ودال ان تنعما
بكل عربدة موسيقية هنا ، فستجدان « بيانو » فى قاعة
الجلوس ، وآخر فى البهو ، و « بيانو » كبير ـ من طراز
بخشتاين ـ فى قاعة البليارد ، حيث اعقد دروس التدريب
للخدم والخادمات .. والحقيقة التى لم اهتد بعد إلى اى نوع
افضل : ايرارد ، او برودوود ، أو كولارد ، أو بخشتاين ؟..
لذلك اتيت بواحد من كل نوع !.. ومع ذلك فأنا شخصيا أفضل
العزف على بيانو الكوخ الصغير ، الذى وضعناه فى قاعة
الدراسة هنا .. لقد نقلته أخيرا إلى حجرة الزينة ، إذ يبدو
اننى الفت انغامه دون سواها ، أو لعله أكثر انصياعا
لطريقتى ! » . فقالت جين : « شكرا لك يا ميرا .. أعتقد أن
دال وأنا نفضل بيانو بخشتاين » .

واستأنفت ليدى انجلبى حديثها قائلة : « وإذا أردتها شيئا
مثيرا فى ميدان الموسيقى ، فلكما أن تحضرا بعض التدريبات التى
تجرى استعدادا لقداس الترانيم ، الذى سيقام لتكملة نقص
الاكتتاب المخصص للأرغن .. كم أنا معجبة بأعمالهم ! » .
فأجابتها جين فى حزم : « اننى أؤثر أن أقوم بدفع كل العجز ،
على ان اقترب من « قداس الترانيم خطوة ! » . فبادرت جارث
قائلا ، وقد لمح استياء ميرا : « كلا .. انه لعمل جليل ان يعمل

القوم على تسديد ديونهم وكسب ما يحتاجون إليه لمعونة
كنائسهم .. ثم ان قداسات الترانيم بديعة إذا أجيد اداؤها ،
وهو ما أوقن منه ما دام اتباع الليدى انجلبى هم القائمون
بالأمر ، ولقد شرح لى « لوسون » أمرهم هذا الصباح ، وغمغم
بأهم الالحان ، وانها لشجية حقا . أتراه كان لحن « روبنصن
كروزو » .. كلا ، ليس هو .. ترى ما اسم ذلك اللعين ؟..
« كوخ العم توم » ؟ .. نعم ، فقد كان يدور حول شخص
اسود !.. ويقوم لوسون بدور العم توم ، وابنة القس
الصغرى بدور « ايفا » الصغيرة .. لسوف تتمشين معى
يا آنسة شامبيون إلى هناك ، لمشاهدة أول تجربة تالية ! » .

وتساءلت جين : « أتريد منى ذلك ؟ » ، دون أن تفطن
إلى عذوبة الابتسامة التى القتها عليه ، فما فطنت إلا إلى
ذكرى تحركت فى قلبها .. ذكرى تلك الليلة فى (اوفردين) ،
حين تملكها ميل شديد إلى أن تقول له : « نبئنى بما تريد منى
ان افعل ، وسأفعله ! » .

وهنا قالت السيدة باركر بانجس : « يسر بولين جدا ان
تذهب معكم : فهى تهيم بالموسيقى الريفية » .. فبادرتها
الآنسة ليستر ، وكانت قد وصلت فى تلك اللحظة ، وجلست
فى مقعد عال بجوار ميرا : « هراء يا عمتى !.. اننى أقر الآنسة
شامبيون فى رأيها عن قداسات الترانيم ، فلست أحفل بغير
الممتاز من الموسيقى ! » . والتفتت اليها « جين » مسرعة ،
وقالت بابتسامة اليفة ، وبأحلى لهجة ودية : « أجل ، ولكن
عليك ان تاتى معنا ، حتى نتساند فى احتمال الفضيحة . وقد

ينجح « دال » و « لوسون » فى تحويلنا ودفعنا إلى التعلق بالترانيم الكنسية .. وعلى كل حال ، فسيكون من الممتع أن يتولى « دال » ايضاح كل شىء لنا .. لسوف يقتضيه هذا كل ما لديه من قوة ايمان ! » .

قالت بولين ليستر : « إذا شئتم شيئا مثيرا حقا — فى ميدان الموسيقى — فدعونى اقص عليكم ما صادفنا على ظهر الباخرة التى اقلتنا من أمريكا .. كان اسمها « عربى » . وكانت تحمل قوما لطافا ودودين ، وكانوا قد عينوا الساعة الثامنة والنصف من مساء الخميس موعدا لحفلة موسيقية . وكنا نبعد عن سواحل ايرلندا بحوالى مائتى ميل ، فلما غادرنا قاعة الطعام بعد تناول العشاء فى ذلك المساء . فوجئنا بضباب كثيف . وما ان حانت الساعة الثامنة ، حتى بدأ بوق الضباب ينطلق مرة كل نصف دقيقة ، وليس بوسعكم أن تسمعوا شيئا عندما يدوى بوق الضباب . غير أن برنامج الحفلة كان قد طبع ووزع على جميع المسافرين ، كما كانت تلك آخر ليلة لنا على ظهر الباخرة ، فقرر القوم أن يستمروا فى اقامة الحفلة الموسيقية ، مهما تكن الحال .. ونزلنا جميعا فى صفوف — إلى قاعة الموسيقى ، وبدأت الحفلة طبقا للبرنامج ، بينما كان بوق الضباب يدوى فى كل ثلاثين ثانية — بانتظام ، فلم نكن نسمع شيئا بجلاء ، سوى صوته وهو يدوى فى فتراته الرتيبة ، ثم أخذ رجل ذو صوت عميق قوى ، يلقى اغنية : « ارتطمت بالصخور فى أحضان البحر العميق » ، وكلما بلغ المقطع : « فما أهدأ نومى ، وما آمنه ! » ، ودوى معه صوت بوق الضباب ،

حتى فقدنا الأمل فى أى نوم هادىء فى تلك الليلة .. وأعقبه رجل له صوت قوى مرتفع ، شرع يغنى : « كثيرا ما يحدث فى الليل الساكن » ، فكان بوق الضباب يبين لنا مدى « سكون الليل » فى كل ثلاثين ثانية !.. على أن أغرب ما حدث هو أن فتاة تولت عزفا منفردا على البيانو ، واختارت لحنا من الحان « شوبان » مليئا بالتنقل بين الأنغام المرتفعة ، والأنغام المنخفضة ، والجلجلة الفضية الناعمة . وبدأت الفتاة بداية موفقة ، غير أنها لم تبلغ نصف الصفحة الأولى ، حتى انطلق بوق الضباب ، واستمر اكثر من المعتاد .. فكنا نرى أصابعها وهى تجرى على البيانو ، وصفحة « النوتة » تطوى دون أن نسمع نغمة واحدة . حتى إذا توقف صوت البوق ، وغدا صوت البيانو مسموعا ، كانت الفتاة قد أتت على اكبر شطر من الصفحة الثانية ، دون أن نكون قد سمعنا ما يعيننا على تتبع اللحن .. أواه ، لكم كان الموقف مضحكا !.. واستمر اللحن على هذا المنوال ، فكانت شجاعة من الفتاة ان استمرت فيه ، ومن ثم صفقنا لها طويلا عندما انتهت من القطعة واشترك معنا بوق الضباب فطغى دويه على كل تصفيقنا .. لقد كانت أعجب حفلة موسيقية رايتها فى حياتى . وقد تمتعنا بها جميعا ، ولو اننا لم نطرب لضجيج ذلك البوق الذى استمر على وتيرة واحدة ، حتى الساعة الخامسة صباحا ! » .

❊❊❊

وكانت «جين » قد استدارت فى مقعدها ، وبقيت منصتة بانتباه وتقدير إلى حديث الفتاة الامريكية الحسناء .



وهى تتأمل — فى ابتهاج حقيقى — ووجهها البديع واشاراتها الرقيقة ، وتتصور مبلغ استمتاع دال بأن يرقبها وهى تتحدث بهذا السحر ، وهذه الحيوية . ونظرت إليه محاولة أن تلمح الاعجاب فى عينيه ، فاذا به منكس الرأس ، وقد بدا مستغرقا فى نقل زركشة حذائها على الأرض ، بعود طويل من شجرة الجوز .. وظلت لحظة ترقب اليد النحيلة السمراء ، وهى عاكفة على هذا العمل التافه ، وكأنه يرسم لوحة .. وفجأة سحبت قدمها ، وهى تحس بامتعاض منه لعدم استمتاعه بالحديث الشيق ، وما بدا عليه جهارا من عدم مبالاة بالفتاة !

واعتدل جارث فى جلسته لتوه وقال : « لا بد أنها كانت حفلة عجيبة ، ولكم أجدت روايتها ، حتى لقد كدنا نسمع دوى بوق الضباب ، ونرى وجوه العازفين والمغنين بما ارتسم عليها من انزعاج واستياء .. ان بوق الضباب ليس من الأشياء التى يسهل على المرء ان يألفها ، مثله فى ذلك مثل الزلازل .. بل ان صوته يزداد ازعاجا مرة بعد أخرى .. والآن لنتناوب رواية اغرب ما صادفنا فى الحفلات الموسيقية !

.. سمعت مرة غلاما يتلو بضعة أبيات من قصيدة لتنيسون — عنوانها « هجوم اللواء الخفيف » — بطريقة تمثيلية ، ولكنه كان عصبيا اكثر مما ينبغى ، فارتبك وخلط بين الأبيات ، وعندما وصل إلى وصف مسلك الجنود المستميتة وتفكيرهم قال فى أداء مؤثر : « لم يكن عليهم ان يجيبوا ، ولم يهتموا بأن يعملوا أو بأن يموتوا .. وإنما كان كل ماعنوا به هو انيتجادلوا فى تعليل السبب ! » . وكانت اللهجة التى القى بها الأبيات ،

والحركات التى مثلها ، جيدة إلى حد اشك معه فى أن كثيرا من المستمعين قد فطنوا إلى أى خطأ فى الكلمات ! » ..

وقابل رونالد انجرام : « هذا يذكرنى بأضحك حادث صادفته فى حياتى .. وكان ذلك فى صلاة شكر اقيمت لعودة قسم من جيشنا من جنوب إفريقيا ، إذ اختتمت الحفلة بالنشيد الوطنى البريطانى . وانكم لتذكرون كيف اضطررنا — من عهد قريب — إلى تغيير الضمير فى النشيد ، بعد ان خلف الملكة فيكتوريا ملك ، وكيف أن من العسير على المرء ان يتفادى النطق بما رسخ فى ذاكرته .. وكان يجلس خلفى رجل ذو صوت حسن ، راح ينشد بحماسة وهمية ، مجهدا نفسه فى تعديل الضمائر كلما صادفته . ولما بلغ السطر الرابع من المقطع الثانى ، انشد بحرارة وطنية : « لعن الله سياسته .. وافسد كل حيله الخبيثة » !.. وأنتم تعلمون أن الضمير هنا لم يكن يعود على الملكة، فلم يكن ثمة داع لتغييره إلى المذكر!».

فقالت ليدى انجلبى : « قد يطرب الملك لهذه القصة .. أواثق أنت من أنها وقعت فعلا يا رونى ؟ » . فأجابها هذا : « كل الثقة ، بل ان فى وسعى أن أحدد لك اسم الكنيسة ، وعنوانها ، واليوم الذى وقع فيه ذلك ، وادعو لك جمعا من الشهود الذين استبد بهم الضحك لذلك ! » .

— حسنا .. سأروى هذه القصة لصاحب الجلالة فى أول فرصة اتشرف فيها بمقابلته ، وسأبلغه انك سمعتها باذنيك .. والآن ، ماذا سنفعل فى التنس ؟ ما البند الثانى فى البرنامج ؟ أهو نهائى الزوجى ؟ نعم .. آه ، هو ذلك ! ستلعب يا دال مع

الآنسة ليستر ضد الكولونيل لورين والآنســة فيرمونت .. واظن انكما خليقان بأن تغلبا عليهما بسـهولة تامة ، لانكما منسجمان معا ، ستكون هذه المباراة جديرة بالمشاهدة يا جين!

فأجابتها جين بحرارة ، وهى تنظر إلى جارث وبولين وقد وقفا معـا فى الشـمس المائلة إلى الغروب ، يفحصـان ضربيهما ، ويتناقشان فى الحيل التى يستطيعان استعمالها .. وظلا كذلك فى انتظار خصميهما ، فبدا منظرهما رائعـا يملأ العيون إعجابا ، كزوجين متكاملين ، وكأنما سكبت الطبيعـة اجمل ما لديها فى كل جزء من تكوينيهما ، وكان العيب الوحيـد الذى قد يؤخذ ـ فى صدد زواجهما ـ هو أن جمال الفتاة ـ الرشيق الأسمر ـ كان نسخة أنثوية دقيقة لجمال الشـاب ، حتى لقد كان من السهل أن يؤخـذا على أنهما أخ وأخت .. ولكن هذا لم يكن بالعيب الـذى يخطـر ببال « جين » ، لأن اعجابها القلبى ببولين كان يزداد كلما تأملتها .. أما وقدراتهما معا ، جنبا إلى جنب ، فقد اطمانت إلى انها قد أخلصت النصح لجارث ، واهتز قلبها فرحا حين جال بذهنهـا أنه قد أخـذ بنصيحتها !

❋ ❋ ❋

وفيما كانا يسيران على مهل ، عائدين إلى القصر ـ وهى وجارث بمفردهما ـ فى نهاية الأصـيل ، قالت « جين » بكل بساطة : « دال » .. هل يضايقك أن أوجه إليك سـؤالا ؟ .. هل قررت نهائيا ؟ » . فأجابها جارث : « لن يضـايقنى أى سؤال منك يا جين ، وإنما أرجو الافصاح .. ما هذا الذى قررته نهائيا ؟ » .

ـ هل خطبت الآنسة ليستر ؟

ـ كلا ، وما الذى دعاك لأن تفكرى فى شىء كهذا ؟

ـ لأنك قلت فى (أوفردين) يوم الثلاثاء .. الثلاثاء ! أواه ، الا يبدو لك كأنما قد انقضـت أسابيع على ذلك ؟.. قلت ان من الواجب أن نحمل قولك على محمل الجد .

ـ كأنما حدث ذلك منذ سنوات ! .. واننى لأتمنى حقا ان تأخذى أقوالى على محمل الجد .. ولـكنى ـ مع ذلك ـ لم اطلب يد الآنسة ليستر ، وانى لأتوق إلى ان اتحدث إليـك بهذا الصدد ، دون أن يعكر صـفونا احـد ، فهل تخرجين معى إلى الشرفة ـ يا آنسة شامبيون ـ بعد العشاء ، عندما ينصرف القوم إلى الألعاب وأسباب اللهو ، ونستطيع ان نتسلل دون أن يفطن إلينا أحد ؟ .. هناك أستطيع ان اتحدث إليـك دون خوف من أى دخيل ! .. ان ضـوء القمر على البحيرة جدير بالمشاهدة من الشرفة !.. لقد قضيت سـاعة ـ ليلة الأمس ـ هناك .. آه ، كلا .. انك تخطئين الحدس ، للمرة الأولى .. لقد قضيت الساعة وحيدا ، بعد انتهاء النزهة فى القوارب ، ورحت أفكر ـ إذ ذاك ـ فيما سيدور بيننا الليلة من حديث !

فأجابته جين : « سآتى طبعا ، ويجب أن تستبيح لنفسك الحرية فى الافضـاء إلى بما تبغى .. على أن تعدنى بأن تقبل منى النصح والعون اللذين أملك ازجاءهما ، كيفما يكونان » . فأجابها جارث فى صوت منخفض : « سأدلى لك بكل شىء » .

ولسوف تقدمين لى من النصح والعون ما لم يملك تقديمه سواك ! » .

***

جلست « جين » على حافة نافذة حجرتها ، تمتع ناظرها بغروب الشمس ، وبالمنظر الرائع ، وهى مغتبطة بأن لديها نصف ساعة قبل أن تحتاج إلى وصيفتها .. وكانت الشرفة تمتد تحت نافذتها ، فسيحة مرصوفة بالحصى ، يحيط بها سياج عريض من الحجر ، تفصلها ثمانى أو عشر أقدام عن الحديقة قديمة الطراز ، بها أحواض للزُهور محاطة بحدود عريضة ، ودروب متعرجة ، ونافورات حجرية .. وخلف الحديقة ، كانت ثمة أرض معشوشبة تنحدر إلى البحيرة ، التى كانت ـ فى تلك الآونة ـ أشبه بمرآة من الفضة ، فى نور المساء الخافت . وكان السكون شاملا ، والشعور بالسلام يحتضن كل شىء .. وأمسكت « جين » بكتاب وضعته فوق ركبتها ، ولكنها لم تقرأ شيئا ، إذ سرحت البصر نحو الغابات البعيدة الممتدة خلف البحيرة ، والسماء المرصعة فوقها وقد انتثرت فيها غيوم وردية اللون ، تتخللها خطوط ذهبية من الضوء ، وملأ هذا المنظر نفس « جين » بشعور من الرضى ، والابتهاج ، والطمأنينة . على أنها لم تلبث أن سمعت وقع خطوات خفيفة تسير فوق الحصى ـ فى الشرفة ـ فانحنت لترى من صاحبها . وإذا به جارث وقد خرج من حجرة التدخين ، وذرع الشرفة فى خطوات عصبية ـ جيئة وذهابا ـ مرة أو مرتين ، ثم تهالك على مقعد من

الخيزران تحت نافذتها ، وجلس يدخن وهو مستغرق فى التفكير . وتصاعد عبق الدخان إلى « جين » خلال زهور المانوليا ، فقالت تخاطب نفسها وهى تبتسم : « انها من سجاير « زنيت » ، صنع ماركوفيتش .. معبأة فى علب خضراء زاهية اللون ، وتباع كل مائة سيجارة منها باثنى عشر شلنا .. يجب أن أذكر ذلك ، لأقدم له هدية منها فى عيد الميلاد !.. ففى هذه المناسبة سيتعذر على أن أهتدى إلى شىء لم يقدم إليه فى فيض الهدايا التى يتلقاها ! » .

والقى جارث ببقية لفافته ، وبدأ يغمغم بين أنفاسه نغما خافتا ، تحول تدريجيا إلى كلمات راح يغنيها بعذوبة ، بصوته المتوسط النبرات :

« ليس لى أن أتغنى بحسنك السنى .. فان الروح العظيمة تسطع على وجه سيدتى ! » .

ومع أن النبرات كانت هادئة ، إلا أنها كانت تتهدج بشعور متهدج ، جعل « جين » تشعر كأنها كانت تسترق السمع إلى سردفين . وأسرعت فالتقطت ورقة كبيرة من أوراق « المانوليا » ، وأطلت من النافذة ، ثم تركتها تسقط فوق رأسه .. فقفز جارث ، وتطلع إلى فوق ، وقال : « هالو !. أهذه أنت ؟ » . فأجابته ضاحكة ، وقالت هامسة خشية أن تكون ثمة نوافذ أخرى مفتوحة : « نعم ، أنا هنا .. فوق . لقد أخطأت النافذة التى تغنى تحتها أناشيدك يا عزيزى العاشق المستهام ! » . فقال فى شىء من الغيظ : « يبدو أنك تعلمين

الكثير عن الأمر ! » .. وأجابته هامسة : « اليس كذلك ؟..
ولكن ، لا تشغل بالك يا « سيد جارثى » ، لأنك تعلم مدى
صدق اهتمامى بالأمر .. فاتخذنى مرشدتك فى غياب
مارجرى ! » .

وقفز جارث من مجلسه ، فانتصب واقفا وهو ينظر إليها
نظرة جمعت بين الطرب والغيظ ، ثم قال : « هل اتسلق شجرة
المانوليا إليك .. ان فى نفسى اشياء كثيرة أريد أن أبوح لك بها ،
ولا يمكن أن أصيح بهما أمام البيت ! » .. فأجابته جين :
« لا ، طبعا .. لست أريد أى روميو يتسلق إلى نافذتى ..
« وماذا بعد ؟ » ، كما تقول العمة جينا .. هيا واستبدل
ثيابك يا سيد جارثى ، فان « الأشياء الكثيرة » يجب أن تبقى
إلى أن نلتقى الليلة ، وإلا تأخرنا عن موعد العشاء » .

وقال جارث : « حسنا .. حسنا ، ولكنك ستأتين الليلة
يا آنسة شامبيون ، فهل ستمنحيننى من وقتك كل ما أبتغى ؟» .
فأجابته جين : « سأحضر بمجرد أن نستطيع الافلات من
الجماعة ، ولن تكون أشد لهفة إلى الافضاء منى إلى السماع
.. آه ، يا لعبير زهور المانوليا !.. أنظر إلى البتلات البيضاء
الكبيرة .. هل لك فى واحدة فتضعها فى عروة سترتك ؟ » .

فالقى إليها بابتسامة غريبة ، مفعمة بالوجد ، ثم دار على
عقبيه ، ودخل إلى القصر . وتركت « جين » النافذة وهى

تقول ساهمة : « لست أدرى لماذا أميل إلى مداعبته
وإغاظته ؟.. حقا ، لقد كنت أنا السخيفة فى هذه المرة ،
وكان هو رزينا معقولا .. ان « ميرا » على حق ، فجارث جاد
فى أمره ، ولكن ما موقف الفتاة يا ترى ؟.. أرجو
أن تكون مهتمة بأمره ، وأن تكون عواطفها متجهة إليه ! » .

ثم نادت خادمتها قائلة : « تعالى يا ماثيوس ، وأعدى لى
الثوب الأسود الذى كنت أرتديه ليلة الحفلة الموسيقية فى
(أوفردين) .. هيا أسرعى ، فليس لدينا اكثر من عشرين
دقيقة !.. يا لها من ليلة رائعة بديعة !.. قبل كل شىء ،
تعالى والقى نظرة على غروب الشمس فوق البحيرة ! أواه ،
ما أحلى البقاء هنا ! » .



الفصل العاشر

ما كانت ذخيرة العالم كله من نفاد الصبر لتقوى على أن تحول دون أن يكون العشاء فى قصر (شنستون) مهمة عاجلة . ولم يكن من السهل على اثنين مرموقين من أفراد الجماعة أن يتسللا دون أن يلحظهما أحد . لذلك فقد كانت ساعة بعيدة ـ فى القرية ـ تدق العاشرة ، حين تمكن « جارث » و « جين » من التسلل معا إلى الشرفة غير ملحوظين .. وكان « جارث » قد التقط ـ أثناء اجتيازهما البهو ـ سجادة صغيرة ، ثم أغلق خلفه باب البهو ـ المفضى إلى الشرفة ـ بكل هدوء وحرص .. وخلا كل منهما إلى الآخر . وكانت هذه هى المرة الأولى التى انفردا فيها منذ أن افترقا فى (أوفردين) ، وقد خيل إليهما أن دهرا قد انقضى على ذلك !

وسارا فى صمت ـ جنبا إلى جنب ـ نحو السياج الحجرى العريض المطل على الحديقة العتيقة .. وكان ضياء القمر الفضى قد كسا المكان كله بنور زاه عجيب ، ولاحت أمامهما أقسام الحديقة البارزة ، والدروب المتعرجة ، وأحواض الزهور العجيبة الأشكال .. ومن خلفها البحيرة كمرآة فضية تعكس بها أشعة القمر الهادئة . ونشر « جارث » السجادة الصغيرة فوق قمة السياج ، وأجلس جين فوقها ، ثم وقف بجانبها وقد أسند إحدى قدميه إلى السياج ، وعقد ذراعيه على صدره ، ورفع رأسه إلى أعلى .. وجلست « جين » بجانبه ، متجهة إليه بنظرها ، وقد أسندت ظهرها إلى تمثال

أسد من الحجر رابض فوق قمة السياج . ثم أدارت رأسها متأملة البحيرة ، وهى تعتقد بأن « جارث » كان ينظر فى الاتجاه ذاته ، فى حين أنه كان يحدق فى وجهها ! وكانت جين ترتدى ثوب السهرة الأسود الجرار ، الذى ارتدته ليلة حفلة (أوفردين) الموسيقية ، غير أنها لم تضع العقد اللؤلؤى أو أى زينة أخرى ، اللهم إلا حزمة من براعم الورد القرمزى استكنت بين ثنايا الدانتلا الرفيعة ، القديمة ، التى كانت تكسو صدر الثوب . وكان يحف بها جو من النبل والقوة الهادئة ، مما بث رعشة هزت روح الرجل الذى وقف يتأملها .. وتصاعد كل ما كان يملأ قلبه من حب واله ، ووجد مشبوب ، فشعت به عيناه ، إذ لم تعد به حاجة إلى اخفائه .. وها هى ذى الساعة قد دنت أخيرا ، ولم يبق ما يخفيه عن المرأة التى أحبها !

وما لبثت « جين » أن التفتت ، وهى تعجب من أنه لم يبدأ بعد اعترافه عن بولين ليستر ، حتى إذا ما وقعت عيناها على عينيه مستفسرة ، صاحت وقد همت بالنهوض عن مكانها ، وهى تقول : « دال !.. أواه ، يا دال .. لا تفعل ! » . فردها إلى مجلسها فى رفق ، وقال : « صه يا عزيزتى ! .. يجب أن أخبرك بكل شىء ، وقد وعدتنى بالاصغاء لكل ما أقول ، وبأن تسدى إلى النصح والمساعدة .. أواه يا جين ، يا جين !.. انى فى مسيس الحاجة إلى مساعدتك .. فى حاجة شديدة لا إلى معونتك فقط ، وإنما إليك يا جين .. إليك أنت بالذات ! .. أواه ، كم أنا محتاج إليك !.. لقد كابدت هذه الأيام



وما لبثت (جين) أن التفتت ، وهى تعجب من أنه لم يبدأ بعد اعترافه عن (بولين ليستر) ..

الثلاثة — التى مرت على فراقنا — أوجاعا متوالية من جراء الوحدة ، لأنك كنت بعيدة عنى .. فلما عدت عادت إلى الحياة والحركة .. مع ذلك ، فما أشق أن اضطررت لأن انتظر كل هذه الساعات ، قبل أن أتحدث إليك . فلدى الكثير مما أود أن أحدثك به يا جين ، عن كل ما أنت لى .. وكل ما غدوته — بالنسبة لى — منذ ليلة الحفلة الموسيقية فى (اوفردين) .. أواه ، كيف أستطيع أن أعبر لك عن ذلك ؟!.. لم تكن فى حياتى من قبل أمور جسيمة ، بل لقد كانت كلها — تقريبا — تافهة وسطحية .. أما هذه الحاجة إليك ، وأما هذه الرغبة فيك ، فانها مشاعر ضخمة ، يبدو كل ما خالجنى قبلها أقزاما هزيلة إلى جوارها ، بل انها لتفوق كل ما هو آت .. إذا لم أقل إنها العرش والتاج والذروة العليا لكل حياتى ومستقبلى .. أواه ، يا جين ! لقد أعجبت بكثير من النساء ، وكثيرا ما كنت أهذى لفرط أعجابى بهن ، وأتنهد أسى من أجلهن .. وكثيرا ما رسمتهن ، ثم كنت لا ألبث أن أنساهن جميعا .. ولكنى لم أحب امرأة من قبل ، وما كنت لادرك قيمة المرأة لدى الرجل ، حتى سمعت صوتك وهو يتهدج وسط السكون الشامل ، مرددا : « إننى أعد حبات اللؤلؤ » .. أواه أيتها الحبيبة ! .. لقد تعلمت — منذ تلك الليلة — كيف أحصى اللآلىء ، وتلك الساعات الثمينة التى مرت فى الماضى وطال عليها النسيان ، ولكننى فهمتها أخيرا !.. « كل ساعة لؤلؤة .. وكل لؤلؤة أدعية ! » .. يا لها من ضراعة حارة لكى يمتزج الماضى والحاضر فى مسبحة واحدة كاملة ، ولكى يخلو المستقبل من أى ألم أو فراق !.. أواه ، حبيبتى يا جين ! ..

هل سيقدر لى يوما ان اجعلك تفهمين كل .. مدى .. أواه ، يا جين ! » .

ولم تكن قد شعرت به إذ اقترب منها ثم سقط أمامها جاثيا على ركبة واحدة . وبينما كان ينطق بالجملة الأخيرة ـ بلهجة متهدجة لاهثة ـ لف ذراعية حول خصرها ، ودفن وجهه فى « الدانتلا » الرفيعة التى كانت تكسو صدرها . ثم احتواه سكون وهدوء ، وبدا أن كل جهد بذله ـ للتعبير عما كان فى نفسه ـ قد خمد وتلاشى ، وتحول إلى صمت قوامه الادراك والفهم .. صمت شامل ، كامل !

ولم تنبس جين بكلمة ولا حارت حراكا ، فلقد كان بقاؤه فى هذا الوضع مبعث عذوبة فائقة ، وكأنما انتهى ذلك الاعصار العاطفى الثائر إلى موطن الراحة ـ فوق قلبها الهادىء ـ فى هدوء مطمئن . وتبينت ـ حينذاك ـ ان الفراغ الذى عانته فى الثلاثةأيام التى مرت بها لم يكن ناشئا عن شوق إلىالموسيقى، وإنما عن شوق إليه .. هو ! فما ان شعرت بذلك ، حتى لفت ذراعيها حوله دون أن تدرى ما كانت تفعل .. واستيقظت فيها أحاسيس ـ لم تخالجها من قبل ـ وجاشت فى جوانحها .. أحاسيس علوية سامية عزلتها عن كل العالم .. وانزاح عنها ما عانته من وحدة موحشة فى الحياة ، أمام هذه الحقيقة الغالية : أنها وهو .. معا ! وفى اللحظة التى اتضحت فيها هذه الحقيقة لذهنها وحسها ، رفع « جارث » رأسه ـ وهو ما يزال محتضنا إياها ـ فتطلع إلى وجهها قائلا : « أنت وأنا معا .. أنت لى .. أنت لى ! » .

غير أن نظرات عينيه الجميلتين المتألقتين ، كانت فوق ما تحتمل « جين » ، إذ ذكرتها بخلو وجهها من الجمال الصارخ ، وخيل إليها أن نظراته كانت أضواء تكشف ذلك ، فاذا بها تضع يديها فجأة خلف رأسه ، فترد وجهه إلى « الدانتلا » التى كانت تكسو صدرها ، وليس بخاطرها شىء سوى أن تخفى عنه مظهرها الخارجى ، بعد أن اقترب فجأة من صومعة نفسها الدفينة فى أعماقها . ولكن « جارث » رأى فى حركة هاتين اليدين القويتين العزيزتين ، إذ دفعتاه إلى صدرها بغتة ، تجاوبا نم عن قبول منها لشخصه ولكل ما قدمه لها .. وظلت روحه تنبض فى سكون وهيام فاق كل كلام ، لعشر ثوان نشوانة، ثم لعشرين ، ثم لثلاثين .. ما لبث أن رفع رأسه محدقا فى وجهها مرة أخرى ، وقال : « يا زوجتى ! » .

ولدى نطقه بهذه الكلمة ، باغتت وجه « جين » الصادق الصريح ، موجة من الدهشة والجزع ، ثم اصطبغ بحمرة عميقة ، فكأنما اجتذبت كل الدماء التى كانت تجرى متواثبة خلال قلبها ، لتنسكب فى وجنتيها فتحرقهما ، بينما أوشك القلب أن يكف عن الوجيب !.. وراغت « جين » من ذراعى الشاب ، ثم نهضت ، وراحت تسرح بصرها إلى مياه البحيرة التى كانت تتلألأ كالفضة تحت أشعة القمر .. ووقف جارث دالمين بجانبها ، لا ليلمسها ، ولا ينبس بكلمة أخرى ، فقد أيقن من أنه كسب المعركة ، فأفعمت نفسه بفرحة صامتة .. كانت روحه هانئة ، فبدا الصمت العميق أفصح من الكلمات .. وكان خليقا بأية لمسة عادية أن تطمس الاحساس العارم بتلك اللحظات التى ضمته فيها « جين » إلى صدرها !

واخيرا تكلمت جين قائلة : « اتعنى أنك تريد أن تسألنى ان اكون .. أن اكون ذلك .. لك ؟ » . فأجابها بلهجة رقيقة، متهدجة من جراء صراعه مع نفسه حتى يحتفظ بهدوئه : « أجل يا عزيزتى .. لقد جئت ـ اخيرا ـ معتزما أن أطلب منك أن تكونى زوجتى ، ولكنى لا أقوى على أن اسالك ذلك الآن ، يا محبوبتى .. لا اقوى على أن اسالك أن تكونى ما أنت عليه فعلا ! .. فما كان الوعد ، ولا الاجراء الرسمى ، ولا تبادل خاتمى الخطبة ، ما كانت هذه كلها لتجعل منك زوجة لى أكثر مما كنته فى تلك اللحظات الرائعة ! » .

فاستدارت جين ببطء ، ونظرت إليه ، فما رات من قبل ضياء كهذا الذى تالق على وجهه ، ومع ذلك فقد أحست بتلكما العينين اللامعتين تخزانه، وكانهما سيفان . وتاقت نفسها إلى ان تحجبهما بيديها ، أو أن تأمره بان يحول بصره إلى الغابات أو إلى الماء ، بينما كان ماضيا فى إزجاء ذلك الحديث الحلو إليها . ثم وضعت إحدى قدميها على طرف السياج ، واسندت مرفقها إلى ركبتها ، وحجبت وجهها بيدها ، ثم اجابته محاولة أن تتكلم بهدوء : « لقد أخذتنى على غرة يا دال .. لقد رايت منك رقة وظرفا ورعاية ، منذ ليلة الحفلة الموسيقية ، وأدركت أن تفاهمنا التام فيما يتعلق بالموسيقى ونشوتها ، مع توثق الود بيننا ـ نتيجة الحديث الذى دار تحت شجرة الأرز ـ قد افضيا إلى صداقة وطيدة ، مبهجة .. واننى لأصارحك بأنها كانت ـ بل أنها ما تزال ـ أقوى لدى من أية صداقة أخرى . ولكن هذا كان راجعا إلى طباعك

أنت يا دال ، فهى تجعل منك اقوى نقطة حية فى المجال الفكرى لأى إنسان . على أننى ظننت ـ فى الحق ـ أنك اردت ان تلتقانى هنا ، لتفضى إلى بما فى نفسك نحو « بولين ليستر » ، فان كل أمرىء يعتقد أن حسنها قد استولى نهائيا على قلبك .. والحق يا دال .. الحق أن هذا رأيى أنا كذلك ! » .

وأمسكت « جين » عن الكلام ، فانطلق ذلك الصوت الهادىء ذو النبرة الهائنة المنخفضة : « حسنا ، وها انتذى تعرفين عكس ما كنت تعتقدين » . فقالت : « لقد باغتتنى واذهلتنى يا دال ، ولا أستطيع أن أعطيك رأيا الليلة ، فدعنى إلى الغد .. غدا صباحا ! » . فأجابها « جارث » فى حنان ، وهو يقترب قليلا منها : « ولكن ، أن حاجتك ـ يا حبيبتى ـ إلى الإجابة ، لا تزيد عما كان بى من حاجة إلى السؤال .. الا تدركين ذلك ؟ ان السؤال والرد قد تبودلا الآن فعلا . أواه يا أعز حبيبة .. عودى ، واجلسى ثانية ! » .

غير أن « جين » ظلت جامدة فى وقفتها ، وقالت : « لا .. لن أسمح لك بأن تأخذ الأمور على علاتها بهذه الطريقة .. لقد أخذتنى على غرة ، ففقدت رشادى كلية ، وهو أمر لا اغتفره لنفسى .. ولكن الزواج ـ يا فتاى العزيز ـ أمر خطير .. ليس الزواج مجرد عاطفة ، إذ أنه يجب أن يدوم ولا يبلى .. يجب أن يقوم على دعائم قوية واساس متين ، ليحتمل تجارب وأعباء الحياة اليومية المشتركة ، وانى لأعرف كثيراً من الأزواج والزوجات عن كثب ، أعيش معهم فى دورهم ، واقوم بدور العرابة لأطفالهم ، فخرجت من ذلك بأن شاهدت

نفسى على الا اعرض نفسى لهذه الحياة .. والآن وقد تركتك توجه إلى هذا السؤال ، فلا تعجب إذا طلبت منك أن تمهلنى اثنتى عشرة ساعة للتفكير فى الأمر ! » .

وصمت « جارث » فلم يحر جوابا ، وجلس على الدرج الحجرى وظهره إلى البحيرة ، وقد مال برأسه إلى الوراء محاولا رؤية وجهها ، ولكن يدها كانت تحجب وجهها تماما . فعقد ركبتيه ـ احداهما فوق الأخرى ـ ثم ضمهما براحتيه ، واخذ يهتز وئيدا إلى الأمام وإلى الوراء لدقيقة ، محاولا أن يسيطر على نزعة كانت تدفعه لأن يتكلم أو ليتصرف بشدة وعنف .. وسعى إلى ان يسيطر على فكره بأن يوجهه إلى توافه كانت تلوح لناظريه .. كان جورباه الأحمران يظهران بجلاء فى ضوء القمر، وفوق ارض الشرفة البيضاء ، وقد اتسقا مع حذاءيه الأسودين اللامعين .. كان دائم الحرص على أن يرتدى جوارب حمراء مع ملابس السهرة ، فراح يفكر فيما إذا كان له ان يطلب إلى « جين » أن تنسج له عددا منها .. ثم اخذ يحصى نوافذ واجهة القصر ، باحثا عن نافذته ونافذة جين ، وكم نافذة تفصل بينهما .. وأخيرا شعر بأن لديه من البواعث ما يكفى لأن يثق بنفسه ، فمال إلى الوراء ورأسه المكسو بالشعر الأسود الأملس ، يكاد يلمس كمى ثوبها . وبدأ حديثه فى رفق قائلا : « نبئينى أيتها العزيزة .. الم تشعرى منذ لحظات .. ؟ »

فصاحت به جين فى شىء من الجفاء : « صه ! اصمت يا دال !.. لا تتحدث عن المشاعر وهذا الموضوع معلق بيننا ..

ان الزواج واقع وليس شعورا ، فاذا أردت الخير الحقيقى لكلينا ، فادخل الدار فورا ، ولا تحدثنى الليلة بشىء !.. لقد سمعتك تقول انك ستجرب أرغن الكنيسة فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر ، فليكن .. سأوافيك هناك بعد الحادية عشرة وأستمع إليكَ وانت تعزف .. وعند الظهر تماما، سنصرفَ الغلام الذى ينفخ الأرغن ، ثم أعطيك جوابى .. اما الآن ، فبربك دعنى واذهب يا عزيزى ، لأننى ـ فى الواقع ـ لم أعد أحتمل فوق ما احتملت ، ولا بد لى من ان اخلو إلى نفسى ! » . ففكَ جارث يديه عن ركبتيه ، ومد اليد القريبة منها ، متسللة فوق السياج نحو حذاء « جين » . وشعرت الفتاة به يمسك بثوبها بأصابعه الرشيقة ، ثم حنى رأسه بسرعة وهو يهمس ، وقد تجلت عليه مظاهر الخشوع المتناهى والحنان البالغ : « فلأقبل الصليب ! » . وبحركة لم تقو جين على نسيانها ، انحنى فلثم طرف ثوبها .. وان هى إلا لحظة حتى الفت نفسها وحيدة ! !

* * *

وانصتت إلى وقع خطواته وهى تبتعد ، وسمعت باب البهو الخارجى يفتح ثم يغلق . وجلست ـ وهى ساهمة ـ ذات الجلسة التى كانت فيها حينما جثا أمامها . وها هى ذى وحيدة تماما ، وقد بدأ التوتر ـ الذى جثم عليها فى اللحظات القاسية ـ يخفَ ويهدأ . وضغطت بكلتا يديها « الدانتلا » التى كانت فوق صدرها ، والتى التصق بها ذلك الوجه الحبيب الجميل .. لقد سألها عما إذا كانت قد شعرت

.. أواه ، وما الذى لم تشعر به ؟ .. وكانت دموع « جين » عصية لا تسيل بسهولة .. أما الليلة ، فقد ناداها باسم لم يخطر لها يوما أنها ستنادى به ، وقد حدثها قلبها الصادق الشريف بأنها لن تسمعه أو تنادى به بعد ذلك . ومن ثم فقد انهمرت دموعها الصامتة ، وتساقطت على يديها ، وفوق « الدانتلا » المسدلة على صدرها . ذلك لأن الزوجة والأم ـ الكامنتين فى أعماقها ـ استيقظتا وتحركتا الليلة ، وشقت أعماق فطرتها موانع الكبح القاسى وضبط النفس ـ الذى كانت تمارسه بعزيمة الذكور ـ ثم أبت هذه الفطرة ان تعود إلى حيث كانت ، دون ضريبة نسوية ، تمثلت فى الدموع !

وتحت قدميها ، تناثرت أوراق الورد الذابلة وقد تفتتت واصبحت هباء !..

وما لبثت « جين » ان ولجت الدار .. وكان البهو العلوى مكتظا بزمر مرحة من القوم ، وقد أخذ الرجال يلقون تحيات المساء على السيدات وهن يصعدن درجات السلم ، ويتوقفن لماما لرد التحية أو لتأكيد خطة للغد .. وكان « جارث دالمين » يقف فى أسفل السلم ، منصرفا إلى حديث مع بولين ليستر وعمتها ، وكانتا قد بلغتا الدرجة الرابعة من السلم . ولمحت جين ـ عند دخولها البهو ـ قامته المعتدلة ، ورأسه اللامع الأسود .. وكان موليا ظهره نحوها . ولم يبد منه ما نم عن شعوره بوجودها ـ برغم اقترابها منه ـ ولكن رنة الطرب فى صوته ، بدت كما لو كانت تؤكد أنه لها دون سواها ، فقد كانت « جين » هى الوحيدة التى تدرك السر فى انشراحه..

ووضعت يدها فوق صدرها ـ بحركة لا شعورية ـ وهى تنصت إلى جارث إذ قال : « آسف جد الأسف يا سيدتى ، لن أستطيع مرافقتكما صباح باكر ، اننى على موعد هام فى القرية .. أجل، فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر !».

وقالت السيدة باركر بانجس : « ان اعتذارك ذو طابع ريفى بديع .. ولم لا تصطحب بولين وإياى ؟.. اننا لم نشاهد بعد مصانع الألبان ، ولا صانعات الألبان ، ولا اى شىء مما ورد فى قصة « آدم بيد » (١) منذ وصولنا . وكم أود ان اذهب إلى مطبخ السيدة « بويزر » ، وارى صورتى منعكسة على الآنية المعدنية المعلقة إلى الجدران » ، فغمغمت لها الآنسة ليستر فى شمم : « ربما كنا زائدتين عن العدد الذى يتسع له المصنع ! » .. ولاحت بولين رائعة متالقة فى ثوبها الحريرى الأبيض ، وقد ارتفع رأسها الصغير فى انفة ملكية ، وشع منها سناء الأنوثة الأمريكية . ولم تكن متحلية بأية مجوهرات سوى عقد من اللآلىء الثمينة ، المتناسقة ، زاده بريقا عنق بولين !.. كل هذه المحاسن الموجهة إلى « جارث » لم تلبث أن تجاوزت رأسه ، وترامت إلى جين ، حيث كانت تتلكأ فى مؤخرة القوم . فألمت عيناها بكل دقائقها ، وأقرت بأن الآنسة ليستر لم تكن ـ فى أى وقت ـ أحق بالاطراء والاعجاب منها فى تلك الليلة !

وقال جارث : « ولكن الأمر لا يتصل ـ للأسف ـ بمصنع

---

(١) قدم « كتابى » ملخصا لقصة « آدم بيد » فى العدد (٥٢) .



الألبان أو بالآنية المعدنية . ان موعدى مع غلام صغير هزيل ، كل ما فيه رأس يكسوه شعر أحمر مجعد ، ووجه قد زركشه النمش ! » . فقالت الآنسة ليستر فى تساؤل : « أهو عمل خيرى ؟ » . وكان جوابه : « أجل ، بمعدل ثلاثة بنسات للساعة ! » . فصاحت السيدتان معا : « آه . . غلام طبعا ! » . وأردفت مسز باركر بانجس : « يا للعجب ! اى مشكلة نثيرها حول أمر غاية فى البساطة ! . . والآن ، لقد سمعنا ـ يا سيد دالمين ـ بأن مشاهدتك فى لعب التنس تستحق مشقة السير إلى الملاعب ، فتوقع أن ترانا قادمتين فى وقت يتيح لنا أن نراك وأنت تبدأ اللعب ! » .

وأومضت عينا جارث ، فخيل لجين أنها سمعت للوميض رنينا فى صوته ، وهو يقول : « انك تغالين فى تقدير لعبى ، يا سيدتى العزيزة ، كما أن رقة قلبك المتناهية تجعلك تغالين فى أشياء كثيرة تتعلق بشخصى . . غير أنى أود أن أذكرك بحلقة الجولف فى الساعة الحادية عشرة من صباح باكر . ولك أن تستقلى عربة إلى ملعب الجولف ، وان كنت أرى أن للسير خلال الغابات فتنة . وكل ما عليك هو أن تتذكرى أن عليك أن تجتازى الحديقة ، وأن تخرجى من الباب الشمالى ، وليس من المدخل الرئيسى الذى نسلكه إلى محطة السكة الحديدية . لقد كان بودى أن أرافقكما ، لولا أن الواجب يتطلب أن أنطلق ـ فى البكور ـ فى اتجاه آخر . وفوق ذلك ، فان مجرد العلم برغبة الآنسة ليستر فى زيارة الملعب ، ستدفع الكثيرين إلى أن يروا فى « الجولف » الشىء الوحيد الذى يؤثرونه بوقتهم

فى فترة الصباح غدا ، حتى اننى لن أكون أكثر من فرد وسط الحشد الذى سيتدفق عبر الحديقة إلى الباب الشمالى . . وسيكون من المستحيل أن تضلا طريقكما ! » .

وهمت السيدة باركر بانجس بأن تجادله لتبين له أنه لا يمكن أن يكون « مجرد فرد وسط الحشد » ، ولكن ابنة أخيها تدخلت ، قائلة فى حزم : « كفى يا عمتى ، دعى السخف ، فكلنا مجرد أفراد ، اللهم إلا إذا تجمعنا ، كما نفعل الآن فوق هذا السلم . . إذ أن تجمهرنا يحول دون مرور الآنسة شامبيون ، التى تحاول ـ منذ برهة ـ أن تجد لنفسها منفذا ، لتصعد إلى حجرتها . . هل ستلعبين الجولف غدا يا آنسة شامبيون ؟ » .

وعند ذلك تنحى « جارث » جانبا ، فتقدمت « جين » صاعدة الدرجات . ولم ينظر إليها ، ولكنها لمحت عينيه تحدقان فى ذيل ثوبها ، عندما مرت بجواره . وتوقفت قليلا بجانب الآنسة ليستر ، موقنة من أنها خليقة بأن تبدو دمية بجانب حسن الأمريكية وبياض بشرتها . ثم استدارت وواجهته ، وتمنت أن ينظر إليهما وقد وقفتا معا . كانت تهفو إلى أن تلمح عينا الفنان الفارق القاسى بينهما . وكانت تبغى أن تتبين روحه الفنانة ذلك !

وظلت ترتقب . ولكن عينى « جارث » ظلتا متشبثتين بذيل ثوبها ، فى ناحية حذائها الأيسر . ثم رفع رأسه ببطء ، ناظرا إلى « الدانتلا » المسبغة على صدرها ، حيث كانت يدها . وبقيت عيناه لحظة هناك ، ثم هبطتا دون أن ترتفعا إلى أعلى .

بينما قالت السيدة باركر بانجس : « هل ستلعبين مع السيد دالمين باكر قبل الظهر يا آنسة شامبيون ؟ » .

وتضرج وجه « جين » فجأة ، فسخطت على نفسها لهذا التضرج ، وحنقت على الظروف التى جعلتها تحس وتعمل ما لم يكن فى طباعها من قبل .. وترددت فى هذه اللحظة الطويلة ، البغيضة ، لتسائل نفسها : « كيف جرؤ « جارث » على مثل هذا المسلك ، الذى قد يوحى إلى الناس بأن فى ثوبها شيئا غير مألوف ؟. واستبد بها نزوع إلى أن تنحنى لترى بنفسها ما إذا كانت قبلته قد تجسمت فى شكل نجمة علقت بالذيل الحريرى !.. ولكنها غصبت نفسها على التجلد ، وأجابت فى شىء من الحدة : « لن ألعب الجولف باكر ، ولكنكما لن تجدا أفضل من مشاهدة الحلقات .. سعدت مساء يا سيدة باركر بانجس .. نوما هنيئا يا آنسة ليستر .. عم مساء يا دال ! »

وكان دال واقفا على الدرجة السفلى من السلم ـ وهو يناول عمة بولين خطابا سقط منها ، فأجاب قائلا : « عمى مساء يا آنسة شامبيون » .. والتقت عيناه بعينيها ، ولكنه لم يبسط إليها يده ، ولم يبد أنه لمح يدها نصف مبسوطة إليه !

* * *

وصعدت السيدات الثلاث درجات السلم معا ، فذهبت كل إلى حجرتها : سارت الآنسة ليستر فى ردهة إلى اليمين، وسارت عمتها متعثرة خلفها ، وإذا بها تقول لها : « لقد دب

بينهما شقاق الليلة ! » . فقالت الآنسة ليستر فى صوت خافت : « مسكينة !.. اننى أميل إليها ، فان عنصرها طيب ، واكاد اقتنع بأنها أكثرنا جميعا عقلا واتزانا» . فتجاهلت عمتها الجملة الأخيرة ، وقالت : « انها مثال ناطق للملامح البسيطة .. الخالية من الجمال ! » . فأجابتها الآنسة ليستر فى انصاف : « انها لم تصنع وجهها بيدها ! » .

ـ كلا .. وليست تملك أن تدفع اجرا للغير كى يصنعوه لها .. هى كما قال سير والتر سكوت : « الطبيعة فى خشونتها » !

فقالت الآنسة ليستر فى ضجر : « ليتك لا تجهدين نفسك ـ يا عمتى العزيزة ـ بترديد أمثال من الأدب الإنجليزى القديم عندما نكون معا ، على حدة . ان هذا يستنفذ انفاسك دون طائل ، لأننى ـ كما ترين ـ أعلم جيدا انك قرأت الأدب القديم .. ها هو ذا باب حجرتى ، تعالى معى واستريحى على ذلك المضجع ، بينما أجلس أنا فى المقعد المريح المقابل له ، وادلى إليك ببعض بيانات تمس إليها الحاجة .. أواه ، كيف تشد هذه المقاعد المرء إلى الأرض ! لا بأس بهذه القصور العتيقة بحالتها الحاضرة ، غير أن القوم يجهلون كل ما يتعلق بالمقاعد المتأرجحة .. والآن ، لدى كلمة أو كلمتان اريد ذكرهما لك عن الآنسة شامبيون .. انها فى الواقع طيبة ، وانى لأميل إليها .. انها ليست جميلة ، ولكن لها قواما أهيف ، وذوقا حسنا فى اختيار ملابسها .. ثم انها تملكَ ثروة طائلة ، وكان بوسعها أن تمتلك لآلىء أثمن مما أملك ، غير أن ادراكها السليم يمنعها

من ان تتحلى بلآلىء على بشرتها السمراء . وانى لاحب المراة
التى تعرف حدودها ، وتحرص على التزامها .. ان الرجال
جميعا يعبدون هذه الفتاة ، لا لمظهرها ، وإنما لشخصها ، وهذا
فى رايى ـ يا عمتى ـ هو الأبقى على مر الزمن .. هذا هو
الذى يدوم . فبعد مضى عشر سنوات ، ستكون النبيلة «جين»
كما هى الآن ، فى حين اننى ساكون منصرفة إلى محاولة اكتساب
مظهر ليس لى . أما « جارث دالمين » ، فان عينيه تنصب علينا
جميعا ، ولكن قلبه لا ينصرف إلى واحدة منا . ان أحاديثه
الطلية ونظراته المعجبة لا تعنى الزواج ، لأنه رجل يبحث عن
المراة المثالية ، ولن يرتضى أن يتزوج بمن دونها .. ولو أن
العذراء هبطت من السحب ، وأسلمت الطفل إلى الشابة التى
تكون إلى يسارها ، فانه قد يقبل الزواج منها ، ولكنه ـ مع
ذلك ـ قد يظل موجسا من أن يرى ـ فى اليوم التالى ـ امراة
أخرى تصفف شعرها بشكل أجمل ، أو ان يكتشف أن قدم
عروسه لا تبدو على السجاد العجمى بالجمال الذى كانت تبدو
به فوق السحب . انه لن يتزوج مالا ، لأن لديه منه الكثير ..
ولو لم يكن لديه منه شىء فان المال المصنوع فى شموع لا يروق
له .. وهو لن يتزوج جمالا ، لأنه يفكر فيه أكثر مما ينبغى .
وانه ليشغف بوجوه لا حصر لها ، حتى انه ليظل طيلة الساعات
الأربع والعشرين ، عاجزا عن أن يتبين اى هذه الوجوه أحظى
بإعجابه ، واذكرى أن الفاكهة التى لا سبيل إلى بلوغها هى
اشهى الفواكه عادة .. ثم انه لن يتزوج الطيبة أو الفضيلة
أو الجدارة ـ سمها ما شئت ، لأن النبيلة « جين شامبيون »
هى المثل الأعلى ـ فى كل هذا ـ لديه .. وهى أعقل من أن

تربط مثل هذا الرجل المشتهى بوجهها الخالى من الجمال
فضلا عن انها ، تعتبر نفسها جدته ، ولا تقبل منه أن يضع
نفسه منها موضع المعلم والمربى .. انما محنة « جارث
دالمين » المسكين ، هى فى افتقاره إلى الثقة بالنفس ، وإلى
الشعور السامى الذى يجعله يفطن إلى قدرته على الظفر
بمثله الأعلى . ولكن ما اقسى الصفعة التى سيتلقاها يوم
تقول له : « لا » !.. لقد كان ـ طيلة الأيام الثلاثة ـ يعبد
الأرض التى تسير عليها، ويعبد الساعات التى سيلقاها بعدها،
أثناء تحويمه حولى ، وحولك ، وحول الحمير الحمقى ، التى
كانت تتواثب حولنا ، وهى واثقة من أننا قد سقطنا فى الحب..
لقد تلهى وسر كثيرا من ملازمتى ، أكثر من سروره بالفتيات
الأخريات ، لأننى كنت أفهمه جيد الفهم ، وقد ساعدته فى
تنسيق الحديث الذى يقوله لها .. وقد أدرك ذلك عند
وصولها ، وعرف أن من الممكن أن يعتمد على فى إثارة ما
يشغلك ، أو حملك على تحرير خطابات هامة ، كلما رايتها
مقبلة .. هذا قصارى ما كان بينى وبين « جارث دالمين » .
وإذا كان لديك أى حرص على عواطفى الشابة ، فما عليك
سوى إسقاط طاقم أسنانك الصناعية فوق حوض الغسيل
الرخامى ، أو أن تتذرعى بأية حجة أخرى لنرحل إلى
المدينة فى صباح باكر .. أما الآن يا عزيزتى ، فلا تضيعى وقتك
فى مناقشتى ، فلقد حدثتك بدقة وأمانة تامة عن كل ما يمكن
تبيانه بصدد هذه المسألة ، بل أكثر من ذلك .. فحاولى أن
تقفزى إلى فراشك دون أن تحدثينى عن أية شخصية من

شخصيات قصص « ديكنز » التى تشبهنى ، لأننى أذكى منهم جميعا ، ولأننى ـ إذا بقيت دقيقة أخرى داخل هـذا الثوب المشدود ـ فلست أدرى ماذا ستكون النتيجة » .. وسمعت طرقات وصيفتها إذ ذاك ، فهتفت : « نعم ، ادخلى يا جوزفين .. وعمى مساء ياعمتى العزيزة .. أتمنىلك أحلاما سعيدة!» .

ولكن بولين أطفأت النور الـكهربائى ـ بعد أن بارحت الوصيفة غرفتها ـ وأزاحت الستار قليلا ، ثم وقفت طـويلا فى النافذة تتأمل الطبيعة الإنجليزية الهادئة ، وهى تسبح فى لجين القمر . وأخيرا تمتمت بصوت خافت ، ورأسها مسـند على حافة النافذة : « لقد شرحت قضيتك شرحا وافيا يا دال ، ولو أنك لا تستحق منى ذلك .. لقد كان فى وسعك أن تطلعنى ـ منذ أسابيع ـ على أمرك مع جين . اننى احمد الله لان ذلك سيوقف تيار الأقاويل عنى وعنك .. أما أنت أيها العزيز ، فستبقى هائما فى تنهداتك تحرقا منك إلى بلوغ القمر ، حتى إذا تعـذر عليـك بلوغه ، فلن تجـد السـلوى فى الأجرام الأرضية ! » .. وبهذا ختمت بولين مناجاتهـا ، وقـد افتر ثغرها عن ابتسامة شاردة . فقد امتازت بولين بأن روح المرح تتألق عليها فى وحدتها ، كما تتألق أمام الناس . وقد يكون ذلك على حسابها ، كما يكون على حساب غيرها !

***

أما جين . فقد سارت فى الردهـة اليسرى ، حتى بلغت حجرتها ، وولجتها فى بطء وسـكون . ان جارث لم يبسـط يده ليتلقى يدها ، ولقد فطنت جيدا إلى ما دفعه لذلك ، فما

كان ليرتضى ـ بعد اليوم ـ أن يصافحها فى صداقة .. وهى إذا حرمته من اللمسة التى تعنى الامتلاك التام ، فانما تحرم نفسها من عرى الزمالة البسيطة . لقد كان « جارث » الليلة كالنمر الملكى الذى تذوق طعام الدم ، فلا يعود يرتضى عنـه بديلا .. وبدا لها الشبه غريبا ، وهى تتمثله فى ملابس السهرة التقليدية ، أنموذجا للأناقة ، والرشاقة ، دون أن يشوبه أدنى عيب .. ولكنها تبينت فيه لأول مرة ـ وهما معا فى الشرفة ـ كل العناصر البدائية التى تجعل منه رجلا .. رجلا قـويا ، شديد العزم ، مسيطرا .. العناصر التى تصنع الملوك !.. ولمست فيه أصداء أدغال العصـورر الأولى .. فيها زمجرة الأسد ، وشراسة النمر ، وغريزة التملكَ التى تصيح : « انها لى أحرزها ، واستبقيها ، وأحارب من أجلها ، واستمتع بها .. لسوف أذبح كل من يقترب منها ! » .. لقد شعرت بـذلك ، فاستوعبته روحها القوية الجريئة ، واستجابت إليه غير وجلة .. وكانت على استعداد لأن تستلين ، لو .. لو .. فقط ! آه ، لو ..! غير أن عجلة الزمن لا تستطيع أن تدور إلى الوراء ، وإذا فكرت فى أن تجيع نحرها فلا بد من أن تقيم بينهـا وبينه قضبانا فولاذية راسخة .. فلن يرتضى الرجل الذى أسـندت رأسه إلى صدرها دون أن تعى ـ بشىء من تلك الاقتراحات العاطفية ، التى تهدف إلى الابقاء على علاقتهما كمعبر يصل بين الأخت والصديق !.. لقد أدركت جين كل ذلك . أما هو فقد احتفظ بكرامته ، وتملكَ زمام أعصابه ، بعد أن صدته عنها .. غير أنها كانت تعلم انه بذلك يعطيها فرصة تسترد فيها أنفاسها ، وهو ما يزال يعتبرها ملكا خاصا له ، وكان يقينه

الجازم بالمستقبل ، هو الذى وهبه الصبر الرقيق فى الفترة الراهنة . ولكنه مع ذلك ابى أن يتناول يدها فى مصافحة الصديق ، وهى بعد لم تفضى إليها بجوابها !

وأوصدت جين بابها بالمزلاج ، إذ رأت لزاما عليها أن تواجه معضلة المستقبل بمعزل عن العالم بأسره .. الا ليتها تستطيع ان تتناسى العالم كله ، فتقصر تفكيرها على « جارث » وعلى حبه . فقد كانا اجمل وافخر منحتين طرحتا تحت قدميها ، ولها أن تلتقطهما فتضمهما بين ذراعيها الخاليتين ، حيث تبقيهما إلى الابد . وحلا لها أن ترجح ذلك برهة ، كان من حقها أن تهنأ بهذا الادراك ساعة .. ثم يجب أن تواجه المشكلة : امكانياتها ، وحدودها ، ونفسها ، وعلاقتها بجارث فى المستقبل ، وأثر زواجها منه عليه .. اما ما يعود عليها هى من هذا الزواج ، فلم يكن يخطر ببالها ، أو يدخل فى حسبانها. لقد أوتيت « جين » شعورا ذاتيا عارما ، كذلك الشعور الذاتى الذى يكمن فى جميع النفوس التى فطرت على التحفظ ، ولكنها لم تكن محبة لذاتها .

وكانت قد تركت حجرتها فى الظلام ـ فى بادىء الأمر ـ فتحسست طريقها إلى الستائر وأزاحتها ، ثم رفعت الحاجز الخشبى ، ونقلت مقعدا إلى النافذة ، حيث جلست ملقية ساعديها على حافتها ، معتمدة ذقنها فى راحتيها ، وراحت تطل على الشرفة التى كانت ما تزال تسبح فى نور القمر .. وكانت نافذتها تقع فى مواجهة المكان الذى تبادلت فيه الحديث مع « جارث » . ورأت الأسد الحجرى وأصيصا مليئا بزهور

« الجيرانيم » القرمزية ، ثم استقر بصرها على عين البقعة التى كانت تجلس فيها حينما ... وهنا تيقظت ذاكرتها فى رجفة . واستسلمت جين ـ إذ ذاك ـ لاعجب تجربة عقلية مرت بها فى حياتها .. لقد كانت امرأة ذات هدف وعزيمة ، وقد قالت لنفسها ان لها الحق فى أن تهنأ باستعراض ما جرى ساعة ، وقد نعمت بهذه الساعة كاملة . لقد التقت ـ فى نفسها ـ بنمرها وائتلفت معه دون خوف أو وجل ، فلم يسأل عما إذا كانت تحبه أم لا ، ولم تكن هى فى حاجة إلى ان توجه لنفسها هذا السؤال . ومن ثم اسلمت قيادها وحريتها الأبية فى حنان ، وتواضع ، وشوق .. ووعدت ـ بجماع ما فى فطرتها من قوة ـ بأن تحبه وتكرمه وتطيعه . ولقد تقبلت الاعجاب الذى فاضت به عيناه الجميلتان ، دون أن تهتز فيها جارحة .. لقد حبست جسمها بعيدا عن فكرها ، وخلت إلى روحها .. وكانت روحها كاملة الجمال .. أصلح ما تكون له !

وهنا انزاحت عنها ذكريات سنين الوحدة ، فاذا الحياة أمامها غنية وعامرة بالآمال . فهو فى حاجة دائمة اليها ، وهى باقية دائما رهن اشارته ، وفى وسعها دائما أن تسد حاجته .. وراحت تسأله ـ فى خيالها الجميل هذا ـ « هل انت راض يا حبيبى ! » .. وألقت السؤال تكرارا ، فكان صوت «جارث» المرح الذى يتفجر شبابا وفتوة ، يجيبها : « أنت الرضى ! » .. فابتسمت جين لليل ، وانبثق فى أعماق عينيها الهادئتين نور معرفة كانت حتى هذه اللحظة لا تدرى بها ، ومع ابتسامتها

الرقيقة أحست برعشة حلوة لا سبيل إلى وصفها ، وقد ادركت أسرار أصدق ما بداخل المرأة من الوان السعادة .. وتمتمت لنفسها : « أنه لى وانا له .. وان حبيبى لفى أمان ، لانه لى .. وانه لسعيد راض ، لأننى له ! » .. وهكذا أسلمت نفسها تماما لأحلامها ، وقد ضمت « جارث » تحت جناحى حبها ، وامتلأ قلبها الكريم بعظمة هذه المنحة . ثم استيقظت فيها طبيعة الأم ، فأدركت مقدار الحب الأموى الذى يتدفق فى فيض حب المرأة الصادقة ، عندما تدرك مدى طغيان طبيعة الطفل على الرجل المحب ، وكيف أن شدة حاجته إليها تهبط بالنفس القوية ــ التى أصبحت « هى » لازمة لها ــ إلى درجة غير عادية من الضعف !

وهنا ضغطت صدرها بيدها ، وهى تهمس : « جارث ، جارث !.. اننى افهم الآن ! لقد كان شاقا عليك ــ يا بنى المحبوب ــ أن أردك عنى إذ ذاك . ولكنك ظفرت فى تلك اللحظات الرائعة بكل شىء .. بكل ما أردت ، وليس هناك ما يسلبك هذا الأمر الواقع .. لقد جعلتنى لك ، فلن يضم صدرى وجها آخر ، مهما يحمل المستقبل لكَ أو لى !.. ان صدرى لكَ ، وانا لكَ الليلة .. وإلى الأبد ! » .. ثم ألصقت جبينها بحافة النافذة ، فسقط ضوء القمر الفضى على خصلات شعرها الداكن الغزير . وتضوع عبق المانوليا حولها . وتردد ــ فى غابة قريبة ــ تغريد كروان ساهر .. وانجابت عن « جين » سنين الوحدة الماضية ، ولحظات الحيرة الحاضرة ، والمستقبل المبهم .. وراحت تمخر مع «جارث» ــ فى الخيال ــ

عباب محيط ذهبى ، بعيدا عن شواطىء الزمن .. لأن الحب أزلى ، ومولد الحب يحرر الروح من كل حدود الجسد !

* * *

ودقت ساعة بعيدة ــ فى القرية ــ معلنة انتصاف الليل ، فسرت الدقات الاثنتا عشرة عبر الحديقة ــ التى أنارها القمر ــ إلى نافذة جين .. ها قد عاد الزمن ثانية . وعادت روحها المتحررة إلى حمل أثقال الجسد !.. وبدأ يوم جديد .. اليوم الذى وعدت جارث فيه بردها . فعندما تدق الساعة الثانية عشرة ــ مرة أخرى ــ ستكون واقفة بجواره فى الكنيسة ولابد من أن يكون ردها معدا .. وعند ذلك ارتدت عن النافذة دون أن تغلقها ، بل اكتفت بأن أسدلت عليها الستار ، ثم أضاءت النور الكهربائى فوق منضدة الكتابة . وخلعت ثوب السهرة فعلقته فى مشجبة ــ داخل خزانة الملابس ــ وارتدت ثوبا أخضر فضفاضا ، ابتاعته حديثا بثمن بخس لأن أحدا لم يشأ أن يشتريه .. واتخذت مجلسها أمام منضدة الكتابة ، وأخرجت مفكرتها اليومية ففضت عنها غلافها ، وبدأت تقرأ .. وقلبت صفحاتها فى تؤدة ، متوقفة للحظات هنا وهناك ، حتى عثرت على ما كانت تنشد ، فأطرقت مفكرة ورأسها مسند فوق يديها ، فقد حوت الصفحة حديثها مع جارث فى يوم حفلة (أوفردين) .. وبدأت تلاوة ما كان مدونا بها ــ حرفا بحرف ــ فكانت السطور التى عنيت بها ، تتضمن : « لقد تبدل منظر وجهه ، فأشرق محياه بشعاع من الطيبة والإلهام ، حتى شابه وجه ملاكَ .. فلم أعد أعتبره قبيحا بعد

ذلك ، لأن جمال روحه قد تألق على سطح جسده فكساه سناء . ومع أننى كنت صبيا ـ إذ ذاك ـ فقد أمكننى أن أفرق بين الدمامة وتجرد القسمات من الجمال .. ومن ذلك الحين، اصبحت اقرن وجهه بجمال روحه العجيب .. وعندما جلس بعد انتهاء موعظته ، لم أعد أرى فيه شبها بالشمبانزى ، وإنما تذكرت ما كان لابتسامته من سنى سماوى . وما كان وجهه بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو أن يلقاه يوما بعد يوم على المائدة ـ فى الواقع ـ ولكن المرء لم يكن مضطرا إلى أن يقبل وضعا كهذا ، يمكن أن يسمى ـ فى رأيى ـ استشهادا . وقد انطبعت ذكراه فى مخيلتى من ذلك الوقت كبرهان ناصع على الحقيقة الواقعية .. على أن الطيبة لايمكن أن تكون دمامة أبدا . وأن الحب العلوى والإلهام السماوى إذا انبثقا من أبسط القسمات وأكثرها تجردا من الجمال ، تحولا مؤقتا إلى جمال ، ودائما إلى شىء يحب الإنسان أن يذكره !» .

قرأت جين الصفحة كلها ـ فى البداية ـ ثم تركز نظرها وعقلها على جملة واحدة هى : « وما كان وجهه بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو أن يلقاه يوما بعد يوم على المائدة ، فى الواقع .. يمكن أن يسمى ـ فى رأيى ـ استشهادا » !..
وما لبثت أن نهضت ـ أخيرا ـ فاضاءت جميع مصابيح منضدة الزينة ، والمصباحين الباهرين القائمين على جانبى المرآة ـ بوجه خاص ـ ثم جلست أمام المرآة ، واخذت تفحص وجهها بكل نزاهة وصدق !

***

وعندما دقت ساعة القرية معلنة الواحدة صباحا ، وقف « جارث دالمين » فى نافذته ليلقى نظرة أخيرة على الليل الذى كان له اكبر الأثر عليه . وذكر ـ والابتسامة تعلو شفتيه ـ ما حدث وهو جالس فى الشرفة ، وكيف أنه استعان لتهدئة نفسه بالتفكير فى جوربيه الأحمرين واحصاء النوافذ الواقعة بين نافذته ونافذة جين .. كانت خمس نوافذ ، وقد تعرف على نافذتها بشجرة المانوليا ، وبالمقعد المثبت تحتها ، والذى تصادف أن جلس فيه دون أن يفطن إلى وقوعه تحت نافذتها .. وعند ذلك مال بجسمه خارج النافذة ليشهد نافذتها ، فرأى الستار مسدلة ، ولكن بصيصا من النور كان ينفذ إليه من بين شقيها .. وفيما هو يحملق ، انطفأ النور !

وعاد بنظره إلى الشرفة ، فرأى الأسد الحجرى وحوض « الجيرانيم » القرمزى ، واستطاع أن يحدد البقعة التى كانت جين تجلس فيها عندما ...

وإذ ذاك جثا على ركبتيه بجوار النافذة ، وتطلع إلى السماء المرصعة بالنجوم .. لقد عاشت أم جارث من العمر ما مكنها من أن تلقنه السر المقدس .. سر صبرها الجميل وقوة احتمالها . ففى لحظات الجيشان العاطفى ، كانت كلمات من « التوراة » ـ التى ورثها عن أمه ـ تتبادر على لسانه ، أسرع من العبارات التى تعبر عن أفكاره . لذلك راح يردد ـ فى خفوت وخشوع ـ وهو يتطلع إلى السماء : « كل عطية صالحة

وكل منحة تامة ، هى من فوق نازلة ، من عند أبى الأنوار الذى لا يتغير ، ولا يعتوره ظل من تقلب » . ثم أضاف مبتهلا : « يا أبانا ، احفظنا فى النور .. هى وأنا ! ولنكن مثلك، لا نتغير، ولا يعتورنا ظل من تقلب ! » .

وعند فراغه من هذا الابتهال ، نهض على قدميه ، فألقى نظرة ثانية على الأسد الحجرى ، وعلى السياج العريض .. وغردت روحه فى أعماقه ، وعقد ذراعيه فوق صدره وهو يهتف : « يا زوجتى .. يا زوجتى ! » .

. . . .

أما جين ، فكانت قد اهتدت إلى قرارها ، عندما دقت ساعة القرية مؤذنة بالواحدة ، ونهضت فى تراخ فأطفأت جميع الأنوار ، وتلمست طريقها إلى فراشها ، ثم جثت على ركبتيها بجوار السرير وأجهشت ، باكية فى يأس عميق صامت !!

الفصل الحادى عشر

كانت كنيسة القرية المحاطة بالخضرة تسبح فى ضوء الشمس ، عندما برزت جين من ظلال الحديقة الرطيبة .. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة والنصف ، فلم تر ما يستدعى العجلة ، لعلمها بأن موعوتها لم تكن مرتقبة قبل الثانية عشرة . وكانت نوافذ الكنيسة مفتوحة وكذا أبوابها البلوطية الثقيلة .. ووقفت جين تحت مظلة المدخل المغطاة بأغصان اللبلاب ، ترهف السمع ، فتناهت نغمات الأرغن إلى مسمعيها ، وكأنها منبعثة من مسافة بعيدة ، ولكنها — مع ذلك — توحى بالقرب .. كانت الانغام تنفذ متسللة خلال اليدين والقدمين ، وبدأ الأرغن كأنه يتنفس ، وأن أنفاسه كانت موسيقى !.. وما لبثت جين أن دفعت الباب الثقيل ليزداد انفراجه .. وجال بذهنها — إذ ذاك — أن الغلام الصغير — ذا الشعر الأحمر المجعد — وجارث ، بقامته الفارعة ، قد مرقا بسهولة خلال فرجة أبت أن تتسع لجسمها الكبير ، فدفعت الباب مرة أخرى ، ودخلت .

وتغلغلت فى روحها سكينة شاملة ، فى الحال . وكثيرا ما يساور الإنسان شعور « غريب » عند دخوله منفردا إلى كنيسة خالية ، فيخال أن فى المكان أشخاصا غير منظورين .. وكان الأثر الذى تركته السنون على الجدران العتيقة والمقاعد الخشبية — من بقايا أفكار المصلين على مدى الأجيال — قد أسكتت الحيرة الملحاحة التى استولت على جين ، فنسيت

— لبضع لحظات — المهمة التى أقبلت من أجلها ، وأحنت رأسها فى خشوع ، منساقة للعبادة التى عمرت بها الكنيسة أجيالا . وكان « جارث » يعزف ترنيمة : « هلمى أيتها الروح الخالقة » ، متبعا لحن « آتوود » بدقة . فلما سارت جين بخطى صامتة نحو الهيكل ، شرع يترنم بكلمات المقطع الثانى .. وكان يترنم بصوت خافت ، ولكن نبراته المتلئة المتسقة ، حملت كل حرف :

« اللهم امح بنورك الدائم الأزلى أعتام بصائرنا العمياء
« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة ، وأنرها بفيض مجدك ..
« وأبعد عنا أعداءنا ، هب السلام لأوطاننا ..
« فحيث تكون مرشدنا ، لن ينالنا سوء ! » .

ثم انطلق الأرغن بكل قوته ، مدويا بأنغام البيت الأخير ، دون كلماته ، فأخذت الكلمات التى أنشدها « جارث » تتردد فى ذهن جين مرارا : « فحيث تكون مرشدنا ، لن ينالنا سوء ! » .. أفلم تدع الله طالبة الهداية ؟.. إذن فلا بد أن تسير كل الأمور على خير حال !.. ووقفت عند عتبة الهيكل. وكان « جارث » قد عاد إلى المقطع الثانى ، وأخذ ينشده على أنغام ناى عال : « اللهم امح بنورك الدائم .. » .

وجلست جين على أحد المقاعد الخشبية ، وتلفتت حولها .. كانت أشعة الشمس تنفذ من الخارج ، خلال زجاج النوافذ غير النظيف ، ثم تتحول إلى خيوط ذهبية كهرمانية تتخللها

أسهم قرمزية .. ألا ما أجمل التعبير : « نورك الدائم » !.. وأخذت كل جملة تشق السكون — بينما كان « جارث » ينشدها — وكأنها أشعة الشمس الصافية .. وإذ قال « أعتام .. » ، لمحت « جين » قمة شعر رأسه الأسود ، من فوق ستار الأرغن المسرف الوشى .. وأوجست من اللحظة التى يرفع فيها رأسه ، فتقع عيناه الوضاءتان عليها .. « بصائرنا العمياء » .. ترى كيف يتلقى ما سوف تصارحه به وهل ستجد القوة التى تمكنها من اجتياز هذا الموقف الطويل القاسى ؟ وهل سيتحطم قلبه بشكل مؤلم ؟.. « وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة » .. وهل سيحاججها ، ويصر ، ويتغلب على قرارها ؟.. « وأنرها بفيض مجدك » .. وهل تستطيع أن تقاوم قوته الضارية إذا آثر أن يمارسها؟ وهل سيتمكن كل منهما من اجتياز فترة عصيبة كهذه ، دون أن يصيب الآخر بجرح بالغ ؟.. « وأبعد عنا أعداءنا ، وهب السلام لأوطاننا » .. أواه ، ماذا تملك أن تقول ، وما الذى سيقوله ؟ كيف تراه سيجيب ؟.. وأى سبب تعلل به رفضها النهائى ويقبله « جارث » ؟ .. « فحيث تكون مرشدنا ، فلن ينالنا سوء » .. وبعد أن عزف « جارث » بعض مقتطفات متناثرة ، انتقل إلى لحن آخر .

عند ذلك كف قلب جين عن الوجيب ، فلقد بدأ جارث يعزف « المسبحة » . ومع أنه لم ينشدها . إلا أن قوة الأنغام المنبعثة من أنابيب الأرغن ، لاحت ككلمات أشد وقعا مما لو رددها أى صوت، وبدا كأن لألاء الذكرى — فى صفاء نورها الباهر الثمين

ــ كانت تحمى واحدة واحدة ، خلال نغمات الناى الحزينة ، إلى ان إعلنت انغام ناى الأرغن العثور على الصليب ، فسكنت كلها فى قلب جين بمعان جديدة .. ثم أخذت تجيل النظر حولها فى حيرة بالغة وارتباك ظاهر ، وكأنها تتلمس سبيلا للهرب من النغم العذب الحزين الذى تردد فى أرجاء الكنيسة الصغيرة ..

* * *

وفجأة توقف الأرغن ، ونهض « جارث » واستدار .. ورآها ، وإذا بوجهه يشرق بنور فرح عظيم ، وقال مخاطبا الغلام نافخ الأرغن : « حسنا يا جيمى ، حسبنا هذا فى الصباح ، وهاك قطعة فضية لانك ابديت نشاطا فى نفخ الأرغن .. انه شلن . لا بأس ، خذه فهو منى لك اليوم ، لان اليوم يوم مجيد ، لم يمر بحياتى يوم على شاكلته يا جيمى ، واريد منك ان تكون فرحا مثلى !.. هيا اركض !.. أسرع وأغلق باب الكنيسة خلفك يا بنى ! » .. يا لصوته ، ويا لرنة الابتهاج التى تطفر فيه ، والتى هزت روحها !.. أما الغلام ذو الشعر الأحمر المجعد والوجه المنثور بالنمش ، فقد تهلل سرورا ، وخرج من خلف الأرغن ، فأفلتت من يده القطعة الفضية . واخذ فى البحث عنها حتى عثر عليها ، ثم خرج اخيرا ، وأغلق خلفه الباب الثقيل ، بصوت شديد مدو .

وبقى جارث واقفا بجانب الأرغن دون حراك ، ودون ان يرفع نظره نحو جين .. فلقد اجتاحته ــ إذ اصبحنا وحيدين فى الكنيسة ــ رهبة الموقف . وتمهل بضع لحظات لاحت لجين

وكأنها ايام ، بل اسابيع ، بل اعوام ، بل دهر ، ثم خرج من وراء الأرغن إلى وسط الهيكل ، ووقف مرفوع الراس وعيناه تومضان ببريق خاطف ، وبدا وكأنه فاتح واثق من النصر !.. ثم مشى إلى الحاجز ذى النقوش العجيبة ، المصنوع من خشب البلوط فعبره ثم وقف على الدرجات المؤدية إلى الهيكل، واشار إلى « جين » لتتقدم وتقف بجانبه ، وهو يقول لها : « هنا يا عزيزتى .. ليكن هنا ! » .

وتقدمت جين نحوه وبقيا معا لحظات يحدقان بالهيكل فقد كان أشد عتمة من باقى الكنيسة ، إذ لم تكن تضيئه سوى ثلاث نوافذ ضيقة ذات زجاج ملون ومزركش ، يمثل صورا ووقائع دينية معروفة .. وكانت النافذة الوسطى تقع تماما فوق « مائدة المناولة » ، وقد رسمت عليها صورة المسيح مصلوبا .. فنظر كلاهما إلى الصورة فى صمت وخشوع ، ثم التفت جارث إلى جين وقال : « يا حبيبتى .. اننا هنا فى حضرة قدسية ، ومكان مقدس ولكن قدسية المكان لن تقف حائلا دون الافضاء بما لدينا من حديث . وان الروح القدسية التى يؤمن بها كلانا ، لقادرة على ان تحل فى وسطنا فى هذا المكان ، لتبارك حديثنا وتصادق عليه .. إننى فى انتظار ردك ! » .

وإذ ذاك جاهدت جين لتجلو حنجرتها ، ووضعت يديها المرتعشتين فى جيوب سترة ردائها ، ثم قالت : « دال ، ان ردى يتمثل فى سؤال .. ما عمرك ؟ » .. واحست بعنف الدهشة التى ألمت به .. وإذا سناء الرجاء البهيج الذى كان

يكسو وجهه قد خبا .. غير أنه أجاب بعد تردد قصير : «ظننتك تعلمين أيتها العزيزة .. ان عمرى سبع وعشرون سنة » .

فقالت له جين بكل تمهل وتفكير : « حسنا ان عمرى ثلاثون سنة ، ويلوح على أننى فى الخامسة والثلاثين ، بل اننى أشعر فى نفسى بأننى فى الأربعين .. وأنت فى السابعة والعشرين يا دال ، ويظهر عليك أنك فى التاسعة عشرة ، وكثيرا ما تشعر بأنك فى التاسعة . لقد فكرت فى الأمر كثيرا وأنت تعلم .. ليس بوسعى أن أتزوج مجرد .. غلام ! » .

وسادهما صمت شامل ...

وفى فزع شديد ، رفعت « جين » عينيها ونظرت إليه ، فاذا بالشحوب قد سرى فى وجهه حتى شفتيه ، وتوترت عضلاته وقد دهمه سكون جامد .. سكون حجرى عجيب ، ولم يعد فيه شىء من سمات الشباب .. ولاح كأنما كانت أرجاء الكنيسة كلها تولول مرددة فى عذاب وحشرجة : « وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة » !

وأخيرا تكلم جارث فى بطء تام : « ما فكرت قط فى نفسى .. ولست أدرى كيف أفسر ذلك ، ولكننى لم أفكر قط فى نفسى منذ امتلأ عقلى بك ، لذلك لم أفطن إلى ضآلة ما بى من ميزات تستحق رضاك . لقد اعتقدت بأنك شعرت بمثل ما شعرت أنا به ، وأن كلا منا أصبح للآخر ! » .. ثم بسط يده لحظة ، وكأنه يهم بأن يلمسها ، ولكن يده لم تلبث أن هوت إلى جانبه . ثم قال : « أنت محقة فيما تقولين ، فليس بوسعك أن تتزوجى شخصا تعتبرينه مجرد .. غلام ! » . وأشاح

عنها فواجه الهيكل ، ونظر إلى النافذة القائمة فوق « مائدة المناولة » المقدسة ، حيث كانت صورة المسيح مصلوبا .
وجمد فى صمت بالغ لمدة دقيقة ، ثم أحنى رأسه قائلا : « فلأقبل الصليب » !.. وسار فى هدوء فى ردهة الكنيسة ، ثم فتح بابها وأغلقه بعنف .

وبقيت جين وحيدة .. وما لبثت ان تعثرت فى سيرها إلى المقعد الذى كانت تجلس فيه من قبل ، وسقطت على ركبتيها هاتفة : « أواه !.. يا إلهى أعده ثانية إلى .. أواه ، أعده إلى ! آه ، يا جارث !.. إنما أنا المجردة من الجمال ، الخلو من الجاذبية ، العاطل من كل ما يشتهى ، فلست أليق بك .. أواه ، يا جارث !.. ارجع إلى ! ارجع إلى ! ارجع إلى !.. اننى أركن لك ، ولن يساورنى الخوف .. أواه يا عزيزى .. ارجع إلى ! » .

وأصاخت السمع مرهفة أذنيها .. وانتظرت حتى أرهق الانتظار كل عصب فى جسمها . وراحت تنسق فى ذهنها ما تقول من الكلمات حينما يفتح الباب الثقيل ثانية ، ويلوح جارث واقفا فى ضوء الشمس .. وحاولت أن تذكر ترنيمة : « هلمى أيتها الروح الخالقة » ، ولكن الصوت الأجوف الذى أحدثه إغلاق الباب كان قد أسكت كل شىء ، حتى أصداء الموسيقى الهائمة .. وانتظرت صامتة ، والسكون يزداد وطأة كلما طال الانتظار ، حتى لاح كأنه يوشك أن يحتويها بين جدران منيعة ، قاسية ، لا تنفرج إلا لتكشف لها عن رؤى سنوات الوحدة المرتقبة فى المستقبل .. والمرة الأخيرة ، مزقت



فركعت وقد دفنت وجهها فى راحتيها ، وقد أدركت فجاة أن
(جارث دالمين) قد تقبل جوابها .

الصمت وهى تصرخ : « أواه ، يا حبيبى ، ارجع إلى !.. سوف اجازف ! » .. غير أنها لم تسمع وقع خطوات ، فركعت وقد دفنت وجهها فى راحتيها ، وقد ادركت فجاة ان « جارث دالمين » قد تقبل جوابها كقرار نهائى ، لا نقض فيه ولا رجوع عنه !

ولم تدر كم مضى عليها وهى جاثية على ركبتيها ، بعد ان تحققت من مصيرها . ولكن السكينة لم تلبث ان تسربت إلى نفسها ، فشعرت بانها قد احسنت صنعا ، وان ساعات من الالم ـ فى الحاضر ـ خير من سنوات متوالية من الخيبة والقنوط ، فى المستقبل .. ان حياتها قد تصبح خواء محزنا ، ولقد كبدها فقدان هذا الفرح ـ الذى اكتشفته حديثا ـ اكثر مما كانت تنتظر ، ولكنها أيقنت ـ عن صدق ـ بأنها قد أحسنت فيما فعلت من اجل « جارث » .. فما قيمة آلامها الشخصية ؟!.. وبذلك استردت جين هدوء نفسها ، فنهضت وغادرت الكنيسة وسكونها ، إلى الشمس المشرقة والنسيم العليل .. وما ان بلغت ابواب الحديقة ، حتى وجدت بعض الصبية يلهون فى مرح بطائرة من الورق . وكان «جيمى» هو بطل الساعة ، ومحط انظار الجميع ، إذ كان صاحب هذه الطائرة الجديدة .. لقد كان جيمى سعيدا ، إذ تبين أن « اليوم سعيد » حقا ، كما قال له « جارث » .. فاغرورقت

عينا جين بالدموع عندما ذكرت كلمـــاته لجيمى ، واللهجـة التى خاطبه بها . ثم قالت فى حسرة وهى ترى الطائرة ترتفع فوق رؤوس الصبية : « هذا أثر شلن فتاى العزيز ، ولكن.. أين لفتاى نفسه بالفرح ، واحسرتاه ! » ..

***

وفيما كانت تجتاز الطريق المحفوفة بالأشـجار ، مرقت خادم وحقيبة ملابس ، حتى إذا حاذتها المركبة ، رفع قبعتـه تحية لها ، دون أن ينظر إليها .. وان هى إلا لحظـة حتى اختفى عن بصرها ، فلو أنها أرادت أن تستوقفه لما استطاعت .. ولكنها لم تفكر فى ذلك ، إذ استولى عليها ارتياح تام ، لأنها فعلت ما رأته صوابا ، ولأنها فعلته وهى تـدرك أن غرمهـا سيفوق غرمه بكثير . فان جارث لن يلبث أن يجد ـ وربمـا قبل مضى وقت طويل ، أنثى غيرها تكون له بكل كيانها ، بل وبأكثر مما كان يعتقد أن « جين » ستكون له . أما هى ، فقد كان الألم الممض الذى أحست به فى صدرها ، يذكرها بالكلمات التى خرجت من فمها ـ فى الليلة الماضية ـ وهى فى حجرتها تناجيه على غير مسـمع منه : « مهما يكن فى المسـتقبل من أحداث لك أو لى ، فلن يحتضن صدرى وجها غير وجهك ! » .. وفى هذه الساعة الأولى من سنى الوحدة المقبلة عليها ، أدركت « جين » أن هذا كان صوابا !

وعندما بلغت البهو ، التقت ببولين ليستر التى بادرتهـا بقولها : « اهذه أنت يا آنسة شامبيون ؟.. هـل سـمعت ما حدث مع السيد دالمين ؟ لقد اضطر إلى التعجيل بالسفر إلى لندن ، فى قطار الساعة الواحدة والربع .. كمـا أن عمتى مضطرة إلى المبادرة بالسفر هى الأخرى ، إذ سـقط طاقم أسنانها الصناعية ، ولا بد لها من زيارة طبيب الأسنان ، ومن ثم فستسافر بقطار الساعة الثانيـة والنصف .. ان العالم ملىء بالمفاجآت والتقلبات !.. لكم ترتبـك خطط المرء ، إذا كانت تتصل بأسنان صناعية لأى شخص آخر !.. على أننى أفضل أن أحطم أسنانا صناعية ، على أن أحطم قلوبا صادقة، لأن فى الإمكان إصلاح الأولى ، ولكنى لا أحسب أحدا يستطيع إصلاح الثانية !.. والآن ، سنتناول طعام الغداء بسرعة فى حجرتنا ، فاستودعك الله يا آنسة شامبيون » .



الفصل الثانى عشر

وقفت النبيلة « جين شـامبيون » فوق قمـة الـهرم الأكبر ، وأجالت النظر فيما حولها .. كان الأعراب الأربعة منهوكى القوى ، بعد أن اسـتطاعوا بجهـودهم — مقترنة بنشـاطهـا هى — أن يرفعوها إلى حيث كانت ، ثم تهالـكوا جالسين تلك الجلسة الطريفة التى لا يجيدها سوى الأعراب!

.. لقد استطاعوا أن يرفعوا النبيلة جين — وهى تزن نحو خمسة وسبعين كيلو جراما — من أسفل الهرم إلى قمتـه فى أقصر مدة ممكنة ، ومن ثم اضطجعوا حولها فخورين بما قاموا به ، مطمئنين إلى جزائهم . فلقد تم كل شىء فى نظام دقيق . إذ أخذ اثنان منهم — فى لون خشب الموجنى ، وقـد أوتيـا قامتين ممشوقتين ، فى غلالتين بيضاوين بسيطتين — يثبان وثب الغزلان فوق الأحجار العالية ، ثم يبسطان أيديهما ليمسكا بيدى النبيلة « جين » — الممدودتين اليهما — بينما بقى رجل ثالث خلفها ليساعد فى رفعها . وهنا كان دورها يحين للقيام بما بدا لها مهمة شاقة ، فكانت ترفع نعلها إلى حافة الحجر الكبير الذى يعلوها بأربع أقدام ، فكأنها تخطـو إلى ما فوق حافة المدفأة فى قاعة الاستقبال !.. وكان لما بثوه فيهـا من حماس — بصياحهم المتوالى «أيوه ! ايوه !» — فضل فى تمكنها من القيام بهذه المهمة القاسية .. وما أن كان أحدهم يصيح من خلفها قائلا : « طيب ! » ، حتى يجيبه الآخران من أعلى قائلين: « كثيرا ! » ، فاذا القبضتان اللتان شدتا على يديها تزدادان

تشبثا ، بينما يرفعها الأعرابى — الذى فى الخلف — فتصعد بسهولة اذهلتها . والواقع أنه كان من المستحيل — فى تلك الظروف — الا تتمكن من الصـعود !.. أما الأعرابى الرابع فكان يحمل الماء ، يقدم منه لزملائه فى فترات ، حتى إذا ما نادت « جين » طالبة بضع دقائق تستريح فيها وتسترد أنفاسها ، انتهز الفرصة رئيسهم ، واسمه « شحاته » — وهو أجملهم شكلا — ليتلو عليها بضعة أبيات زعم أنها من شعر شكسبير الإنجليزى .

« جاك وجيل ، صعدا إلى أعلى التل ، ليأتيا بدلو الماء .. فسقط جاك ، وشق جبينه ، وهوت جيل خلفه متخبطة » !

ولقد ضحكت جين ، فشـجع « شحاته » ما أحرزه من نجاح فى تثقيفها وتسليتها ، وراح يردد أبياتا من أناشيد الأطفال ، كاشارات للتحفيز على توحيد الجهود ، أثناء تسلق الأحجار الباقية .. وهكذا صعدت جين حجرا واحدا عنـد ذكر سقوط جاك ، وتسلقت الحجر التالى عند ذكر الضرر الذى أصابه . وعند الحجر الثالث مال ، « شحاته » ليسر اليها : « وهوت جيل خلفه متخبطة » ، بينما كان « على » يرفعها من الوراء !.. واتخذت الكلمات المألوفة معانى جديدة، فى ظروف كهذه ، فراحت « جين » تفكر فيما إذا كان سقوط جاك خليقا بأن يؤدى حتما إلى أن تفقـد « جيل » توازنهـا تماما ، فتهوى .. أما كان فى وسعها إظهار وفائها بشـكل اكمل ، فتاتى بالدلو إلى أسفل التل — فى أمان — وتمنى بجروح

زميلها ؟.. لقد رأت « جين » فى حياتها حوادث سقوط كثيرين من أمثال جاك ، فعنيت هى بجباههم الجريحة ، لأن « جيل » كانت تظل ــ فى كل الحالات ــ فوق قمة التل ، تغازل « هورنر » ، ذلك الشخص المحوط بالشبهات ، والذى كان يعمل فى هدوء ، ويرسم الخطط فى دهاء ، على العكس من « جاك » الذى كان يؤثر الخط المستقيم فى خططه .. ومع ذلك فقد استطاع « هورنر » بحرصه وهدوئه ، أن ينال أغراضه ، وأن يهتف : « يا لى من فتى ! » . فقد كان الناس يقدرونه بمدى اعتداده بنفسه .. ولقد اعتادت « جين » أن تتجه بكل عطفها ــ فى مثل هذه الظروف ــ نحو العاشق المهزوم .. وكم من « جاك » نهض بعد سقوط ، واستعاد مركزه ، وواجه الحياة ، لأن يدها الحانية قد امتدت إليه وأعانته حيث كان مستلقيا فى ذلة وهوان ، ولأن عطفها ــ المشوب بالفهم والادراك ــ كان علاجا للجبهة الجريحة !(١)

ثم أخذ « شحاته » ــ يردد نشيدا من أناشيد الأطفال : « ديكرى ، ديكرى ، دوك .. جرى موسى فوق الساعة .. فدقت الساعة دقة واحدة ! » .. دقت الساعة دقة واحدة ! .. أواه ، لقد مضت سنوات ثلاث على تلك الليلة التى دقت

---

(١) الواضح هنا أن « جين » تمثلت فى « جاك » أى عاشق شريف صريح ، و « جيل » أية فتاة معتدة بجمالها ، تدرك أنها هدف المعجبين ، و « هورنر » أى شاب خبيث ، واثق من براعته فى اجتذاب الحبيبة بدهائه ، فهو يترك غريمه يشقى فى ملاحقتها ثم يرتد خائبا ، كسير القلب ، بينما يبقى هو فى نهاية الطريق ، ليستقبلها ويحظى بها دون عناء !

الساعة فيها الواحدة ــ فى (شنستون) ــ فاذا جين تصل إلى قرارها الذى طوح بجاك ــ فى أنشودة حياتها ــ من فوق تل المستقبل !(٢) .. ولكن لا ، انه لم يسقط من شدة الصدمة ، بل انه تلقاها برجولة ، وسار منتصب القامة .. وكانت خطواته الخفيفة أكثر ثباتا من المعتاد ، حين تركها وغادر الكنيسة فى هدوء واتزان ، بعد أن ابلغته قرارها ! .. انها كانت هى ــ جين ــ التى سقطت متردية فوق الدلو ، عندما انفردت بنفسها .

***

وشعرت ــ رغم الزمن الذى انقضى ــ بقشعريرة من الماء الذى سال عليها من الدلو فبلل قلبها .. أواه ، ترى ماذا كان يحدث لو أن « جارث » عاد مستجيبا لندائها وبكائها فى تلك اللحظات الأولى من الوحدة والأوجاع التى لا تطاق ؟!

ولكن جارث لم يكن من الرجال الذين يجلسون على الاعتاب ــ إذا أوصد باب فى وجوههم ــ مترقبين أن يدعوا ثانية . فلما صدته ، وأيقن أنها جادة ، خرج من حياتها خروجا تاما .. وكان يتأهب لأن يستقل القطار ، عندما بلغت هى قصر (شينستون) . ومنذ ذلك اليوم لم يتقابلا ! .. وكان من الجلى

---

(٢) « جاك » الذى فى أنشودة حياة جين ، هو « جارث دالمين » . وهنا وفى السطور التالية ، آثرت المؤلفة أن تصور « جين » وهى تستعرض مأساة قلبها ، وأحداث الأعوام الثلاثة التى انقضت ــ منذ فراقها لجارث ــ على هدى كلمات الانشودة ، ولذا نجد الحديث مليئا بالحكايات والتوريات .

ان جارث قد أعتبر تفادى اللقاء مهمة يتحمل هو مسئوليتها ، فلم يخفق قط فى أدائها . ولقد ذهبت ـ مرة أو مرتين ـ لزيارة بعض الأصدقاء ، وهى تعلم بوجوده هناك ، فكان ـ فى كل مرة ـ يبارح الدار صباحا ، إذا كان مقدرا أن تصل هى ظهرا ، أو بعد الظهر إذا كانت ستصل فى موعد الشاى ، ولم يخطىء مرة فى حسبان المواعيد بحيث يلتقيان فى محطة السكة الحديدية ، فيتألم كل منهما ، ويمر بصاحبه عابسا ، أو يبادله تحية متكلفة ، مما يوقظ الشجون الهاجعة ، ويتيح للناس مجالا للظنون .. وذكرت جين ـ والخجل يملؤها ـ أن هذه هى المأساة الكريمة الرقيقة التى ترتقب من « جارث دالمين » . ولكن الرجل الذى أدهشها بارتضائه ـ فى إباء كريم ـ قرارها ظل يدهشها بالجلد الذى أبداه فى تقبل هذا القرار ـ صامتا ـ على أنه نهائى ، فحرص على أن يبتعد عن طريقها . وما قدر لجين قط أن تدرك عمق الجرح الذى الحقته به !

ولقد سارت أمورهما على هذا المنوال ، دون أن يتبادر إلى ذهن أحد وجود علاقة ما بين رحيله ووصولها ، فقد كانت ثمة أسباب طبيعية وجيهة تفسر سر اضطراره إلى الرحيل ، فكان القوم دائما يبدون أسفهم ، ويتحدثون عنه فى غير حرج، وبذلك قدر لجين أن تسمع أحدث « قصص دال » ، وأن تجد نفسها محاطة بجو طبيعته المبتكرة المحبة للجمال . وكانت ثمة فتاة فى كل قصة .. وهى ـ دائما ـ أجمل فتاة فى المجتمع، فكان القوم يشيرون لجين نحوها ـ خلسة ـ ويهمسون بأنها كانت صاحبة الحظوة ـ بالتأكيد ـ لو أن اقامة « جارث »

فى المكان ، امتدت أربعا وعشرين ساعة أخرى . ولكن الفتاة المقصودة بالحديث تكون عادة خالية الذهن من كل ما يفكرون فيه، فلا يتعدى شعورها الغبطة البالغة بالصداقة اللطيفة التى توطدت بينها وبين « دال » ، ومن ثم تروح تشرح آراء « دال » فى الفن والألوان ، وهى سعيدة ـ فى أعماقها ـ بثقتها الوطيدة فيما أوتيت من حسن وفتنة ومقدرة على الظفر بالاعجاب . على أن « جارث » لم يكن يخلف وراءه قط أى أثر يبعث فى المرأة التى أحبته أى ندم أو حسرة . بل كان يفارقها دائما إلى غير رجعة . فما كان « جارث دالمين » من الرجال الذين يفترشون أعتاب امرأة مترددة !

كذلك لم يهشم « جاك قصيدة حياتها » جبينه ، فان الصورة التى رسمها للآنسة بولين ليستر ـ بعد سنة من زيارة (شينستون) . كذلك أبدع تحفة أخرجها حتى ذلك الوقت .. فلقد رسم الأمريكية الحسناء فى ثوب حريرى أبيض ، وقد وقفت على درجات سلم من البلوط الداكن ، معتمدة باحدى يديها على سياج السلم ، وحاملة ـ بالأخرى ـ باقة من الورد الأصفر ، تهم بتقديمها إلى صديق غير ظاهر ، عند أسفل السلم . وكان ثمة ضوء ينساب خلفها وفوقها من نافذة يرجع عهدها إلى أجيال مضت ، وقد رسمت على زجاجها أسلحة ، وخوذة ، وشعار الأسرة العريقة التى تمتلك الدار ، فبدت متألقة بالألوان الوردية وقطع الزجاج الذهبية . ولقد صور ـ بمهارة رائعة ـ حيوية الفتاة وسحرها ، فظهرت فى مرح الفتاة الحديثة ، وصراحة الفتاة الأمريكية ، [illegible]

رأسها الملكى الصغير ، إلى طرف حذائها الحريرى .. وكان قدامه على اظهارها فى محيط تسود جوه خير تقاليد البيوت الإنجليزية العريقة فى القدم ، ومزجه ــ فى غير خوف ــ العالم الجديد بالعالم القديم ، ووضعه هذه الجوهرة المتألقة ــ التى تنتمى إلى العالم الجديد ــ وسط اطار جميل مكتمل من العالم القديم ، مبديا ذلك فى أروع ما استطاع .. كل هــذه كانت العناصر التى كونت اللوحة . ولقد ابتسم الناس ، قائلين إن المصور قد أودع اللوحة ما كان ينتوى تحقيقه ــ عما قريب ــ فى الواقع ، ولكن الرابطة بين الفنان والفتاة صاحبة الصورة لم تتجاوز ــ اطلاقا ــ الصداقة الجميلة ، وكان النبيل صاحب القصر ــ الذى ضم ذلك السلم وتلك النافذة ــ هو الذى لم يلبث أن أغرى الآنسة ليستر بأن تبقى معه فى هذا الوسط الذى لاءمها تلك الملاءمة الرائعة ، التى نطقت بها اللوحة !

ولقد سمعت « جين » قصة أخرى ــ عن اللوحة ــ دار حولها الحديث أمامها ، اكثر من مرة ، فى أوساط كان كل من « دال » و « جين » من نجومها . فعندما جلست الآنسة ليستر أمام الفنان ــ للمرة الأولى ــ كانت تحيط عنقها بعقدها اللؤلؤى الثمين فأجاد جارث رسم اللآلىء ، وأبدع ، وقضى ساعات طويلة فى كل لؤلؤة ، حتى أظهرها فى أكمل صورة متألقة . وفجأة ، أقبل فى أحد الأيام ــ على العقد اللؤلؤى بكشطه من اللوحة ، وطلب إلى « بولين ليستر » أن تضع بدله عقدا من الياقوت الأحمر ، ليتناسق مع بقية الألوان التى كان يريدها للوحة . وكان العقد الياقوتى الأحمر هو الظاهر فى

اللوحة حين شاهدتها فى معرض « الأكاديمية » ، فما أبدع ما بدت اليواقيت الحمراء على عنق بولين الناصع الرقيق .. غير أن كثيرين ممن رأوا الصورة ــ قبل قشط العقد اللؤلؤى ــ اكدوا بأن الكشط قد أفسد عملا رائعا ، كان خليقا بأن يشغل الناس به ، عاما بعد عرضه .. أما بولين ليستر ، فقد قيل انها هزت كتفيها الجميلتين ــ بعد هذا التعديل ــ وقالت : « إن تنسيق الألوان أمر بديع ، ولكنه كشط اللآلىء من اللوحة، لأن شخصا ما أقبل وهو يرسم العقد وأخذ يغمغم بلحن وهو يتأمل الصورة .. وكم أكون شاكرة لو تجنب زائرو المرسم الغمغمة بالألحان ، أثناء رسم صورتى ، فلست أود أن يسارع الرسام إلى كشط يواقيتى الحمراء طالبا ان استبدلها بعقد من الزمرد .. كما أننى على استعداد لأن أقدم جائزة لمن يدلنى على هذا اللحن ، إذ احب أن أعرف العلاقة بينه وبين تنسيق الألوان فى لوحتى ! » .

* * *

ولقد سمعت جين القصــة فى حديث جـرى اثناء تنـاول الشاى فى مخدع الليدى براند ــ أثناء زيارتها لأسرة براند بشارع ويمبول ــ وكانت الحفلة الموسيقية التى اقيمت بـدار عمتها الدوقة ، والتى سمعها فيها « جارث » وهى تغنى « المسبحة » ، قد أصبحت فى عداد الماضى . كما كان قـد انقضى على فراقهما حوالى العام ، وكانت هذه أول مناسـبة تعترضها فيها ذكراه سواء بالفكر ، أو القول أو الإشارة .. مباشرة أو غير مباشرة . ولم يخامرها ريب فى أن اللحن الذى غمغم به الزائر ، هو « المسبحة » :

أن الساعات التى قضيتها معك يا قلبى الحبيب ..

« هى ـ عندى ـ كعقد من اللآلىء ..

« أعدها مرارا ، واحدة فواحدة ، كل على حدة » .

وخيل لجين أنها تسمع صوت « جارث » فى الشرفة ، كما سمعته فى تلك اللحظات المذهولة ، التى فطنت فيها إلى النعمة التى كانت مطروحة تحت قدميها : « لقد تعلمت عد اللآلىء يا محبوبتى .. » ! وكان قلب جين قد غدا ـ باردا ، بل انه تجمد كالثلج ـ فى غمرة الفراغ الوحشى ، فماذا بقصة ما حدث فى المرسم تعيد الدفء إلى قلبها ، فانتفض فى صدرها لحظة . ومع اليقظة داهمها ألم حاد .. فلما انصرفت ضيفات ليدى براند ، وذهبت هذه إلى حجرة أطفالها ، نهضت « جين » إلى البيانو ، وأخذت تعزف فى رفق مقدمة « المسبحة » . وبدا أن رنين الأوتار الخافتة بغتة ، والنشاز الذى خالطها فى البداية لينساب بعد ذلك إلى تناسق ، كان يتلاءم مع مزاجها وذكرياتها . وفجأة سمعت خلفها صوتا يقول : « غنيها يا جين ! » . فالتفتت وإذا بالدكتور دريك قد تسلل إلى الحجرة ، واستلقى فى رشاقة على أريكة بجوارها ، وقد عقد يديه وراء رأسه وردد رجاءه : « غنيها يا جين ! » .. فأجابته وهى مستمرة فى دق الأوتار : « ليس فى استطاعتى يا دريك .. فاننى لم أغن منذ شهور ! » .

ـ وماذا دهاك طوال هذه الشهور ؟

فرفعت جين يديها عن مفاتيح البيانو ، والتفتت إليه قائلة : « آه يا صديقى ، لقد أشعت الارتباك فى كل حياتى ، ومع ذلك

فاننى أوقن من أننى أحسنت صنعا .. ولسوف أسلك نفس المسلك .. على الأقل .. على الأقل ، آمل أن أسلك نفس المسلك ! » .

فجلس الطبيب برهة صامتا ، وهو ينظر إليها متدبرا هذه الجمل القصيرة ، السريعة .. وظل مترقبا أن تردفها بغيرها ، مدركا بأن صمته سيبعثها على الاسترسال .. وصدق حدسه ، إذ لم تلبث أن قالت : « لقد رفضت شيئا ـ يا فتاى ـ كان أثمن لدى من حياتى كلها .. نظير خير لشخص آخر ، ولست أملك أن أتغلب على الذكرى .. اننى أوقن من أننى قد أحسنت صنعا ، ومع ذلك فى استطاعتى أن أنسى ! » . فمال الطبيب إلى الأمام وتناول يديها المضمومتين بين يديه ، وقال لها : « هلا صارحتنى بالأمر ، يا جانيت ؟ » .

ـ كلا يا دريك .. لا أقوى على مصارحة أحد أيا كان .. حتى أنت !

ـ إذا ما جد ما يحملك على الافضاء بالأمر لدى شخصى يا جين .. فعدينى بأن تأتى إلى !

وإذ قالت جين : « بكل سرور » ، رد معقبا : « حسنا ! .. والآن يا بنيتى العزيزة ، هاك علاجا أصفه لك .. واعلمى أننى لا أقصد بذلك أن تذهبى إلى باريس ثم تعودى ، أو إلى أن تقضى الصيف فى سويسرا ، والخريف فى الرفيرا ، وإنما بل سافرى إلى أمريكا لتشاهدى بعض المعالم الكبرى : شاهدى مساقط (نياجرا) ، حتى إذا ضايقتك التوافه فى حياتك ـ بعد



• فجلس الطبيب برهة صامتا ، وهو ينظر إليها متدبرا هذه الخمس القصيرة ، السريعة ..

ذلك — وجدت راحة فى أن تعودى بذاكرتك إلى تلك الكتلة الضخمة الخضراء من الماء المتدفق على المساقط ، وإلى هديرها الصاخب ، وإلى الرشاش المتصاعد منها ، وإلى اندفاعها الزاحف الذى لا ينقطع .. سيحلو لك ان تذكرى كل ذلك ، وأنت تعنين بسكب الماء فى أقداح الشاى ومنها ، فتقولين لنفسك : « ان نياجرا ما تزال تتدفق ! » .. اقيمى فى فندق بجوار المساقط، لتسمعى خريرها الجبار يهدر — ليلا ونهارا — كأنه رمز للقوة وللتقدم . واقضى ساعات طويلة متجولة حولها ، واستجلى معالمها من كل جانب ، واذهبى إلى (كهف الرياح) — عبر الجسور المهتزة — حيث يصيح بكم الدليل قائلا : « استوثقوا من خواتمكم وأقراطكن وثبتوها جيدا ! » ، واعرف — أثناء مرورك بصخرة الدهور — المغزى الحقيقى لوجودها .. استوعبى نياجرا فى حياتك وروحك كما لو كانت ملكا لك ، واحمدى الله لوجودها !.. ثم زورى المعالم الهامة الأخرى فى أمريكا .. جربى المسائل الروحية والإنسانية .. الحب والحياة .. ابحثى عن السبب « يا لينجتون بوث » العظيمة — التى يدعونها « الأم الصغيرة » لجميع مسجونى أمريكا !. انى اعرفها جيد المعرفة ، وافخر بذلك ، وبوسعى أن أعطيك خطاب توصية لها .. سليها أن تصحبك لزيارة سجن (سنج سنج) ، أو سجن (كولومبوس) ، وان تمكنك من الاستماع إليها وهى تخطب فى الفين من المذنبين ، حاملة اليهم رسالة الأمل والحب .. عقيدتها الملهمة التى توحى بإمكانيات جديدة حتى لمن تقطعت بهم سبل الأمل !.. ثم

أذهبى إلى مدينة (نيويورك) ، وانظرى إلى ما يعملون حين
يريد إنسان إقامة مبنى كبير ، وهو لا يملك سوى رقعة صغيرة
من الأرض ، فيستغل هذه الرقعة الصغيرة ــ إلى أقصى حد ــ
بأن يرتفع بالمبنى إلى عنان السماء .. فتعلمى أن تحذى
حذوهم . وبعد أن يوقظ فيك شعب أمريكا ــ صاحب النفوس
الكبيرة والعقول الجبارة السريعة الابتكار ــ كامن الحماسة
والحمية ، اذهبى إلى اليابان لتشاهدى شعبا صغيرا ، يبذل
قصارى جهده ــ فى عزيمة نبيلة ــ ليصبح عظيما ، ثم اذهبى
إلى فلسطين ، واقضى أشهرا مقتفية آثار أعظم شخصية
بشرية عاشت منذ الخليقة . ثم اعرجى على مصر فى طريق
عودتك ، لتذكرى نفسك بأنه ما يزال ــ فى عصرنا الحديث ــ
بعض أشياء أثرية عتيقة تستحق المشاهدة(١) . ومنها رجل
خشبى محفوظ بعناية ، وله عينان من الصوان الشفاف
تتوسط كل منهما بلورة صخرية . بمثابة إنسان العين ..
وقد بقيت هاتان العينان البراقتان ، تطلان على العالم من تحت
جفونها البرونزيتين منذ عهد النبى إبراهيم .. لسوف تجدين
ذلك فى متحف القاهرة ، ثم امتطى حمارا لتزورى (الموسكى)،
إذا كانت بك رغبة فى رياضة بدنية حقة .. أما إذا شعرت
بشىء من الخمول ، فتسلقى الهرم الأكبر .. سلى عن أعرابى

(١) من الواضح أن القصة كتبت فى زمن كان الغرب يحرص فيه على
أن تقصر سمعة مصر على آثار الماضى ، وكأنما قدر عليها أن تعيش فى القدم،
ولا يكون لها مستقبل ! فلقد نشرت القصة ــ للمرة الأولى ــ فى سنة ١٩٠٩

يسمى « شحاته » ، وابلغيه رغبتك فى تسلق الهرم فى مدة
تنقص دقيقة عن أسرع سيدة تسلقته قبلك ! .. وعودى ــ
بعد ذلك ــ إلى وطنك يا بنيتى العزيزة ، واتصلى بى تليفونيا
لنتفق على موعد للمقابلة ، أو غامرى ودعى « سنودارت »
معاونى فى العيادة ، يدخلك ــ خلسة من المرضى ــ إلى حجرة
الكشف .. وارفعى لى تقريرا عما فعلته بك الوصيفة .
وأصدقك القول اننى لم أعط أحدا خيرا منها من قبل . ولن
تكون بك حاجة لأن تدفعى لى اتعابا ، لأننى لا اتقاضى اتعابا من
الأصدقاء الحميمين ! » .

فضحكت جين وأمسكت بيده ، وهى تقول : « آه يا صديقى
.. اعتقد انك مصيب فيما تراه ، فلقد تركزت معلوماتى عن
الحياة فى نفسى ، وفى أرباحى وخسائرى الشخصية . سأفعل
كل ما أشرت على به ، وليباركك الله جزاء أن قلتها لى ..
ها هى ذى فلاور قادمة » .. وأقبلت زوجة الطبيب فى ثوب
خفيف ، أعد لمناسبة تناول الشاى ، فأضاءت المصابيح
الكهربائية أثناء مرورها . وصاحت بها جين : « الن يقدر
لفتانا هذا ان يكبر يا فلاور ؟.. انه ينصح جادا لامرأة ثقيلة
الوزن ، متوسطة العمر ، بأن تتسلق الهرم الأكبر كعلاج
للانقباض، على أن تضرب الرقم القياسى فى سرعة التسلق !».
فجلست زوجة الطبيب فوق ذراع مقعد زوجها وقالت :
« ومن هى المرأة الثقيلة الوزن ، المنقبضة المزاج ، المتوسطة
العمر ، يا حبيبى .. إذا كنت تقصد السيدة باركر بانجس فهى
ليست فى أوسط العمر ، لأنها أمريكية .. وما من أمريكية

تقربانها فى أوسط العمر .. أما انقباضها فيرجع إلى أن جارث دالمين لم يتقدم طالبا الزواج من ابنة أخيها الحسناء ، حتى بعد أن رسم صورتها ! ولا جدوى من نصحها بأن تتسلق الهرم الأكبر — مع أنها ستقضى هذا الشتاء فى مصر — إذ إننى سمعتها بالأمس تبدى استنكارا لذلك قائلة انها لن تفكر فى الصعود إلى قمة الهرم قبل أن يؤتى أبناء إسرائيل — أو أيا يكون الشعب الذى يقيم فى تلك الاصقاع — إدراكا يجعلهم يقيمون مصعدا فى جوف الهرم ذاته ! » .

فانفجرت جين والطبيب ضاحكين ، بينما سوت « فلاور » من اضطجاعها لتمكن ذراع زوجها من الالتفاف حولها ، ثم استأنفت حديثها قائلة : « جين ، لقد سمعت من لحظات نغمات البيانو وأنت تعزفين قطعة « المسبحة » ، وهى أغنية أحبها كل الحب ، وقد مضت شهور لم أسمعها خلالها . فهل لك أن تغنيها يا عزيزتى ؟ » . فالتقت عينا جين بعينى الطبيب . وابتسمت مطمئنة له ، ثم استدارت على مقعد البيانو — دون تردد — ملبية رغبة فلاور ، إذ كانت وصفة الطبيب قد بدأت تؤتى أثرها !

وعند نهاية اللحن ، وبينما كانت « جين » تغنى كلمات المقطع الأخير ، مالت « فلاور » على زوجها ، وطبعت قبلة خفيفة رقيقة عند فوده ، حيث بدأ المشيب يخط شعره الأسود الغزير بخيوط فضية . ولكن ذهن الطبيب كان متجها إلى جين ، فتأكد — قبل أن تأتى على نهاية المعزوفة — من صحة تشخيصه لحالها . وقال لنفسه : « بل يجب أن تسافر

إلى الخارج ، حتى يتحول تفكيرها عن نفسها قطعيا ، ويتيح لها نظرة واسعة إلى جميع الأمور العامة ، ونظرة أكثر اتزانا للأمور الخاصة .. أما ذلك الشاب فلن يتغير ، وإذا تغير فسيثبت هذا أن رأى جين فيه كان صحيحا ، ويكون هذا مدعاة لراحة نفسها ! .. ولكن إذا كان هذا حال جين ، فما حاله هو يا إلهى ؟! .. لقد كنت فى عجب من تضاؤل حيوية شبابه الغض .. ان تقدير « جين » والاهتمام بها دراسة وعلم ، أما جعلها تهتم بشاب مثله ، فأمر لا أفهمه ! .. وفقدانها — بعد ذلك — أمر أرانى أشد عجزا عن فهمه ! .. لا بد أن له أعصابا من فولاذ أمكنه بها أن يواجه الحياة بعد ذلك .. فما هذا الصليب الذى يتعلمان كيف يقبلانه ، وهما ممسكان به فيما بينهما .. لعل شلالات نياجرا تقوى على غسل كل ذلك ، فتبرق إليه جين من هناك ! » .

وتناول الطبيب — إذ ذاك — يد زوجته المحبوبة — وكانت ملقاة على كتفه — فلثمها لثما خفيفا ، فى حين ظلت جين مولية إياهما ظهرها . لقد خبر الطبيب الصليب والتضحية فى الماضى ، فأصبحت حبات المسبحة اللؤلؤية عظيمة القيمة لديه !

***

وهكذا اتبعت جين وصفة الطبيب ، وانقضت سنتان وهى ماضية فى العلاج .. وها هى ذى فوق قمة الهرم الأكبر ، وقد ضربت رقما قياسيا فى سرعة تسلقه . وأخذت تضحك وهى تستعرض فى فكرها التقرير الذى ستقدمه إلى دويك عن كل هذه الواقعة ! .. وكان الأعراب مضطجعين حولها وقد

دبت الحرارة فى أجسادهم ، وتفصد عرقهم ، ولكنهم كانوا مغتبطين ، إذ اطمأنوا إلى « بقشيش » كبير ، فراحوا يتطلعون إلى « جين » بأعين يلمع فيها السرور والاعتداد ، وكان العمل قد تم كله بمجهودهم فقط ، وغاب عن فطنتهم الدور الكبير الذى قامت به قواها الرياضية البديعة التكوين ، وأطرافها المرنة ، مما ساعد على سرعة التسلق . وهكذاوقفت جين سليمة العزيمة والأطراف ، وقد تملكها ذلك الشعور الطروب الذى يكون دائما عونا للعقل ، والذى ينبعث اثر عمل بدنى خارق !

وتالقت فى أجلى مظهر بمعطفها الصوفى و « جونيلا » من التويد البنى اللون المزركش بنقط خضراء وبرتقالية ، بها كثير من الجيوب المحوطة باطارات أنبوبية من الجلد ، كما كانت لها أزرار جلدية وثنية عريضة من الجلد فى الذيل . وكان فى وسع أى خبير أن يذكر ـ لفوره ـ الشركة الوحيدة التى لا يمكن لغيرها ان ينتج هذا الزى ، واسم صانع القبعات الذى صنع لها قبعتها « التيرولية » الخضراء ، التى كانت تلائمها تمام الملاءمة . ولكن « شحاته » لم يكن خبيرا فى الأزياء ، وإن كان ذا فطنة وتفهم لأساليب وقواعد اللياقة ، فأجمل رأيه فيها بقوله : « أنها أنثى ـ سيدة مهذبة راقية ، تمنح « البقشيش » بوجه بشوش ، ولا تقعد فى منتصف الطريق ، وترفض الصعود إلى قمة الهرم .. انها حقا سيدة مهذبة راقية ، تمنح « البقشيش » بوجه سمح ، ولا تكبد الدليل الاعرابى المسكين عناء الجرى ـ فى خدمتها ـ إلى أسوان ! » .

وكانت شمس الشرق قد لوحت بشرة « جين » بلون قمحى داكن جميل سرت هى به فلم تجد بنفسها حاجة إلى نقاب أو مظلة .. وكانت عيناها القويتان تصمدان للقاء الصحراء الذهبية دون حاجة إلى عوينات قاتمة ، لأنها سمعت جارث يقول ـ مرة ـ بأنه يشعر بغثيان لمنظر ظهر امرأة ترتدىقناعا لقيادة السيارات ، وقد أقرت « جين » رأيه ضاحكة ، إذ أن الاقنعة تبدو لها دائما كشىء متكلف مصطنع . وكانت خصلات شعرها البنى الغزيرة لا تطير قط وتتناثر فى خصلات ، وإنما تبقى دائما حيث تكون قد ثبتتها بدبابيس الشعر التى تحكم وضعها فى كل صباح .

ولم تبد « جين » ـ فى أى وقت ـ أحسن حالا مما بدت فى هذا اليوم من أيام شهر مارس ، وهى تقف على قمة الهرم الأكبر ، قوية ، سمراء ، بديعة التكوين ، ذات عقل سليم فى جسم سليم ، وقد طغت امارات الانبساط والابتهاج على افتقار وجهها إلى الجمال .. وكانت ابتسامتها العريضة المرحة، قد تكشفت عن أسنان بيضاء ناصعة .. كل هذه كانت شهودا على سلامة صحتها وتكوينها ، ظاهرا وباطنا !

وغمغم شحاته من جديد قائلا : « انها أنثى وسيدة مهذبة، راقية ، لطيفة » .. ولو أن جين سمعت ما قاله لما استاءت ، مع أن إنجليزيته المهشمة أبدت حديثه بصيغة المذكر .. ذلك لأنها وإن كانت تعتقد أن المرأة المسترجلة اقل بشاعة من الرجل المخنث درجة ، إلا انها كانت خليقة بأن تأخذ الاسم المركب الذى وصفها به شحاته على انه تحية لها لما كانت عليه من

رزانة واستقلال وتفكير واضح ، فهى إذا شرعت فى المضى إلى مكان ما ، سعت إلى بلوغه فى أقصر وقت ، دون تبرم ، أو تململ ، أو هياج .. فان هذه الخلال النسوية الثلاث كانت دائما موضع ازدراء من جين ، التى كانت تعرف فى نفسها انوثة عميقة ، يمكنها اعتدادها بها من أن تتخذ فى الأمور التافهة اتجاها صريحا يتنافى مع طبيعة النساء !

وكانت وصفة الطبيب قد أثمرت بدرجة مدهشة ، فان مظهر التهالك والشيخوخة السابقة للأوان ، والانهيار الذهنى والبدنى التام .. هذا المظهر الذى أحزن الطبيب وأفزعه ـ يوم رآها تجلس إلى البيانو ـ قد تلاشى تماما ، فأصبحت تبدو كابنة الثلاثين عاما ، ذات النفس الراضية المنشرحة . وأصبحت على أهبة أن تسير على أسعد حال ، عاما بعد عام ، حتى تبلغ الأربعين .. بل انها لم تعد تخشى بلوغ الخمسين : إذا امتد بها العمر لهذه السن .. كانت عيناها الصافيتان تطلان على الدنيا فى صراحة ، وعقلها السليم ينتج آراء سليمة ، وينطق بأحكام صحيحة ، تتجلى فيها رحمة قلب كبير كريم !

وراحت تتملى المنظر الذى امتد أمامها باعجاب بالغ ، وقد فتنها ما كان فيه من تناقض : ففى ناحية منه ، كانت «الدلتا» الخصبة ، بما فيها من أحراش النخيل المتمايل ، واشجار البرتقال والزيتون التى تنمو فى سخاء على ضفتى النيل المنساب كشريط عريض من اللجين اللامع .. وفى الناحية الأخرى كانت الصحراء بأفقها المتناهى البعد، وقد امتدت ـ فى تموجات من الرمال الذهبية .. فلا شجرة ، ولا غصن ، ولا عود

أخضر ، وإنما انطلاق وحرية بلا حدود .. محيط من البهاء الذهبى الجامد ، إذ كانت الشمس تجنح للمغيب ، والسماء مصطبغة بلون اللهب .

وقالت جين تحدث نفسها : « هذا هو مفترق الطرق . ومكان الاختيار .. وما أصعب الاهتداء إلى قرار فى الاختيار بين الحرية والاثمار .. وجدير بالمرء أن يستشير ابا الهول فى ذلك .. حارس الأجيال الكهل الحكيم ، والأمين الصامت على اسرار الزمن ، المتطلع إلى المستقبل كما اعتاد أن يتطلع دائما ، بينما يصبح المستقبل حاضرا ، وينزلق الحاضر إلى الماضى !.. هيا يا شحاته ، فلنهبط !.. آه ، أجل . سأجلس يقينا على الحجر الذى جلس عليه الملك عندما جاء هنا وهو ولى للعهد .. أشكرك إذ ذكرتنى بذلك ، فسيكون مادة طلية للحديث فى أول مرة أحظى فيها بشرف المثول بين يدى جلالته لبضع دقائق ، مما ينقذنى من التلعثم بعبارات ممجوجة عن الطقس .. هيا وقدنى إلى ابى الهول يا شحاته . فلى سؤال أريد ان أوجهه إليه ، فى اللحظة التى تنزلق فيها الشمس وراء الافق ! » .



الفصل الثالث عشر

القمر ينشر ضياءه على الصحراء !.. وطلبت جين — بعد أن تناولت عشاءها — أن تقدم لها القهوة فى شرفة الفندق ، حتى لا تفقد إلا أقل ما يمكن من جمال هذا الليل الغامض .. ولاحت الاهرام — تحت الضوء الناصع الصافى — اكبر حجما واشد رسوخا مما هى ، كما جمع أبو الهول حول نفسه مزيدا من الغموض !.. ومنت جين نفسها بجولة على القدمين ، على ضوء القمر . واضطجعت — ريثما يحين الوقت للجولة — فى مقعد من القش منخفض مزود بوسائد وثيرة ، وراحت ترشف قهوتها ، وقد أسلمت نفسها إلى تلك الهناءة الحالمة ، التى تعقب الجهد الشاق ، لدى أصحاب الأجسام السليمة القوية . وغشيت ذهنها — فى هذه الليلة — افكار رقيقة هادئة ، دارت حول « جارث » ، ولعل نور القمر هو الذى أوحى بها . فراحت جين تردد :

« والقمر يضىء باهرا .. فى ليلة كهذه .

« والهواء العليل يلثم الأشجار بلطف .. فلا تثير الأشجار ضجة ! » .

آه ! لقد كان الشاعر الكبير على بينة بما للعوامل التى تمس الحواس فتثير الذكريات، من أثر على القلب . ولقد استسلمت جين للذكريات التى بعثها ضوء القمر ، فخيل إليها — فى بادىء الأمر — أن صوت « جارث » ينبعث حولها من كل مكان ، مرددا :

« اللهم امح بنورك الدائم الأزلى اعتام بصائرنا العمياء ! » .

ثم خيل إليها أن عينى « جارث » الحبيبتين الوالهتين ، ترقبانها من أعماق السنا الفضى الذى امتزج بزرقة السماء العميقة . فأسرعت جين تغمض عينيها لتستمتع بالسينين الأخريين وتستوعبان نظراتهما .. وتجلى لها — حينذاك — مقدار التغيير البين الذى طرأ عليها ، فهى لم تشعر الليلة بما يدفعها إلى صد نظراته وتحويل عينيها عن عينيه اللتين تفيضان حبا .. ولم يكن يعتورهما اى ظل من اللوم أو العتاب ، اواه، اتراها قد أساءت إليه حين سمحت للمخاوف أن تساورها بصدد المستقبل !.. انها لتحس الليلة — فى أعماق قلبها — بثقة كاملة فيه وفى نفسها .. وخيل إليها انه لو كان معها الليلة ، لخرجا معا ليسبحا فى بحر هذا القمر الزاهى ، ولجلست على إحدى الأحجار الأثرية المتناثرة ، وتركته يجثو أمامها ويحملق فيها .. يحملق بنظراته الملحاحة ، كما يشاء وكما يحلو له .. لم تشعر الليلة فى نفسها بأى صد او نفور من عينيه الحبيبتين اللتين تمثلتهما فى الخيال ، بل انها استعذبت أن تناجيه قائلة : « كل شىء لك يا جارث ، فانظر كما تشاء وتشتهى .. إذا كنت أتمنى لو كان وجهى جميلا ، فلأجلك فقط . ولكن ، لماذا أخفيه إذا كنت تراه وفق هواك يا حبيبى ؟! » .

ما الذى أحدث كل هذا التغير فى تفكيرها ؟.. فهل فعلت وصفة الدكتور دريك مفعولها كاملا ؟ وهل رأيى الحالى أسلم وأصوب من ذلك الرأى الذى وجدت نفسها مضطرة إليه ،

والذى دفعها ــ خلال آلام الحرمان ــ إلى اتخاذ القرار الذى فرق بينها وبين « جارث » ؟.. وهل يجدر بها أن تستقل الباخرة التى كان مقررا أن تبارح الإسكندرية فى اليوم التالى ــ بدلا من أن تستكمل رحلتها إلى أعالى النيل، ثم إلى استانبول واثينا ــ لتصل إلى لندن بعد أسبوع، ثم تستدعى جارث وتفضى إليه بكل سريرتها ، وتطرح بين يديه مستقبلهما ؟

أما أنه ظل مقيما على حبها ، فأمر لم يخامرها فيه أقل ريب . بل لقد لاح لها ــ بمجرد التفكير فى استدعائه والافضاء إليه بالحقيقة ــ أنه قريب منها ، وأنها تشعر بذراعيه يضمانها، وراسه مسندا فوق قلبها .. وعيناه ، العينان المحبوبتان البراقتان .. أواه يا جارث ، يا جارث ! .. وهنا قالت جين لنفسها : « هناك أمر واحد يبدو لى ــ الليلة ــ واضحا جليا ، ذلك هو اننى لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنه بعد الآن ، لماذا كان ما يزال فى حاجة إلى .. إذا كان ما يزال راغبا فى .. فيجب أن أذهب إليه ! » .. وفتحت عينيها ، ونظرت إلى أبى الهول .. وإذا سلسلة الحجج والآراء التى جالت بخاطرها فى (شنستون) ، تومض فى ذهنها ، ومضة سريعة لم تستغرق سوى عشرين ثانية ، ثم أغمضت عينيها من جديد ، وعقدت يديها فوق صدرها ، وقالت : « لسوف أجازف ! » . وإذ ذاك ، استيقظ فى قلبها فرح عميق !

* * *

وفيما كانت جالسة ، اقبل على الشرفة ــ من قاعة الطعام ــ جماعة من الإنجليز كانوا قد وصلوا فى تلك الليلة ،

وتناولوا عشاءهم متأخرين فلم يتسن لجين أن تراهم .. كانوا سيدة حسناء ، وابنتها ، وشابين ، ورجلا كبير السن ، ذا مظهر عسكرى . وما كانت جين لتحفل بهم، لولا انهم قطعوا عليها تأملاتها ، إذ جلسوا إلى مائدة قريبة منها ، واستأنفوا حديثهم بصوت مرتفع ــ كما هى طبيعة الإنجليز ــ وكأنما لم يكن فى المكان سواهم .. ونهض أجنبى أو اثنان ــ كانا يفكران فى هدوء وهما يرتشفان القهوة ويدخنان ــ فانتقلا إلى مقعدين فى بقعة ساكنة ، تحت أشجار النخيل .. وأرادت « جين » أن تحذو حذوهما ، لولا أنها شعرت براحة فى مقعدها ، وخشيت أن تفقد لذة شعورها بقرب «جارث منها» ، فبقيت فى مكانها ..

وكان الرجل المسن يمسك فى يده خطابا ونسخة من صحيفة « المورننج بوست » تلقاهما لتوه من إنجلترا ، وكانت الجماعة تتبادل الحديث حول نبأ تضمنه الخطاب ، وفقرة كان الرجل يقرؤها فى الصحيفة بصوت عال . وقالت السيدة الحسناء : « يا للشاب المسكين ! يا له من حادث جد محزن ! » . فصاحت الفتاة : « أعتقد أن كان من الأفضل له ــ فى رأيى ــ أن يموت فور ساعته .. أجل هذا ما كنت أتمناه ! » .. فهتف أحد الشابين وهو يميل نحوها : « كلا ، فان الحياة حلوة .. مهما تكن الظروف » .. وصاحت الفتاة ، وهى ترتعد : « أجل ، ولكن .. أعمى ؟! .. أعمى طوال حياته .. يا للفظاعة ! » . تساءلت السيدة : « هل كانت بندقيته ؟ .. وكيف تقام حفلات صيد فى شهر مارس ؟ » ..

وحملقت جين فى القمر ، وهى تبتسم فى غبطة ، فان حبهما

المشغوف لحياة الحيوان ــ واعتزازها البالغ لكل حياة ، ولو
كانت لأتفه حشرة ــ كان عقيدة تتشبث بها بقدر ما كان
« جارث » يتشبث بعبادة الجمال . لذلك لم تكن تأسى لوقوع
مثل هذه الحوادث فى حفلات الصيد ، فاذا ما قدر للساعين
بالأذى ان يصابوا هم بأذى » وإذا ما قدر للتواقين إلى ازهاق
أرواح حية نابضة أن يلقوا الموت فان ذلك كان يبدو لجين جزاء
وفاقا ، ومن ثم فانها لم تكن تأسف ، أو تتظاهر بالأسف ..
وهكذا ابتسمت فى غيظ حين سمعت النبأ ، وقالت لنفسها :
« لقد نقصت عينان من العيون التى تتبين مرمى الطلقات نحو
اهدافها من صغار الأرانب المرتاعة ، التى تندفع نحو جحورها
لتلوذ بامهاتها الخائفة .. ونقصت يد لن ترتفع ثانية لتحول
طائرا حرا محلقا إلى كومة من الريش تختلج بآلام الاحتضار
.. انها فرصة جديدة لخير الوعل النبيل ، وهو يهرع مستبسلا
ليلحق برفاقه فى الوادى ! » .

وفى هذه الأثناء ، كان الرجل العسكرى المظهر قد وضع
منظاره على عينيه ، ونشر الخطاب المكتوب بحروف صغيرة
تحت أضواء النور ، ثم قال بعد برهة : « كلا .. فان
حفلات الصيد قد انتهت ، وليس هناك من يصطاد فى البرك
الآن .. ولكن بعض الفتية كانوا يصطادون الأرانب المتبقية
فى أعقاب الموسم » . فاستفسرت الفتاة : « وهل كان يطلق
بندقيته معهم ؟ » . وأجابها الرجل : « كلا .. وهذا ما ضاعف
سوء الحظ ، إذ أن المسكين كان قد امتنع عن الصيد منذ سنة
أو سنتين ، بل انه لم يكن يهواه ــ فى الواقع ــ لما طبع عليه

من حب شديد لجمال الحياة ومن كراهية للموت بكل أنواعه ..
ولكنه كان فى دار بديعة ــ يمتلكها فى الشمال ــ حيث انصرف
إلى الرسم . وتصادف أن راى ــ أثناء سيره ــ بعض الفتية
يصطادون الأرانب ، ولمح أرنبا جريحا يعانى ما اعتبره قسوة،
فانحنى فوق باب كبير ، وتدلى لينتشل الحيوان المسكين
وينقذه من العذاب . وعند ذلك وقع الحادث . فالظاهر أن
الفزع استولى على أحد الفتية لرؤياه ، فأطلق بندقيته وأصابت
الطلقة شجرة على بعد ياردات منه ، ثم انحرفت ، فلم تصب
منه مقتلا ، وانما تناثر الرش فى وجهه ، ولم يمس المخ بسوء
.. على أن رشتين اخترقتا شبكتى العينين ، وضاع البصر ،
دون ما أمل فى عودته ! » .

وهتف الشاب : « يا له من حظ سيىء بشع ! » . فقال
الشاب الآخر ، الذى لم يكن قد تكلم من قبل : « لست أدرى
كيف لا يولع إنسان بالصيد ! » . فرد الرجل المسن قائلا :
« لو أنك عرفته لما قلت ذلك .. لقد كان شابا مرحا مفعما
بالحياة والفتوة ، حتى أن المرء لا يستطيع أن يتصوره ميتا ،
أو على أى اتصال بالموت !.. ثم آن حبه للجمال كان أشبه
بدين وعبادة . ليس فى مقدورى أن أشرح ذلك ، ولكنه أوتى
موهبة تمكنه من ان يجعلك ترى الجمال فى أشياء لم تكن تحفل
بها من قبل .. أما الآن ، فان المسكين لم يعد يرى شيئا ! »

وسألته السيدة : « هل له أم ؟ » . فأجاب : « كلا ، ما من
أحد له مطلقا ، فهو وحيد تماما .. ولكن له عشرات من
الأصدقاء ، فقد كان من أحب الرجال فى لندن وكان بوسعه

ان ينزل فى أية دار فى المملكة بأسرها ، إذا أرسل بطاقة ليعلن مقدمه . ولكنه لو لم يؤت اى أقارب ، وأعتقد انه لم يفكر البتة فى الزواج . يا للشاب المسكين ! لكم يتمنى الآن لو انه لم يكن متعنتا ، فلقد كانت الصفوة المختارة من اجمل الفتيات رهن إشارته فى معظم المواسم ، ولكنه كان يكتفى بالصداقة الجميلة ، ويقنع بالزواج من فنه فقط . وها هو ذا ـ كما ذكرت الليدى انجلبى فى خطابها ـ يرقد فى الظلام ، وحيدا ، لا حول له ولا قوة ! » .

وهنا صاحت الفتاة : « أواه ! لنتحدث فى شىء آخر ! » . ثم دفعت مقعدها إلى الوراء ونهضت قائلة : « أريد نسيان هذه الفاجعة ، فهى مروعة .. تصوروا كيف يستيقظ المرء فلا يعرف أفى نهار هو أم فى ليل ، أو أن يضطر إلى ان يستلقى فى ظلمة دائمة ، ويفكر .. أواه ، هيا بنا ولنتحدث فى أمور مبهجة ! » . ونهضوا جميعا ، فتأبط أكبر الشابين ذراع الفتاة ، وقد سره أن أتاح له انفعالها هذه الفرصة . وقال لها بصوت خفيض : « انسى الأمر يا عزيزتى ، وتعالى نشهد أبا الهول تحت ضوء القمر ! » وغادرا الشرفة ، فتبعهما الباقون ولكن الرجل المسن ـ صاحب الصحيفة ـ تريث ليلقى صحيفته على المائدة ويشعل سيجارا . وإذ ذاك نهضت «جين» عن مقعدها ، وسارت إليه قائلة فى اقتضاب : « أتسمح بأن ألقى نظرة على صحيفتك ؟ » . فأجابها الرجل فى أدب جم : « بكل تأكيد !» . ثم حملق فيها عن كثب وقال : « آه ، طبعا يا آنسة شامبيون .. كيف حالك ؟ ما كنت أعلم أنك هنا فى هذه البقاع ! » .

ـ آه ، جنرال لورين ؟! .. لقد خيل إلى ـ لأول وهلة ـ أن وجهك مألوف لدى ، ومع ذلك فإننى لم أعرفك ! شكرا .. سأستعير صحيفتك قليلا إذا سمحت ، ولا تدعنى أعوقك عن اللحاق ، بأصدقائك ، فسوف نتقابل هنا ، بين وقت وآخر ».

وانتظرت جين حتى غابوا جميعا عنها ، وتلاشت ضحكاتهم وصوتهم ثم عادت إلى مقعدها .. المقعد الذى كانت تشعر فيه بقربها من « جارث » ، وألقت نظرة أخيرة على أبى الهول وعلى الهرم الأكبر وهما مغرقان فى ضوء القمر ، ثم أمسكت بالصحيفة وبدأت تلاوتها ..

« أمح بنورك الدائم الأزلى أعتام بصائرنا العمياء » !

نعم .. كان جارث دالمين ـ حبيبها جارث . صاحب العينين البراقتين الوالهتين ـ هو الذى يرقد فى داره فى الشمال ، أعمى ، وحيدا ، لا حول له ولا قوة !





وألقت نظرة أخيرة على أبى الهول وعلى الهرم الأكبر ، وهما مغرقان فى ضوء القمر ، ثم أمسكت بالصحيفة وبدأت تلاوتها ..

الفصل الرابع عشر

بانت قمم (دوفر) البيضاء تدريجيا ، وأخذت تتجسم للعين راسخة واضحة ، حتى برزت أخيرا صاعدة من البحر كجدار أبيض قوى ... وقالت جين لنفسها ، وهى تذرع سطح الباخرة : « البياض ، والقوة ! » . وهفا قلبها إلى مسقط راسها بعد غياب امتد سنتين . ثم اجتذبت بصرها قلعة (دوفر) ، وقد بدت جميلة فى النور اللؤلؤى الذى اتسم به هذا الأصيل من أصائل الربيع .. وطفر قلبها غبطة، ثم ارتد متهالكا إذ طعنته الذاكرة بسرعة ، فأغمضت الفتاة عينيها !

كانت كل المشاهد الجميلة التى تطعن قلبها بهذه القسوة ، منذ أن قرأت تلك الفقرة بالصحيفة الإنجليزية ، وهى جالسة فى شرفة فندق (مينا هاوس) . ولم يمض ساعات على تلاوتها الخبر ، حتى كانت منطلقة فى ذلك الطريق الطويل المفضى إلى (القاهرة) ، بسرعة فائقة .. وفى اليوم التالى ، صعدت إلى الباخرة بالإسكندرية ، ثم بارحتها فى (برنديزى) ، فاستقلت القطار ، وقضت تلك الليلة والنهار التالى فى سفر مستمر ، حتى قدر لها — أخيرا — أن تشهد شاطىء إنجلترا .. وإن هى إلا دقائق حتى تطأ قدماها أرض الوطن ولا يبقى أمامها غير مرحلتين لتبلغ مقصدها . ذلك لأن جين لم تتردد — منذ الدقيقة الأولى التى سارعت فيها بالسفر — فى تعرف وجهتها ومقصدها .. لسوف تسارع — فور وصولها —

إلى الحجرة التى كان الألم والظلام والقنوط تثيران فيها — ولا بد — حربا شعواء ضد الروح المعنوية وسلامة العقل والتشبث الغريزى بالحياة .. فى الرجل الذى كانت تحبه !.. كانت جين تعلم أنها ذاهبة إليه ، غير أنها أحست بعجز مطلق عن تدبير الأسلوب والطريقة اللذين يمكنانها من ذلك . فقد انبأها إدراكها السليم بأنها إزاء معضلة معقدة ، بالرغم من أن ذراعيها الملهوفتين ، وصدرها النابض بالألم ، كانت تصرخ قائلة : « يا إلهى ، أليس الأمر بسيطا ؟.. انه أعمى ووحيد ! .. أواه ، يا جارث ! » .

بيد انها عرفت أين تجد رأيا منزها عن الشوائب ، وأجدر من رأيها بأن تركن إليه .. وأيقنت أن أضمن طريق لها ، إنما يبدأ فى حجرة الاستشارة بعيادة الدكتور « دريك براند » . ولذلك ابرقت إليه من باريس .. وها هى ذى لا تنشد سوى شارع (ويمبول) . .

وعند بلوغها (دوفر) ، ابتاعت إحدى الصحف وبادرت إلى تقليب صفحاتها فى عجلة ، وهى تسير على رصيف الميناء خلف الحمال القوى الذى تسلم امتعتها . وفى عامود الأخبار الشخصية ، عثرت على الفقرة التى كانت تنشدها ، فقرات : « يؤسفنا ان نذكر أن السيد جارث دالمين ما يزال طريح فراشه ، فى حالة أشد ما تكون بعدا عن الاستقرار ، بداره . فى (ديسايد) — بمقاطعة (إبردينشاير) — عقب الحادث الذى وقع له من أسبوعين .. ولقد ضاع بصره تماما ولا أمل فى شفائه ، ولكن مواطن الإصابات الأخرى فى تحسن يبعث

على الطمأنينة . ويبدو ان كل ما كان يخشى من مضاعفات فى المخ قد زال . على أنه تعرض — خلال الأيام القلائل الأخيرة — لرد فعل خطير من جراء الصدمة ، دعا إلى ضرورة استدعاء السير « دريك براند » — اخصائى الأعصاب الذائع الصيت — ليتبادل الراى والمشورة — مع اخصائى العيون والطبيب المحلى الموكل بالعلاج . وقد عم الأسى والحسرة كل الأوساط الفنية والاجتماعية التى كان السيد دالمين معروفا فيها ، ويستمتع — عن جدارة — بمكانة عالية لدى اهلها .

* * *

شكرا لك يا سيدتى !.. نطق الحمال الكفء بهذه العبارة ، عندما تحقق — بنظرة سريعة إلى ما فى يده — من أن جين منحته شلنين ونصف ، بدلا من بنس واحد .. إذ كان قد ترك فى منزله زوجة شابة مريضة ، أشار عليها المعالجون بنظام خاص للتغذية . وكان — عندما تدافع الحمالون إلى السفينة — قد وجه دعاء بسيطا إلى الأب الذى فى السماء : « الذى يعرف جيدا ما أنت فى حاجة إليه » ، سائلا إياه أن يلفت إليه نظر مسافر سخى .. ومن ثم أحس بأن السماء هى التى قادته فعلا إلى هذه السيدة ذات الوجه الاسمر الخالى من الجمال ، والكتفين العريضتين . مما زاده يقينا من ذلك : انه عندما استجاب لاشارتها عن بعد ، كان قد أوشك أن يرتبط بدعوة سيدة صغيرة ، ثرثارة ، ذات متاع يفوق فى العدد متاع السيدة الأخرى : من حقائب ، وأبسطة ، وقفص به ببغاء ، وغير ذلك .. وقد رأى تلك السيدة تمن على زميله — فيما

بعد ـ بقطع نحاسية من عملة فرنسية ، وسمع زميله يدمدم
قائلا : « ما أظن أن سبعة بنسات ـ بهذه العملة ـ أجر كبير
عن حمل هذا المتاع ! » . ومن ثم أحس حمال امتعة جين
بسرور مزدوج : سرور بالإيمان الذى تدعم ، وسرور بالدعاء
الذى استجيب بسخاء !

وفى تلك الأثناء ، أقبل على الرصيف الذى استقر عنده
القطار ، غلام راح ينادى : « النبيلة جين شامبيون » ..
وأخذ يردد النداء عدة مرات ، حتى سمعته جين فمدت
ذراعها من النافذة وهى تقول : « هنا يا بنى .. انها لى » .
وفضت البرقية ، فاذا بها من الطبيب : « مرحبا بك فى الوطن.
عدت الآن من اسكتلندا . سانتظرك بمحطة (شيرنج كروس) ،
وأهبك كل الوقت الذى تطلبين ـ تناولى قهوتك فى دوفر ـ
دريك » .

وبكت جين بغير دموع ، شكرا لله وارتياحا ، فقد كانت من
قبل فى وحدة قاسية .. ثم أطلت من نافذة القطار ، ونادت
طالبة قدحا من القهوة .. وكانت القهوة آخر ما تشتهى ،
ولكنها ما كانت لتفكر فى أن تعصى نصيحة الطبيب ، ولو كان
بعيدا عنها !.. وكان الحمال ما يزال عند باب مقصورتها ،
فلم يكد يسمع نداءها حتى اندفع إلى مقصف المحطة وفى
اللحظة التى بدأ القطار يتحرك فيها ، أسلمها ـ خلال النافذة ـ
قدحا من القهوة الساخنة وطبقا به خبز وزبد . فقالت له :
« شكرا أيها الرجل الطيب ! » .. ثم وضعت قدح القهوة
والطبق على المقعد ، ودست يدها فى جيبها فأخرجت قطعة

نقدية كبيرة ، وهى تقول : « هاك ، فأنت قد بالغت فى العناية
بى .. كلا ، احتفظ بالباقى ، فان احضار القهوة فى لحظة
قصيرة يستحق أجرا مضاعفا .. استودعك الله ! » .

وتحرك القطار وعينا الحمال تحملقان فيها ، وقد اغرورقتا
بالدموع .. لقد قال لنفسه عندما تلقى عطاءها الأول :
« حسنا ، هذا لمشترى اللبن والبيض الطازج ! » .
فلما تلقى العطاء الثانى ، أضاف حساب الشيئين الباقيين
من النظام الغذائى الذى اوصى به الطبيب لزوجته ، فقال :
« وهذا للحساء والجيلاتين ! » .. وانشرح صدره فهال
قائلا : « ان اباك الذى فى السماء ، يعرف ما أنت فى حاجة
إليه ! » .

* * *

اما جين ، فقد جلست فى ركن مريح من المقصورة ،
وكبحت دموع الشكر والابتهاج التى كادت تسيل من عينيها .
ثم شربت قدح القهوة فشعرت بانتعاش فاق ما كانت تتوقع
.. كانت هى الأخرى ـ كزوجة الحمال ـ بحاجة إلى اشياء
كثيرة .. لم تكن بحاجة إلى نقود ، إذ كان لديها منها الكثير ،
ولكن ما كانت تمس بها الحاجة إليه قبل سواه ـ فى هذه
الآونة ـ هو صديق عاقل ، وقادر ، وجواد بعونه . وها هو
ذا « دريك » قد خف إلى مساعدتها .. وهنا أعادت تلاوة
البرقية ، وابتسمت وهى تلمح أن طابعه قد تجلى فى برقيته ،
إذ أنه عنى بتوصيتها بتناول القهوة .. وكم كان كريما منه
أن يعتزم استقبالها بنفسه فى المحطة ، وقد علمت قيمتها ،

واضطجعت على الوسـائد . كانت قد قضت يوما وليلة فى عجلةعاصفة محمومة، وها هى ذى قد جعلت نفسها ـ اخيرا ـ فى متناول يد « دريك » وتحت اشرافه المأمون ، فهدأ اضطراب نفسها ، وغشيتها سكينة هادئة ، فاستسلمت إلى نوم عميق

اجل « ان اباك الذى فى السماء ، يعرف ما انت فى حاجة إليه ! » .

. . . .

اغتسلت جين وأصلحت من هندامها وزينتها ، وهى تشعر بانتعاش كامل ، ثم أطلت من نافذة مقصورتها ، بينما كان القطار ينساب إلى محطة (شيرنج كروس) . . وكان الدكتور دريك واقفا على الرصيف ، أمام البقعة التى استقرت عندها مقصورتها تماما ، عند وقوف القطار . . وكان ذلك مجرد مصادفة ، ومع ذلك فانه بدا ـ لعينى جين ـ شيئا يتسق وسجايا الطبيب ، فكأنما كان من الدقة بحيث حدد موقفه من الرصيف الطويل ، حيث كان ينبغى تماما !! . . ولقد قالت عنه يوما ـ إحدى المريضات المتحمسات له ، مهتمة بإبراز المعنى الذى كانت تقصده ، دون احتفال بقواعد اللغة : « انه دائما ، كما تعلمين . . هناك تماما ! » . كانت تعنى انه يوجد فى المكان والزمان اللذين تمس الحاجة إليه فيهما . وقد ساعدت هذه الخصلة ـ التى امتاز بها ـ على جعله عونا كبيرا للكثيرين فى الضائقات !

كان واقفا بين الحمالين ، فسرعان ما كانت يده على مقبض باب « جين » . . وكانت هى مطلة من نافذتها ، تتأمل وجهه

النحيل الصامت ، الذى أشرق ترحيبا بها . وقرأت فى عينى صديق صباها شعورا دافقا من العطف والادراك الكامل . ثم رأت خلفه خادم عمتها الخاص ، ووصيفتها التى كانت قد الحقتها مؤقتا بخدمة الدوقة . . ولم تمض لحظة ، حتى كانت جين على الرصيف ، ويدها فى يد الدكتور دريك ، وهو يقول لها : « هذا بديع يا عزيزتى . . ان صحتك جيدة جدا كما يتراءى لى . والآن هات مفاتيح حقائبك ، وما أظنك قد أحضرت أشياء ممنوعة . ولقد اتصلت بالدوقة لترسل بعض اتباعها ليتولوا أمر امتعتك ، ولكى لا تتوقع وصولك قبل موعد العشاء ، لأنك ستتناولين الشاى معنا . . اتوافقين على ذلك ؟ . . تفضلى من هنا ! اجتازى هذا الحاجز ! يا للفوضى ! كل شخص يريد مخالفة القوانين والنظم ، وكل واحد يريد أن يكون فى المقدمة متخطيا الآخرين ! . . الواقع ان صبر رجال السكك الحديدية وطباعهم جديرة بأن تكون قدوة للبشر ! »

كان الدكتور يتكلم طيلة الوقت ، وهو يقود جين بين زحام الجماهير ، ثم فتح باب مركبة كهربائية انيقة ، وساعدها فى الصعود ، ثم اتخذ مجلسا بجانبها . وسارت بهم المركبة مسرعة إلى شارع (ستراند) ، ثم عرجت إلى ميدان (ترافلجار) .

وقال الدكتور دريك ، « والآن ، ألم تكن نياجرا شيئا رائعا؟ . . اننى حين أسمع بعض الناس يقولون : « ألم تشعر بخيبة أمل فى نياجرا ؟ . . لقد شعرنا نحن بذلك ؟ » ، اميل إلى ان

أتمنى ــ للحظة قاتلة ــ أن تنشق الأرض فتبتلعهم .. أن الناس الذين يشعرون بخيبة أمل فى « نياجرا » ويتحدثون عن ذلك، لا يحق لهم ان يدبوا على وجه البسيطة .. وما رأيك فى « الأم الصغيرة » ؟ . أليست جديرة بأن يعرفها المرء ؟ أرجو ان تكون قد بعثت لى بتحية معك .. وميناء نيويورك ؟ هل رأيت شيئا يماثلها حين تكون الباخرة مقبلة عليها عند غروب الشمس ؟ »

وارسلت « جين » فجأة زفرة باكية ، ثم التفتت إليه وقد جف دمعها ، وقالت : « أما هناك من أمل يا دريك ؟ » .. فوضع الدكتور يده فوق يدها ، وأجاب : « لسوف يعيش كل حياته أعمى يا عزيزتى .. غير أن فى الحياة أشياء كثيرة غير البصر ، فلا يحق لنا والأمر كذلك أن نقول : لا أمل ! » .

وعادت تسأله : « وهل سيعيش ؟ » . فهتف : « ليس من سبب يمنعه من أن يعيش ، ولكن إلى متى ستكون لحياته قيمة لديه .. هذا يتوقف على ما يمكن عمله لذلك المسكين . فى بضعة الأشهر المقبلة، إذ أنه تحطم نفسيا أكثر منه جسمانيا.

فخلعت جين قفازها وابتلعت لعابها فجأة ثم شدت على ركبة الدكتور قائلة : « دريك ، اننى .. أحبه ! » .. فصمت الدكتور برهة ــ وكأنه يقلب هذا الاعتراف الخطير على كل وجوهه ــ ثم رفع اليد القوية اللطيفة التى كانت فوق ركبته ، وقبلها فى احترام جميل .. وهى حركة نمت عن إجلال الرجل لما أبدته المرأة من صدق جرىء . ثم قال لها :

« ان المستقبل يدخر كثيرا من الخير لجارث دالمين ــ فى هذه الحالة ــ حتى اننى أظن أنه سيستطيع الاستعاضة عن فقد بصره .. وحتى يحين ذلك الوقت ، فأنا أعلم أن لديك الكثير مما ترغبين الافضاء به إلى ، كما أنه من حقك ولا ريب أن تسمعى منى كل تفصيلات حالته وما يمكننى شرحه لك .. وها قد بلغنا شارع (ويمبول) فتعالى معى إلى حجرة الاستشارة .. ولقد أصدرت الأوامر لستووارت بعدم ازعاجنا مهما تكن الأسباب ! » .

الفصل الخامس عشر

كانت حجرة الدكتور هادئة جدا .. واضطجعت جين فى المقعد الكبير المكسو بالجلد الأخضر ، وأسندت قدميها على مسند الأقدام ، بينما تشبثت قبضتاها بذراعى المقعد .. وجلس الدكتور إلى مكتبه فى مقعده المتحرك المستدير الذى يستعمله دائما .. وهو مقعد كان يمكنه من أن يستدير فجاة فيواجه المريض ، بسرعة أو يستدير فى هدوء لينحنى على مكتبه . ولكنه لم يكن ينظر إلى جين — إذ ذاك — بل كان يدلى اليها بوصف مفصل لزيارته لقصر (جلينيش) الذى لم يبرحه إلا فى الليلة الماضية .. لقد قضى خمس ساعات مع جارث .. ولاح للطبيب أن من الأرحم أن يسرد لجين كل شىء ، وعيناه محدقتان أمامه ، لأنه كان واثقا من أن دموعها ستسيل — ولا بد — على وجنتيها ، فرغب فى أن تظن انه لم يفطن اليها !

ومضى فى كلامه قائلا : « انكِ تعلمين يا عزيزتى أن الجروح الأصلية تسير سيرا حسنا . والغريب حقا أنه بالرغم من أن شبكة كل من العينين قد خرقت ، وذهب الإبصار إلى غير عودة ، فان الأجزاء المحيطة بالعينين لم تصب بأضرار تذكر ، كما أن المخ سليم ، لم يلحقه اى اذى . اما الخطر — فى الوقت الراهن — فينبعث عن صدمة الجهاز العصبى ، وعن الالم النفسى الهائل الناشىء عن تبين فقد الابصار !.. ولقد كانت الآلام الجسدية فظيعة — بلا ريب — فى الليالى والأيام الأولى .

يا للمسكين ، انه يلوح وكأن الحادث هدمه ، ولكن بنيته رائعة ، وقد كانت حياته نظيفة ، وصحية ، ومعتدلة ، فكانت لديه كل فرصة لابلال طيب ، لولا أن عذابه النفسى كان عظيما حين خفت آلامه الجسدية ، وبدأ عماه يصبح حقيقة يزداد شعورا بها يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . فقد كان للابصار عنده قيمة لا توصف .. كان وسيلة لتبين جمال التكوين ، وجمال الألوان .. كانت طبيعة الفنان فيه تسود كل كيانه ، وقد قيل لى انه — بعد المصاب — لم يتكلم إلا لماما ، فهو رجل شجاع وقوى .. ولكن درجة حرارته أخذت تتذبذب بشكل مخيف ، وظهرت عليه أعراض اضطراب عقلى ، لا داعى لأن أشرح تفصيلاتها الفنية لكِ . وبدا انه اكثر احتياجا إلى اخصائى الأعصاب منه إلى طبيب العيون .. ومن ثم فهو الآن تحت عنايتى ! » .

وصمت الدكتور ، واخذ يسوى بعض كتب كانت ملقاة فوق مكتبه ، ثم قرب إليه إناء صغيرا به بعض زهور البنفسج ، وراح ينعم النظر فيها لبضة لحظات ، ثم اعادها إلى حيث كانت .. زوجته قد وضعتها ، واستأنف حديثه قائلا :

« وبوجه عام فأنا راض الآن عن الحالة . لقد كان فى حاجة إلى صوت صديق يخترق حجب الظلام .. كان بحاجة إلى يد تشد على يده فى ادراكٍ مخلص .. لم يكن راغبا فى اى اشفاق ، فكان الذين يتحدثون عن خسارته الفادحة دون فهم لحاله أو مقدرته على ادراكَ استفحالها ، يوشكون أن يدفعوا به إلى الجنون! كان فى حاجة إلى صديق يقول له : « انها معركة .. معركة شديدة ، مستيئسة .. ولكنكَ بعون الله ستكسبها

وتنتصر .. قد يكون الموت أسهل ، ولكن الموت معناه الخسارة والفشل ، فيجب ان تعيش لتنتصر .. انه أمر يفوق كل طاقة بشرية ، ولكن ـ بمعونة الله ـ ستخرج منتصرا ! » .. كل هذه الكلمات ، وكثير غيرها ، قلتها له يا جانيت . وقد حدث بعد ذلك شيء غاية فى الغرابة والجمال . وبوسعى أن أخبرك به ، وان أخبر به « فلاور » طبعا ، ولكنى لن أعيد ذكره لأى مخلوق غيركما .. لقد كانت المعضلة ان نحصل منه على أى تجاوب أو رد ، ولكنه لم يبد قادرا على أن ينبه حواسه إلى درجة تمكنه من ملاحظة ما يجرى حوله .. على أنه بدا ان كلمتى « بمعونة الله » قد تغلغلتا فى نفسه ، ووجدنا صدى سريعا فى عقله الباطن فسمعته يرددها مرة أو مرتين ، ثم ادخل تعديلا إذ قال : « يفيض من مجدك يا إلهى » .. ثم ادار راسه على الوسادة ، فى بطء ، وقد تبدل شكل وجهه ، وقال : « اننى انكرها الآن ، وهذه هى موسيقاها ! » .. واخذت اصابعه تتحرك على اغطية الفراش ، وكأنه يلمس أوتارا موسيقية ، ثم اخذ يردد فى صوت منخفض جدا ولكنه واضح ، الفقرة الثانية من ترنيمة : « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. وكنت أعرفها ، لاننى كنت انشدها مع فرقة المرنمين فى كنيسة أبى ، فى بلدتنا .. أتذكرين ؟

« اللهم امح بنورك الدائم الأزلى اعتام بصائرنا العمياء
« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة .. واملأها بشرا ، بفيض من مجدك
« وابعد عنا اعداءنا وامنح أوطاننا السلام
« وحيث تكون أنت مرشدنا فلن يكون ثمة سوء ! »

وأردف الطبيب قائلا : « وكان صوته أشد ما سمعت تأثيرا فى النفس ! » . ثم صمت إذ رأى جين قد أخفت وجهها فى يديها ، وأجهشت ببكاء حار ، وانتابتها خلجات عصبية كانت تهز جسمها هزا عنيفا .. فلما هدأت ثائرتها ، عاود الطبيب حديثه قائلا :

ـ وبذلك اهتديت إلى الأساس السليم الذى أسير عليه . فعندما تداهم الإنسان فاجعة مروعة كهذه ، لا يبقى لديه من سند أو ملجأ سوى الدين .. وبقدر ما يكون عليه الشخص من نمو ـ فى الناحية الروحية ـ تكون مقدرته الجسدية على المقاومة والصمود .. ولدى دالمين من الايمان الحقيقى أكثر مما يظن جميع من يعرفونه معرفة سطحية . وما لبثنا أن تحدثنا ـ بعد ذلك ـ حديثا تركز فى حدود معينة ، فاقنعته بالموافقة على إجراء أو اثنين . فأنت تعلمين أنه بلا اقارب يمكن الركون اليهم ، اللهم إلا بعض أبناء العمومة الذين لم يكونوا على ود به فى أى وقت من الأوقات .. وها هو ذا وحيد تماما ، فبالرغم من أنه أوتى عشرات من أصدقاء ، إلا أنه يجتاز فترة ينبغى الا يحف به فيها غير الأصدقاء الحميمين جدا ، ومع أنه يبدو كالفتى الساذج الذى يسهل التغلغل إلى أعماقه ، إلا اننى بدأت أرتاب فى أن أى فرد منا قد عرف « جارث » على حقيقته ، فان روح هذا الرجل أعمق وأبعد ما تكون عن مظهره السطحى !!

ورفعت جين رأسها ، وقالت فى بساطة : « بل اننى عرفته تمام المعرفة ! » . فقال الطبيب : « آه ، فليكن ! .. انما يجب

الا يسمح للأصدقاء العاديين بالاقتراب منه ، كما قلت .
لقد ذهبت ليدى انجلبى بأسلوبها المتهور اللطيف ، دون أن تنبىء أحدا باعتزامها الحضور، وقطعت الرحلة من (شنستون) إلى داره ، دون أن تصطحب معها خادمة أو متاعا ، اللهم إلا حقيبة يد .. واندفعت مهرولة نحو باب الدار ، فلقيها « روبرت ما كنزى » ــ وهو الطبيب المقيم الذى يتولى علاجه، وقد عرف بعزوفه عن النساء ــ فخشى لدى رؤياها أن تكون زوجة لدال ، لم يدر أحد بزواجه منها . إذ خيل له أن السيدات اللائى لا يعلن عن حضورهن ، ويصلن فى عربات مستأجرة ، لا بد أن يكن زوجات لا يرغب أزواجهن فيهن .. وعلمت بأن شجارا مضحكا جرى بينهما . ولكن الليدى انجلبى احتالت بأساليبها على « روبى » المسكين ، وأوشكت أن تخلب لبه . ومنذا الذى يقوى على مغالبة سحرها ؟! على أن أحدا لم يجرؤ على السماح لها بدخول حجرة « دال » ــ بطبيعة الحال ــ فاقتصرت مواساتها على أنها سمحت للعجوز التى تدبر شئون مسكن « دال » ، بأن ترتمى على كتفها الجميلة وتذرف الدموع مدرارا ، وتجهش بالبكاء .. ولقد كانت مهزلة تتجلى للسامع الذى يعرف هؤلاء الأصدقاء جميعا ، أكثر من معرفتهم لأنفسهم . ولكن ، لنعد إلى التفصيلات الواقعية .. ان ثمة ممرضا مدربا خير تدريب ، يعنى بدال مع خادمه الخاص ، بعد أن رفض رفضا باتا قبول أية ممرضة من مستشفانا فى لندن ، كان فى وسعها أن تشيع فى حجرة المرض شيئا من الترفيه اللطيف والعطف النسوى . وقال انه لا يقوى على احتمال أن تلمسه أية امرأة ، فانتهى الأمر عند ذلك ، وعهد

بتمريضه إلى رجل كفء ولكن بوسعنا الآن أن نستغنى عن هذا الممرض ، فقد أصررت على أن أبعث إليه بممرضة أختارها له بنفسى ، لا لمجرد أن تقوم بواجبات التمريض ــ فان خادمه الخاص يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، وقد ظهر انه كفء قدير ــ وانما سينحصر عملها فى أن تجالسه ، وتقرأ له ، وتتولى بريده .. فان هناك أكداسا من الرسائل لم تفض بعد، ويجب أن تتلى عليه .. أى أن مهمتها ــ فى الواقع ــ هى أن تساعده على استئناف الحياة من جديد ، بعد فقدانه الابصار . وهى مهمة تحتاج إلى كثير من المران ، وتتطلب لباقة وحسن تصرف. وقد عثرت ــ بعد ظهر اليوم ــ على خير من تصلح لهذه المهمة . فهى امرأة سامية الخصال ، راقية الأصل ، وقد تولت التمريض تحت اشرافى قبل الآن كما انها على دراية تامة بالمسائل النفسية التى تتطلبها حال المريض .. ثم انها رشيقة، ظريفة ، من ذلك النوع من الشابات ، الذى كان دال المسكين يحب أن يكون بجواره دائما ، قبل أن يفقد بصره .. وقد كان جارث ــ كما تعلمين ــ ممن يصعب ارضاؤهم بالمظاهر ، كما أنه كان خبيرا بالحسن !.. ولقد كتبت إلى الدكتور ماكنزى وصفا تفصيليا لها ، حتى يهيىء مريضه قبل وصولها . فان عليها أن تذهب بعد باكر . ولقد كان من حسن الحظ أن عثرنا عليها ، لأنها خير من كنا نبغى ، وقد انتهت أخيرا من تمريض حالة سل طال بها العهد ، فأصبحت تسير نحو الشفاء ، ورؤى أن تسافر إلى الخارج للنقاهة . وبذلك ترين يا جانيت أن الأمور تسير إلى الاستقرار .. والآن يا بنيتى العزيزة ، ان لديك قصة خاصة ترغبين أن تدلى بها إلى ، فها أنذا مصغ

لك .. على أننى سأطلب الشاى ـ قبل ذلك ـ وسنتناوله معا هنا .. واسمحى لى ببضع دقائق أصعد فيها إلى «فلاور» لأزجى إليها بضع كلمات !

* * *

بدا من الطبيعى فيه أن تسكب الشاى للطبيب ، ثم تراقبه وهو يضيف كثيرا من الملح فوق الخبز والزبد ، يطبق الشطيرة بالدقة والعناية اللتين اتسم بهما كل عمل من أعماله، مهما يكن بسيطا . ولم يكن قد تغير ـ فى جوهره ـ تغيرا يذكر ، عما كان عليه فى العشرين من عمره ، حين كان يقضى عطلاته المدرسية فى الابروشية ، وحين اعتاد أن يتيح للفتاة ـ التى كانت تعيش وحيدة فى الضيعة ـ سرورا عظيما بتناول الشاى معها فى حجرة دراستها . فاذا قدر لهما التخلص من رفقة مربية الفتاة ، والبقاء معا وحيدين ، فما كان أبهجها من أويقات يقضيانها جالسين على بساط المدفأة ، يشويان ثمار الكستناء ، ويتناقشان فى الموضوعات العديدة التى كانا يهتمان بها معا !.. ولقد ظلت جين تذكر تلك المتعة الممتزجة بالألم ، التى كانت تلقاها عند تقليب الكستناء الساخنة باصابعها على الموقد ، حتى لا تعرض أصابعه هو للاحتراق !.. فقد اعتادت أن تعجب دائما ـ فى سريرتها ـ بيديه ، وبالأصابع السمراء النحيلة التى كانت برغم رقة ملمسها مليئة بقوة رفيقة !.. وكانت تحب أن تراقب هذه الأصابع وهى تبرى لها أقلامها ، أو ترسم لها أشكالا هندسية بديعة ، فى كراساتها .. وكان يحلو لها أن تتصور كيف أن حياة الناس ستتوقف على ما لهذه

الأصابع من مهارة وحذق ، عندما يقدر الفتى ـ فى السنوات المقبلة ـ أن يقوم باجراء عمليات جراحية هامة . وكان فى تلك السنين الماضية ، يبدو أكبر منها سنا . ثم حان الوقت الذى تطورت فيه بسرعة ونمت ، وأصبحت امرأة شابة ، عيناها فى مستوى عينيه .. وإذ ذاك بدا انهما متعادلان فى السن . ثم بدأت جين تشعر ـ مع انقضاء السنين ـ وكأنها تكبره سنا ، واعتادت أن تدعوه بـ «الفتى» تأييدا لهذا الشعور.. ثم حادث بعد ذلك « فلاور » ، وازدياد المسئوليات ، فرأت جين وجهه يزداد نحولا ، وقد علته أمارات الارهاق ، وشاب شعر فوديه .. واشفقت جين عليه ـ إذ ذاك ـ ولكنها لم تجرؤ على أن توليه العطف . وما لبثت أمور الطبيب أن تحسنت، وبدا أن الحظ قد آثره بخيراته ، سواء فى مهنته ، أو فى مكانته بين الناس ، أو ـ فوق كل شىء ـ فى حياته العاطفية ، التى كانت « فلاور » تحتويها بين يديها اللطيفتين . وارتاح قلب جين ، وإن شعرت بمزيد من الوحدة ، بعد أن أصبحت بلا رفيق . على أن صداقتهما ظلت وثيقة ، وقد ضما إليهما « فلاور » طرفا ثالثا .. طرفا ودودا ، يحدوه العرفان بالجميل والشوق إلى أن تتعلم ـ من المرأة التى كانت صداقتها لزوجها ركنا هاما فى حياته ـ كيف تنجح فيما كانت قد فشلت هى فيه من قبل . وظل قلب جين الأمين كريما وفيا لهما معا ، وإن كان شعورها بالوحشة قد أخذ يستفحل وهى تشهد سعادتهما الشاملة » .

أما الآن ـ فى ساعة الضيق والحاجة ـ فلم يكن لها من معين سوى « دريك » وحده . وقد أدرك الطبيب ذلك ، ورتب

الأمور على ضوء هذه الحقيقة ، إذ شعر بأن الفرصة قد واتته ليرد لها ما أولته إياه من وفاء طوال عمره . وكان خليقا بالحديث الذى دار بينهما ـ فى أصيل ذلك اليوم ـ أن يكون محكا دقيقا لصداقتهما .. ومن ثم فقد أمر الطبيب ـ بما أملته عليه خبرة الاخصائى بتقدير التأثير النفسانى لأتفه المظاهر الخارجية ـ ببعض الفطائر ، وبغلاية ماء ، وطلب إلى « جين » أن تعد الشاى . وما ان فار الماء فى المرجل ، حتى كانا قد استعادا ذكرى عهد الصبا وشعراء أبى درده الكستناء ، وضحكا كثيرا لما كانت تبديه مربية جين من جهد لتردهما إلى اتباع النظام ، ولما كانا يبذلانه لمحاولة التهرب من رقابتها . ورجعت بهما الذكرى سنوات عديدة ، حتى أحست جين بأنها فى دارها مع رفيق صباها .

ومع ذلك ، فقد دهمتهما لحظة وجوم ، عندما ازاح الطبيب مائدة الشاى ، وحدق كل منهما فى وجه الآخر ، وهما فى مقعديهما المريحين حول المدفأة . ولاحظ كل منهما كيف كان صاحبه يسلك مسلكه المألوف معه .. فقد جلست جين معتدلة فى مقعدها ، وثبتت قدميها بقوة فوق بساط المدفأة ، وذراعاها مستندان إلى ركبتيها ، يداها معقودتان أمامها .. بينما اضطجع الطبيب فى مقعده ، وعقد ساقيه ـ إحداهما فوق الأخرى ـ وأسند مرفقيه إلى ذراعى المقعد ، والتقت أصابعه بعضها ببعض ، وقد سكن جسمه تماما ، بينما اشتدت يقظة ذهنه .

***

وكان الصمت الذى ساد بينهما ، أشبه ببركة ماء عميقة ، ساكنة . ثم كانت جين السباقة إلى الغوص فى هذه البركة ، إذ قالت : « سأخبرك بكل شىء ، يا دريك .. سأحدثك عن قلبى ، وعن عقلى ، وعن مشاعرى كما لو أنها كانت عظاما وعضلات ورئات .. وأحب منك أن تجمع بين مهمتى الطبيب والقس الذى يتلقى الاعتراف ! » .

وكان الطبيب وقتئذ يتأمل أطراف أصابعه ، فما أن سمع قولها ، حتى التفت إليها بسرعة وأومأ برأسه ، ثم حول نظره إلى نار الموقدة . فعادت تقول : « لقد كانت حياتى مشوبة بوحدة موحشة ـ إلى حد ما ـ يا دريك . فما كنت يوما عنصرا لازما لحياة شخص آخر ، كما أن أحدا لم يصل إلى الأعماق الحقيقية لنفسى .. وكنت أعلم بوجود هذه الأعماق . ولكنى كنت أدرك أن أحدا لم يقو على استقصائها وسبر أغوارها ! » .

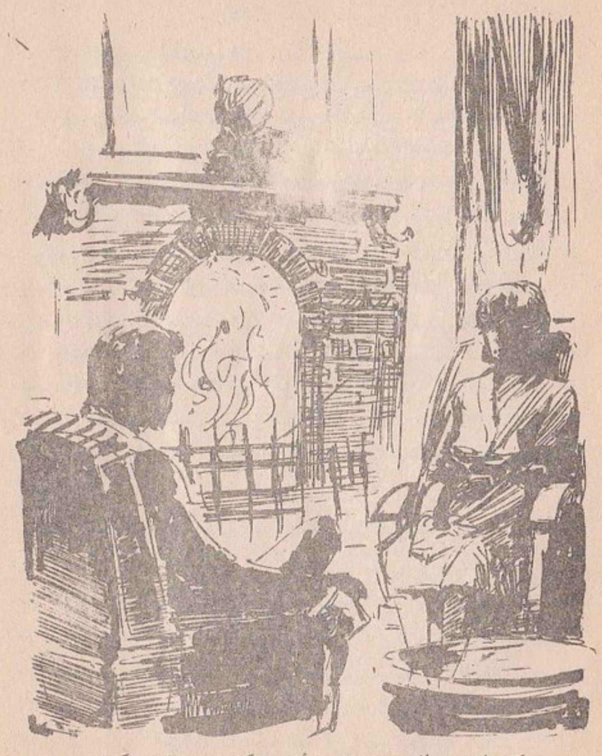
ففغر الطبيب فمه وكأنه يهم بالكلام ثم أطبق شفتيه أشد من ذى قبل ، واكتفى بأن هز رأسه صامتا . واستطردت جين قائلة : « لم ألق قط من أخذ ذلك الحب الذى يجعل للمرء الأولوية المطلقة لدى شخص آخر ، لا ولا أنا أحببت أحدا هذا الحب . كنت أحفل كثيرا وأهتم .. ولكن الاحتفال والاهتمام ليسا حبا !.. أواه يا فتاى ، اننى أدرك هذا الآن ! » . وبدا الجانب المواجه لها من وجه الطبيب ، أشد بياضا من ذى قبل ، بالنسبة للخضرة القاتمة التى كان عليها

لون المقعد . غير أنه ابتسم وهو يجيبها : « هذا حق يا عزيزتى .. هناك فارق كبير ! » .

ـــ لقد كان لى أصدقاء لا يحصى عددهم ، بينهم كثير من أظرف الرجال ، ويكاد معظمهم يكونون أصغر منى سنا ، وقد اعتادوا أن يدعوننى : « الآنسة شامبيون » فى حضورى ، و « جين العجوز الطيبة » خلف ظهرى !

وابتسم الطبيب ، إذ كثيرا ما طرق مسامعه هذا التعبير .. وكان يشتم فى صوت قائله ـــ فى كل مرة ـــ روح العطف القلبى والاعجاب .. بينما استأنفت جين حديثها قائلة : « والرجال أكثر انسجاما معى ـــ عادة ـــ من النساء .. ولما كنت كبيرة الجسم ، قوية البنيان ، ومن عادتى أن أسمى المعول «معولا» ، ولا ادعوه « أداة من أدوات الحديقة » ، فقد اعتبرتنى النساء « كبيرة العقل » ، واعتدن أن يخفننى .. أما الفتيان ، فكانوا يركنون إلى ، ويودعوننى ثقتهم واسرارهم ، ناظرين إلى أخت كبرى لا تسبب لهم متاعب ، وتعلم عن أمورهم أقل مما تحرص الأخت الكبرى على معرفته ، بل هى أكثر استعدادا للاهتمام بالأمور التى يؤثرون أن يفضوا بها إليها ، منها بالأمور التى يكتمونها .. وبين أصدقائى الرجال يا دريك ، كان « جارث دالمين ! » .

وصمتت جين .. وانتظر الطبيب حتى تكمل حديثها . ولم يطل انتظاره ، إذ عادت تقول : « لقد كنت دواما شديدة الاهتمام بأمره ، لما له من أسلوب مبتكر طلى ، ولأننى .. » .
وهنا زحفت على وجنتيها السمراوين ـــ حمرة داكنة .



وكان الصمت الذى ساد بينهما ، أشبه ببركة ماء عميقة ، ساكنة ..

ثم استأنفت حديثها قائلة : « أجل ، اننى أعتقد ـ وإن لم اكن
قد تأكدت من ذلك ، من قبل ـ اننى وجدت جمـاله الفائق
خلابا ! . . وكنا إذ ذاك فى ظروف متماثلة ، فكل منـا محـروم
من والديه ، وكلانا على جانب كبير من الثراء وغـير مسئولين
عن تصرفاتنا أمام أحد ما ، ولنا كثير من الأصدقاء المشتركين ،
وغالبا ما نكون ضيفين فى مكان واحد ! . . وانسقنا إلى الفة
مستعذبة ، فكان هو الوحيد من أصدقائى الذى أشعرنى بانه
« رجل وأخ » . . وكنا نناقش أمور النساء بالعشرات ، لاسيما
أولئك اللائى كن موضع اعجابه تباعا ، فنستعرض اثر جمالهن
عليه ، وكنت أرقب الموقف باهتمـام ، لأرى من منهن التى
سيقتصر عليها هواه المتقلب الهائم ، فى آخر الأمر . . ولكن
هذا كله تبدل فى نصف ساعة ، فى أحـد الأيام الحافلة . إذ
كنا نقيم مع آخرين فى (أوفردين) ، وأقيمت بالدار حفلة كبيرة
. . كانت العمة « جورجينا » قد أعدت حفلة موسيقية دعت
لحضورها نصف جيرتها . وفى آخر لحظة ، تخلفت السـيدة
« فيلما » عن الحضور . واشتدت الحيرة والارتباك بالعمـة
جينا ، حتى أنها أخذت تستلهم ببغاءها الرأى ! . وانت تعلم
كيف تفعل ذلك ، فهى تقول دائما انها إنما تردد كلمات الطائر
العزيز » . . يجب أن يعمل شيء وكان لا بد من مخرج ، فتطوعت
لأن أحل محل « فيلما » وقمت بالغناء فى الحفلة » .

فشهق الطبيب دهشة . ولكنها واصلت الحديث قائلة :
« وغنيت قطعة « المسبحة » ، وهى الأغنيـة التى طلبتها منى
« فلاور » فى آخر مرة كنت هنا . هـل تذكـر ؟ » . فهـز
الطبيب رأسه قائلا : « نعم أذكر » ، بينما استـطردت هى

تقول : « وبعد ذلك تغير كل شيء بين جارث وبينى . . ولم
أدرك كنه هذا التغيير فى بدايته . . كنت أعلم ان الموسيقى قد
حركت عواطفه إلى أعمق حد ، فان لجمـال النغم عليه ذات
الأثر الذى لجمال الألوان . . غير اننى ظننت بان هذا العارض
قد ينقضى بانقضاء الليل . ولكن الأيام مرت وهـذا التبـدل
الغريب ، المستعذب ، الذى طرأ عليه ، باق على حاله . وما
كان لأحد غـيرنا ان يلاحظ ذلك . أما أنا ، فقـد أحسست
ـ فجأة ـ باننى فى حياتى كلها أصبحت لازمة لشـخص ما ،
لأول مرة فى عمرى بأسره . فلم اكن ادخل حجرة إلا وانا واثقة
بانه يحس بوجودى ، وما كنت ابارح مكانا دون أن أوقن من أنه
يحس فورا بالفراغ ويتألم لغيابى . . وكانت الحال الأولى تملأ
جوانح كلينا ، فى حين أن الحال الثانية كانت تخلف فـراغا
لا سبيل إلى التخلص منه . . عرفت ذلك ولكننى ـ مع ما فى
الأمر من غرابة لا تصدق ـ لم أحدس قط أن هذا هو . . الحب ،
بل ظننت أنها رابطة وتقارب قويان غير عاديين ، قوامهما العطف
والفهم المتبادل الذى كان مبعثه الرئيسى استعذاب كل منـا
لموسيقى الآخر ، فأصبحنا نقضى الساعات فى قاعة الموسيقى .
هكذا رأيت الأمر ، ولكنه كان كلما نظر إلى ، بدا وكأن عينيه
تلمسانى لمسات رقيقة ، وعجيبة جدا . . كل هذا ، ولم أفكر
مطلقا فى الحب ! ذلك لأننى خلو من الجمال ، وقد أشرفت على
أوسط العمر ، فى حين أنه شاب يتألق جمالا وشبابا . . كان
أشبه بشاب من آلهة الشمس ، فكنت أحس دفئا وحيوية فى
قربه ، وكان دائما قريبا منى . . هذه الحقيقة ، وهذا ما عشت
فيه طوال الأيام التى تلت الحفلة الموسيقية . أما هـو من

ناحيته فقد أخبرنى يا دريك ـ فيما بعد ـ بأن سماعه اغنية « المسبحة » كان إلهاما مفاجئا .. إلهاما لم ينبثق من الموسيقى ، وانما منى أنا .. وقال انه لم يفكر فى ـ مرة ـ إلا كصاحب طيب ! ثم كأنما كان ثمة قناعا أزيح ، فرآنى ، وعرفنى ، وأحس بى .. كامرأة ! .. والأمر يبدو لك غريبا ـ ولا ريب ـ كما بدا لى .. ولكنه قال ان المرأة التى وجدها فى شخصى ـ فى تلك الليلة ـ كانت مثله الأعلى للمرأة ، وأنه منذ تلك اللحظة رغب فى أن أكون له وحده ، كما لم يرغب فى أى إنسان من قبل ! » .

وصمتت جين وعيناها محدقتان فى النار الملتهبة ، فاستدار الطبيب بكل بطء ، ونظر إليها .. لقد أحس ـ هو الآخر ـ فى الماضى بشدة جاذبيتها كامرأة . وكان ذلك الشعور يشتد ويطغى كلما بان واتضح ، لأنه لم يكن ظاهرا سطحيا .. ولقد لمس قوة الحنان الأموى الهاجع فى أعماقها ، وعرف أن ذراعيها قادران عن أن يصبحا ملاذا أمينا ، وصدرها وسادة ناعمة ، وحبها عزاء صامتا .. ولقد كان الطبيب ـ فى أيام وحدته ووحشته ـ يرى لزاما عليه أن يهرب من هذه الصفات فى جين .. فقد كانت نعمة ثمينة يسهل الاستيلاء عليها ـ لأن جين كانت شديدة الجهل بها ـ ولكنها كانت نعمة ليس له فى نيلها أى حق . وبذا تسنى للطبيب أن يفهم تماما مدى سلطان تلك النعمة على رجل قدر له ان يكتشفها ، وكانت له الحرية فى أن يظفر بها لنفسه !

***

جال كل هذا بذهن الطبيب ، ولكنه اكتفى بأن قال : « ان هذا لا يبدو لى غريبا يا عزيزتى ! » . وكانت جين قد نسيت وجود الطبيب ، فتنبهت إليه ، وتحولت عن التحديق فى جوف نار المدفأة المتأججة ، وقالت : « يسعدنى الا تراه غريبا ، أما أنا فقد بدا لى غريبا .. حسنا ، لقد بارحنا (أوفردين) فى ذات اليوم ، فقدمت أنا لزيارتكما ، وذهب هو إلى (شنستون) .. كان ذلك فى يوم الثلاثاء ، وفى يوم الجمعة سافرت إلى (شنستون) حيث تلاقينا ثانية .. وبدا أن افتراقنا تلك الفترة القصيرة ، قد أذكى ذلك الشعور الغريب الذى كان يدفعنا إلى أن نكون معا ، وزاده عمقا ولذة . وكان بين الضيوف النازلين فى قصر (شنستون) ، تلك الأمريكية الحسناء « بولين ليستر » . وقد كان جارث مشغوفا بجمالها مصمما أن يرسمها ، فأيقن كل أمرىء من انه لن يلبث أن يطلب يدها . ولقد ظننت ذلك ـ أنا أيضا ـ يا دريك ، بل اننى نصحته بذلك ، فى الواقع . وكنت مسرورة ومهتمة بالأمر ، بالرغم من أن عينيه كانتا تلمسانى لمسا بنظراتهما ، ومن أننى كنت أدرك أن اليوم لم يكن يبتدىء ـ فى نظره ـ إلا حين نلتقى، ولم يكن ينتهى إلا عندما نتبادل التحية قبل النوم .. ان هذه التجربة ـ التى وضعتنى فى المقدمة، وجعلتنى المفضلة لديه ـ أحالت كل شىء أمامى ذهبيا ، وأغدقت على الحياة ازدهارا ، ومع كل هذا فقد ظللت اراها مجرد صداقة بهيجة ، غير عادية .. وفى مساء يوم وصولى إلى (شنستون) ، طلب منى ان نخرج معا إلى الشرفة بعد العشاء ، ليفضى إلى بحديث أسراره ـ كعادته ـ واننى سأسمع منه تفصيلا عن نواياه إزاء

امر خاص . فظننت يا دريك انه يسعى إلى ان يفضى إلى بسر
من الآنسة ليستر . وتحت تأثير هذا الظن سرت هادئة مطمئنة
بجانبه ، وجلست على جدار الشرفة ــ تحت ضوء القمر
الزاهى ــ ولبثت صامتة فى ارتقاب أن يبدأ حديثه . وإذ ذاك
.. اواه ، يا دريك ! »

واسندت جين مرفقيها إلى ركبتيها ، واخفت وجهها فى
راحتيها ، ثم استأنفت حديثها قائلة : « لست أقوى على أن
أسرد لك التفصيلات .. لقد كان حبه الذى تدفق على ،
اشبه بالذهب المصهور ، فأذاب أصداف تحفظى ، وتفجر فى
ثلوج الآراء التى أعتنقها ، واقتلعنى من مكانى فاكتسحنى فوق
طوفان من نار عجيبة .. ولم أعد أدرى شيئا فى السماء أو
فى الأرض ، اللهم إلا أن هذا الحب كان خالصا لى ، ولى
وحدى !.. ثم ، أواه يا دريك !.. لست أملك ان أوضح لك..
بل اننى لا ادرى كيف حدث ذلك . ولكن تلك الدوامة من
العواطف انصبت ــ آخر الامر ــ على قلبى ، فقد جثا «جارث»
على ركبتيه ، واحاطنى بذراعيه ، وتشبث كل بالآخر وقد
سادنا سكون فجائى عظيم .. كنت ــ فى تلك اللحظة ــ له
بكل كيانى ، وكان يعلم ذلك .. وكان من الممكن أن يبقى فى هذا
الوضع ساعات طويلة ، لو انه لم يتحرك ويتكلم .. ولكنه رفع
وجهه وتطلع إلى ، ثم قال كلمتين لا استطيع ترديدهما ، لأنهما
ردتا إلى صوابى فجأة ، وجعلتانى ادرك ما وراء كل هذا ..
لقد كان جارث دالمين يبتغينى زوجة له ! » .

وصمتت « جين » فى انتظار ان يبدى الطبيب اية دهشة .

ولكن دريك براند أجابها بكل هدوء : « وأى شىء آخر كان
يمكن أن يبتغيه ؟ » .. ووضع يده فوق شفتيه ، إذ شعر
فيهما برعشة مباغتة .. كانت اعترافات جين أعنف وقعا مما
توقع !.. وما لبث أن قال : « حسنا يا عزيزتى . وعلى
ذلك .. ؟ » . فقالت جين : « إذ ذاك هممت واقفة ، لأنه كان
ــ طيلة بقائه جاثيا امامى ــ السيد المتسلط على ، عقلا
وجسما . وهتفت بى غريزة فى اعماقى ، بأن العقل يجب أن
يسبق اى شىء آخر فى كيانى إلى قول « نعم » ، إذا شئت أن
أقاد إلى حظيرة الزوجية . فان التعبير الذى ورد فى الكتاب
المقدس هو : « العقل، والروح، والجسد » ، وليس «الجسد،
والروح والعقل » ، كما يقال خطأ . واعتقد بأن النتيجة التى
تترتب على هذا الالهام هى أصح النتائج » .

وصدرت عن الطبيب حركة سريعة نمت عن بالغ الاهتمام،
وهتف : « يا للسماء ، يا جين !.. انك بهذا قد صورت
الحقيقة أدق تصوير ، وعبرت عنها التعبير الذى كثيرا ما كنت
أنشده دون أن اهتدى إلى الكلمات الصحيحة .. اما انت
يا جانيت ، فقد وجدتها ! » .. فنظرت إلى عينيه المتألقتين ،
وابتسمت فى أسى ، وقالت ، « أحقا يا فتاى ؟.. ولكنها
كلفتنى ثمنا باهظا .. فقد دفعت حبيبى عنى ، وأخبرته بأننى
فى حاجة إلى اثنتى عشرة ساعة أفكر فيها بهدوء . وكان واثقا
تمام الثقة .. بى ، وبنفسه .. فقبل دون ما احتجاج ،
واستجاب لطلبى ففارقنى لتوه . وليس بوسعى أن أنكر
طريقة انصرافه ، ولا لك انت يا « ديكى » ، ووعدته بأن ألقاه

فى كنيسة القرية ـ فى اليوم التالى ـ لأطلعه على جوابى ، فقد كان يعتزم اختبار الأرغن الجديد فى الساعة الحادية عشرة ، وكنا نـدركَ اننا سنكون وحيـدين . فلما ذهبت صرف نافخ الأرغن ، ودعانى إلى عتبة الهيكل .. كان الوضـع بديعا ، فأخذت روح الفنان فيه ، تغنى فرحا ، وهى ترفـرف انفعالا .. وتجلى فى عينيه بريق اليقين التام ، وإن ظل مـسيطرا على نفسه ، فتحاشى أن يلمسنى وهـو يسـألنى عن جوابى .. وعند ذاك أجبته بالرفض الصريح ، مبدية سببا لا يدع له سبيلا إلى الجدال ! » .

وفى الحال ادار ظهره ، وخرج من الكنيسة ، فلم أكلمه منذ تلك اللحظة ، حتى الآن !

* * *

وسـاد حجرة الطبيب صـمت طـويل ، إذ استطاع قلب الرجل أن يصل إلى أعمق آلام رجل آخر ، ولكنه ـ مع ذلكَ ـ ظل يحاول كتمان استنكاره ، إلى أن يعرف الحقيقة كاملة .. وأخذت روح « جين » ترزح تحت وطأة الانفعال الذى جثم عليها فى تلك الساعة القاسية .. ساعة أن ازجت جوابهـا لجارث . ورأت ـ مرة أخرى ـ انها كانت على صـواب .. وأخيرا تكلم الطبيب ، وقد وجه إليها نظرة فاحصة ، وكأنه كان يغوص ـ خلال عينيها ـ إلى أعماقها . وبدا صوته صارما برغم ترفقه : « ولماذا رفضته يا جين ؟ » .

فمدت جين له يديها مستعطفة ، وقالت : « آه ، يا فتاى ؟ .. هل لا بد من أن ازيدك ايضاحا ؟ .. اى شىء آخر كنت

أملك ان افعل ، بالرغم من أننى كنت ـ بذلكَ ـ أرفض اسمى حياة يمكن ان تتاح لى ؟.. إنك لتعرف جارث تمام المعـرفة يا دريك ، وتدرك مدى تعلقه بالجمـال ، فـلا بد أن يبقى محاطا به على الدوام .. وقبل أن تهبط علينا هـذه الحاجة العجيبة المتبادلة وكان قد حدثنى فى صراحة متناهية عن هذا الأمر ، قبل أن يشعر كل منا بهـذا الاحتيـاج الغريب إلى الآخر ، إذ روى لى قصة رجل عادى المنظر ، وهبه الله خصالا ومواهب كانت موضع اعجاب شديد من جارث ، جعله يرى وجه الرجل على ضوء هذا الاعجاب . ثم أردف قائلا : « على انه ليس بالوجه الذى يود المرء أن يعيش معه أو أن يلقاه يوميا على المائدة .. ثم ان المرء غير مضطر إلى أن يخضع لوضـع كهذا ، يعتبر ـ بالنسبة إلى ـ استشـهادا » .. أواه يا دريك !.. أكان فى وسعى أن اربط جارث إلى وجهى العادى ، المجرد من الجمال ؟.. اكان بوسعى أن أسمح لنفسى بأن اكون نظاما مفروضا ـ فى كل يوم ، وكل ساعة ـ على تلك النفس المتألقة ، العاشقة للجمال ؟.. اننى اعلم انهم يقـولون ان « الحب أعمى » ، ولكن هذا يصح قبل أن يتربع « الحب » على عرشه .. فالحب التواق ، المشتهى ، لا يرى فى محبوبه سوى الشىء الذى ايقظ اشتهاءه . أما الحب القنـوع ، فانه لا يلبث ان يسترد كل بصره ، ولا تلبث قواه الابصارية هذه أن تتضاعف ـ على مر الزمن ـ وتصبح مع الاستعمال اليومى ذات قدرة على تكبير المرئيات وتقريبها .. ان حب الزواج ليس بالأعمى ، وفى وسع أى شخص يقيم مع زوجين أن يسمع ما يراه الحب ـ من كل من الطرفين ـ فماذا بوهم الحب الأعمى

يتبدد إلى الابد .. وأنا أعلم أن « جارث » كان أعمى خلال الأيام الذهبية ، فلم ير افتقارى التام إلى الجمال ، لأنه كان يريدنى برغبة قوية . ولو أنه قدر له أن ينالنى ، وأن يشبع نفسه من كل ما املك ان امنحه من جمال الروح والعقل .. لو حدث ذلك ، وبدأت الحياة اليومية تتخذ المجرى الرتيب الذى لابد لكل زوجين من أن يرتقياه .. فتصور ما يكون إذا ما جلسنا لتناول الفطور ، ورأيته ينظر إلى ثم يشيح بوجهه .. أو إذا فطنت إلى نفسى وقد جلست إلى اناء القهوة ، وأنا فى ابسط مظهر عادى لى ، وتبينت أن زوجى قد بدأ يحتمل منظرى كشىء مفروض عليه .. فهل كنت احتمل ذلك ؟.. انما كنت ازداد قبحا على قبح — تحت شقوة الشعور يوما بعد يوم ، باننى لم اعد اروق له .. لغير ما ذنب منى — إلى أن يقدر للحسرة ، وخيبة الأمل — وربما الغيرة — أن تعمل مجتمعة على جعلى دميمة بالفعل ؟.. اننى أسألك يا دريك ، أترانى كنت احتمل ذلك ؟ » .

وكان الطبيب ينظر إلى جين باهتمام دقيق ، وكأنه يفحصها على ضوء علمه ، ثم قال : « كم كنت مصيبا إلى أقصى حد عندما قدرت حالتك ، ونصحت لك بالسفر إلى الخارج . ومع كل المدلولات الصغيرة .. » . فقاطعته جين صائحة فى ضجر بالغ : « أواه يا فتاى !.. لا تحدثنى كما لو كنت مريضة ، بل عاملنى كانسان على الأقل ، وصارحنى — كما يصارح الرجل رجلا مثله — هل كان بوسعى أن أربط حياة جارث

دالمين إلى وجهى البسيط ؟.. انك تعلم أن وجهى مجرد من الجمال الصارخ ! » .

وضحك الطبيب وقد سره أن يستفز جين وقال : « لو كنا نتكلم كما يتكلم رجل إلى رجل ، يا فتاتى المزيزة ، لوجدت بنفسى بعض أمور قاسية أود أن أقولها .. ولكننا نتكلم رجل إلى امراة .. رجل ظل — زمنا طويلا جدا — يخدم تلك المراة العزيزة النبيلة ، ويكرمها ، ويعجب بها !.. سأجيبك بصراحة عن سؤالك : « انك لست جميلة بالمعنى العادى المألوف . وما من رجل يحبك حقا — يجيبك بغير ذلك . لأنه ما من شخص يعرفك ويحبك ، يفكر فى أن يكذب عليك . ومع ذلك ، فلنسلم جدلا — إذا شئت — بأنك مجردة من الجمال ، وإن كنت أعرف أن ثمة شبانا كانوا خليقين بأن يهموا بأن يركلونى إلى عرض الطريق — لو أنهم كانوا هنا — لمجرد هذا القول ، ما لم أبادر — دفاعا عن نفسى — إلى القول بأن سمعهم قد خانهم ، وبأنك « جين، فحسب ! » ، وهذا كل ما يهمهم فى الأمر . وما دمت أنت جين ، فان أصدقاءك يكونون راضين . وفى الوقت ذاته ، أحب أن أضيف — بمناسبة الحديث عن هذا الوجه العزيز المحبوب — أن بوسعى أن أتذكر فترات فى الماضى ، كنت أشعر فيها باننى على استعداد لأن أسير راضيا عشرين ميلا ، لألقى نظرة عليه .. وقد اعتدت دائما أن أتوق — فى غاية — إلى حضوره ، وفى حضوره إلى الا يغيب عنى » .

— ولكنك لم تكن مضطرا إلى أن تراه دائما أمامك على المائدة ، فى كل وجبة !

— هذا لسوء الحظ .. ولكننى كنت أزداد استمراء للغذاء ، فى المناسبات السعيدة التى كنت أراه فيها أمامى !

— ثم إنك يا دريك ، لم تكن مضطرا إلى تقبيل هذا الوجه !

فطوح الطبيب رأسه إلى الوراء ، وانفجر مقهقها بصوت مرتفع ، حتى أن زوجته « فلاور » دهشت إذ سمعته — وهى تمر بالحجرة ، صاعدة إلى الطابق الثانى — فتساءلت عما يكون قد اتجه إليه حديثهما . ولكن جين ظلت جادة ، إذ لم تجد فى الأمر ما يستوجب الضحك .. وعندما تملك الطبيب نفسه ، قال : « كلا يا عزيزتى .. فليسجل فى عداد فضائلى — التى لا نهاية لها — اننى لم اقبل هذ االوجه مرة واحدة ، فى كل السنوات التى عرفته فيها ! » . فصاحت جين : « لا تغظنى يا ديكى !.. أواه يا فتاى ، ان هذه هى أهم مسألة فى حياتى بأسرها ، فاذا لم تمحضنى النصح الآن — عن حكمة وإمعان تفكير ، فلن تكون لهذا الاعتراف القاسى أية جدوى !» .

* * *

والآن .. ترى بماذا ينصح الطبيب « جين » ؟.. هل تكفر عن قسوتها فى رفض الرجل الذى أحبها ، بأن

تسهر إلى جوار فراشه ؟.. وهل يقبل منها ذلك ، أو يرى فيه إشفاقا — وليس حبا — تأباه رجولته ؟.. أيفلح وحى « أبى الهول » وإلهام (الدلتا) ، أم يقدر لجين أن تعيش فى عذاب ، ولجارث أن يعيش فى ظلامين .. ظلام البصر ، وظلام القلب ؟!

هذا ما ستطالعه فى الجزء الثانى والأخير من هذه القصة المتعة .

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ـ ١٦٣ ـ ٠٨٠ ـ ٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ـ ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤





مطبوعات كتابى
إصدار جديد



عزيزى القارئ :

كان أول ما لفت نظرى إلى هذه الرواية الصبغة المحلية التى اقترنت ببداياتها . إذ يبدأ الفصل الأول منها وبطلتها «جين شامبيون» جالسة تحتسى قدحًا من الشاى فى شرفة فندق (مينا هاوس) القديم المطل على أهرام الجيزة . وهى تطالع العدد الأخير من جريدة (الأحد) التى تصدر فى لندن .. وفوجئت بخبر منشور فى تلك الصحيفة يفيد أن الشاب الذى تعتزم الزواج منه ـ وهو الفنان « جارث دالمين » ـ قد فقد بصره نهائيًا . فتسرع عائدة إلى لندن كى تقف إلى جواره فى محنته .. وكان «جارث» يصغرها سنا ، وكان باهر الجمال ، ذائع الصيت ، واسع الثراء ، تتهافت عليه أجمل حسان المجتمع الراقى . ويسعى دائمًا إلى أن يحيط نفسه بكل جميل . فتدرك أن زواجهما لن يكتب له التوفيق . لأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عينى « جارث » على دمامتها . لذلك ترفض يده . ولا تجد علة تبديها له سوى صغر سنه . وأنه فى نظرها (مجرد غلام) . وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم . وفى مصر تقرأ نبأ فقدانه البصر . فتسرع عائدة إليه كى تواسيه وتخفف عنه مأساته .. والآن . تعال نقرأ معًا هذه الرواية المشوّقة !

حلمى مراد